صورة للفنان في شبابه

جيمس جويس



ترجمة ماهر البطوطي

صورة للفنان في شبابه

تأليف
جيمس جويس

ترجمة
ماهر البطوطي



صورة للفنان في شبابه

جيمس جويس

A Portrait of the Artist as a Young Man

James Joyce

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٢٣٠ ٠

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الإنجليزية عام ١٩١٦.
صدرت هذه الترجمة عام ٢٠٢٠.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

المحتويات

وتحوَّل بفكره إلى معرفة العلوم الخفية.

أوفيد: «التحولات»، (٨)، (١٨٨)

مقدمة

كان يومًا ما زلتُ أذكره من عام ١٩٦١ حين قرَّرت على نحوٍ قاطع أن أتَّخذ الكتابةَ والترجمة مهنةً أساسية لي. كنتُ أدرس آخِر سنة في قسم اللغة الإنجليزية بآداب القاهرة، وقد تشبَّعتُ بالمقررات الدراسية، خاصةً في تلك السنة، وتأثَّرتُ برواية «جيمس جويس»؛ «صورة للفنان في شبابه»، التي قرَّر بطلُها نذْرَ نفسه للأدب والفن والجمال بكل أشكاله. كذلك درسنا «همنجواي» وحياته وأسلوبه الجديد في الكتابة. وكنتُ أتابع ما يَصدُر من كتب مهمة خارج مقررات الدراسة، فتأثَّرتُ بأدب «ألبير كامي» وفلسفته، وكتاب «اللامنتمي» الذي كتبه «كولِن ولسون» وأصبح حديثَ الأدباء.

وكنت قد بدأت القراءة وجمْعَ الكتب منذ كنت في العاشرة من عمري، فنشأت على كتب «توفيق الحكيم» و«طه حسين» و«نجيب محفوظ» و«يوسف السباعي» وشعر «أحمد شوقي». وبدأت أيضًا في جمع الكتب والسلاسل الجميلة التي كانت تَصدُر في مصر في الخمسينيات، ومنها: «الهلال» و«كتاب الهلال» و«روايات الهلال»، و«اقرأ»، و«كتب للجميع»، وكتب ومطبوعات «كتابي» و«الكتاب الذهبي»، وغير ذلك.

وبعد التخرُّج في الجامعة، عرفتُ أن مَن يريد أن يتَّخذ الكتابةَ مهنةً، عليه إجادةُ لغته العربية إجادة تامة، وكذلك ألَّا يعتمد في معيشته على مكافآت الكتابة؛ فدرست القرآن الكريم وتَدبَّرت آياته ولغته، وقرأت كتبَ النحو المتاحة، وما طالَته يدي من كتب التراث العتيقة. ولم أبدأ الكتابةَ إلا بعد أن شغلتُ وظيفةً مناسبة بوزارة التعليم العالي بالقاهرة، تترك لي وقتًا كافيًا بعدها للقراءة والكتابة. ولما كنتُ أريد الكتابة في النقد الأدبي، كانت أوائل مقالاتي نقدًا وعرضًا لما أحببتُه من الكتَّاب والأدباء. ثم جاءت الترجمة وأفسحتُ لها بعضَ الوقت أولًا، ثم زحفَت على معظم الوقت بعد ذلك. وكان أول كتبي المنشورة عن «إرنست همنجواي»، ثم رواية «جيمس جويس» التي أحببتها. وبدأتُ في دراسة اللغتَين

الإسبانية والفرنسية قبل أن تَنتدبني الوزارة للعمل مُلحقًا ثقافيًّا في مدريد، حيث قضيتُ أكثر من أربع سنوات.

وبعد عودتي من إسبانيا، قضيتُ أربعَ سنوات أخرى بالقاهرة أُزوِّد المجلات في القاهرة وبيروت بمقالاتي المُؤلَّفة والمترجَمة، قبل أن أَتوجَّه إلى نيويورك للعمل مترجمًا ثم محررًا بالأمانة العامة للأمم المتحدة. وقد عكفت على الكتابة والترجمة عن الأدب المكتوب بالإسبانية من شِعر ورواية ومسرحية، حتى أساهم في تشييدِ جسرٍ ثقافي للقُرَّاء العرب إلى تلك الثقافة الثرية. ولكن لم أَنسَ اللغات الأخرى، فترجمتُ لشاعر الشعب الأمريكي «والت ويتمان» وبعض آثار اللغة الفرنسية، وزاد إنتاجي بعد التقاعد من العمل حتى قارَبَت أعمالي ثلاثين كتابًا.

ولما كانت الكتب الورقية، رغم أهميتها، تَذْوي وتغيب حروفها بفعل الزمن، فقد رحَّبتُ بقيام مؤسسة «هنداوي» بوضع كتبي رقميةً على النت لتكون متاحة لمن يريد قراءتها، والمؤسسةُ بذلك تضطلع بعملٍ مهم في نشر الثقافة وإتاحتها وحفظها على مر السنين.

الفصل الأول

كان يا ما كان، في يوم من الأيام، وكان يومًا جميلًا جدًّا، كانت هناك بقرةٌ قادمةٌ عبر الطريق، وقابلَت هذه البقرة القادمة عبر الطريق صبيًّا صغيرًا لطيفًا جدًّا اسمه الطفل «تاكو».

قصَّ عليه أبوه هذه القصة، وكان ينظر إليه من وراء نظارته، كان له وجهٌ كثيفُ الشعر.

أما هو فكان الطفل «تاكو»، وسارت البقرة عبر الطريق إلى حيث تسكن «بيتي بيرن»، التي تبيع حلوى السكر بالليمون.

آه ... الوردة البرية تُزْهر
في المكان الصغير الأخضر.

كان يُردد هذه الأغنية دائمًا؛ فقد كانت أغنيته المفضَّلة، يغنيها هكذا:

آه، الولدة الخضلاء تزهل.

عندما تبلُّ فراشَك تشعر بالدفء أول الأمر، ثم يأخذ في البرودة، وتضع أمه المشمع الذي كانت له رائحةٌ غريبة.

رائحة أمه أفضل من رائحة أبيه، وكانت تعزف له لحن البحَّارة لكي يرقص عليه:

ترالالا، لا لا،
ترالالا، ترالالا دي،
ترالالا، لا لا،
ترالالا، لا لا.

ويُصفق العم «تشارلس» و«دانتي»[1] له. كانا أكبرَ سنًّا من أبيه وأمه، لكن العم تشارلس أكبر من دانتي. لدانتي فرشاتان في رفِّ حاجياتها. الفرشاة ذات الظهر المخملي الأرجواني ترمز لـ «ميشيل دافيت»،[2] والفرشاة ذات الظهر المخملي الأخضر لـ «بارنل»،[3] وكانت دانتي تُعطيه بعضَ الحلوى في كل مرة يُحضر لها قطعةً من أوراق اللف. كان أولاد آل «فانس» يقطنون الشقة رقم ٧، ولهم أبٌ وأمٌّ يختلفان عن أبيه وأمه، هما والدُ «إيلين» وأمُّها. قال إنهم حين يكبرون فسوف يتزوج إيلين، واختبأ تحت المائدة.

وقالت أمه: «آه ... سوف يعتذر ستيفن.»

وقالت دانتي: آه ... ستأتي النسور وتنزع عينَيه إن لم يفعل.

تنزع عينَيه.

يعتذر.

يعتذر.

تنزع عينيه.

يعتذر.

تنزع عينَيه.

تنزع عينَيه.

يعتذر.

كانت الملاعب الفسيحة تموج بالأولاد، وكلُّهم يصيح، ويحثُّهم المشرفون بصيحاتهم القوية. وكان هواء المساء غائمًا وباردًا، وبعد كلِّ هجمةٍ أو ضربةٍ يُصوِّبها اللاعبون تطير الكرة الجلدية كطائرٍ ثقيلٍ يمرق خلال النور المعتم. ولَزِم هو منطقةَ فريقِه بعيدًا عن بصر المشرف، بعيدًا عن متناول الأقدام الخشنة، متظاهرًا بالجري بين حينٍ وآخر. شعر بجسده صغيرًا واهنًا بين هذا الجمع من اللاعبين، وبعينَيه ضعيفتَين دامعتَين. لم يكن «رودي كيكهام» هكذا، ويقول الجميع إنه قد يصبح رئيسًا للصف الثالث.

[1] مربية أولاد أسرة ديدالوس.

[2] من الزعماء الأيرلنديين.

[3] من الزعماء الأيرلنديين.

كان «رودي كيكهام» زميلًا لطيفًا، أما «ناستي روش» فرائحته كريهة، و«رودي كيكهام» له غطاء للساق بين أدواته ووجبة خاصة في المطعم، أما «ناستي روش» فيداه كبيرتان، وكان يسمِّي الحلوى التي يقدمونها لهم يوم الجمعة الجرو المغطَّى بالملاءة. وقد سأله ذات يوم: ما اسمك؟

فأجاب ستيفن: ستيفن ديدالوس.

فقال ناستي روش عند ذلك: أي نوع من الأسماء هذا؟

ولمَّا لم يستطع ستيفن الإجابة، سأله ناستي روش: وماذا يعمل والدك؟

وأجاب ستيفن: إنه من السادة.

فسأله ناستي روش: أهو من القضاة؟

أخذ يتنقل من مكان إلى آخر على امتداد منطقة فريقه، ويجري قليلًا من حين لآخر. كانت يداه زرقاوين من البرد فأبقاهما في الجيوب الداخلية لصِدارِه الرمادي ذي الحزام، الذي يلتفُّ حول جيبه، والحزام يُستعمل أيضًا في الضرب. قال أحد الزملاء يومًا لكانتويل: «بإمكاني أن أضربك ضربةً قاضية في ثانية واحدة.»

وأجاب كانتويل: اذهب وقاتِل مَن هو ندٌّ لك، فلتضرب سيسل تندر، أُحبُّ أن أراك تفعل ذلك، بإمكانه أن يرفسك في مؤخرتك.

لم يكن هذا تعبيرًا مهذبًا، لقد قالت له أمُّه ألَّا يتحدثَ مع الأولاد الوقحاء في المدرسة. يا لَلأم اللطيفة! لقد رفعت نقابها عن شفتها إلى أنفها لكي تُقبِّله حين كانت تُودِّعه في أول يومٍ أمام ردهة المدرسة. وكان أنفها وعيناها حمراء، ولكنه تظاهر أنه لم يلحَظ أنها على وشك البكاء، إنها أمٌّ جدُّ لطيفة، ولكنها لا تكون كذلك حين تبكي. وأعطاه أبوه قطعتين من ذات الشلنات الخمسة مصروفًا لجيبه. وقال له أبوه أن يكتب إلى المنزل إذا ما احتاج إلى شيء، كما نصح بألَّا يشيَ بأحدٍ من زملائه مهما كانت الأحوال، ثم صافح المدير والده ووالدته على باب المدرسة والنسمات تعبث بردائه. وتحرَّكَت السيارة بأبيه وأمه، اللذَين أخذَا يهتفان ويلوِّحان له بأيديهما:

– وداعًا يا ستيفن، وداعًا.

– وداعًا يا ستيفن، وداعًا.

واحتوَته دوامة لعبة الرجبي، وانحنى لينظر من خلال السيقان؛ فقد أجفل من العيون البارقة والأحذية الملطخة بالطين. كان التلاميذ يتصارعون وتتصاعد منهم الأنات، بينما أرجلهم تعرك وتركل وتدق، ثم راغ حذاء «جاك لوتون» الأصفر بالكرة وتقدَّم بها، وجرَت

خلفه كلُّ الأحذية والسيقان الأخرى، وجرى هو وراءهم فترةً قصيرة ثم توقَّف: كان من العبث مواصلة الجري، وسرعان ما سيعودون إلى المنزل في الإجازة، وحين يذهبون لحجرة الدراسة بعد العشاء سوف يغيِّر الرقم الذي كتبه داخل قمطره من ٧٧ إلى ٧٦.

وفكَّر أنه من الأفضل أن يكون في حجرة الدراسة على أن يكون هنا في البرد. كانت السماء معتمة وباردة، ولكن كانت تلمع بعض الأضواء في إدارة المدرسة. وتساءل متعجبًا: تُرى من أيِّ النوافذ ألقى «هاملتون روان» قبَّعتَه على سور الحديقة، وهل كانت هناك أحواض للزهور تحت النوافذ في ذلك الوقت؟ عندما استدعوه ذات يوم إلى مبنى إدارة المدرسة، أراه كبيرُ الخدم الخدوش التي خلَّفها رصاص الجنود في خشب الباب، كما أعطاه قطعةً من الخبز الذي كانت تأكله الطائفة الجزويتية.

إن منظر الأضواء في إدارة المدرسة يبعث في النفس الراحة والدفء، ويبدو كأنما الأمر شيء في الكتب، قد يبدو دير «ليستر» هكذا، كما أن هناك جُملًا لطيفةً في كتاب الدكتور كورنويل للتهجي تبدو كالشعر، ولكنها لم تكن سوى جُمَل لتعليم التهجي:

مات وولزي في دير ليستر،
حيث دفنه الرهبان.
الكانكر مرض النباتات،
أما الكانسر[٤] فللحيوانات.

كم يكون جميلًا أن يستلقيَ على بساط المدفأة أمام النار، ويتكئَ برأسه بين يديه ويفكر في هذه العبارات. وارتجف كما لو أن ماءً باردًا موحلًا قد مسَّ جسده. كم كان «ولز» دنيئًا لأنه دفعه بكتفه إلى حفرة دورة المياه؛ لأنه لم يقبل أن يبادل علبة سعوطه الصغيرة بثمرة «أبو فروة» البسيطة، التي يملكها ولز ويسميها قاهرة الأربعين. كم كانت المياه باردة موحلة! لقد رأى أحد الزملاء مرة فأرًا يقفز في تلك الردهة، وتصور أمَّه جالسة أمام النار مع «دانتي»، تنتظران «بريجيد» لتُحضر لهما الشاي، وقد وضعَت قدمَيها على سياج المدفأة، ونعلاها في غاية الدفء. كان لهما رائحةٌ جميلةٌ دافئة، ودانتي تعرف كثيرًا من الأشياء، فقد علَّمته أين تقع قناة موزمبيق وما أطول نهر في أمريكا، واسم أعلى جبل

[٤] مرض السرطان.

في القمر. أما الأب «أرنال» فهو أكثر علمًا من دانتي لأنه قَسٌّ، ولكنَّ أباه والعمَّ «تشارلس» كانَا يقولان إن دانتي امرأة ماهرة وقارئة ممتازة، وأحدثَت دانتي ذات مرة ضجةً كبيرةً بعد الغداء، ووضعت يدها على فمها. كان ذلك نتيجة عسر الهضم.

ونادى صوتٌ من بعيد في الملعب: «اجمع.»

فرددت أصوات أخرى من الصف النهائي والصف الثالث: «اجمع، اجمع!»

وتجمَّع اللاعبون حُمرَ الوجوه وقد علاهم الوحل، وانضم إليهم سعيدًا بالذهاب إلى الداخل. وحمل «رودي كيكهام» الكرةَ من شريطها الجلدي، وطلب منه أحدُ زملائه أن يلعبوا بها دورًا أخيرًا، ولكنه مضى في سيره دون أن يردَّ عليه، وقال «سيمون مونان» لرودي كيكهام ألَّا يفعل ذلك؛ لأن المشرف يراهم، فتحوَّل الزميل إلى سيمون مونان وقال له: إننا جميعًا نعلم لماذا تقول ذلك. إنك رضيع المشرف «ماكجليد».

رضيع: كلمة عجيبة! لقد دعا الزميل «سيمون مونان» بهذا الاسم؛ لأن «مونان» اعتاد أن يربط أشرطة المشرف المطلقة وراء ظهره، فيتظاهر المشرف بالغضب لذلك، ولكن وقْع الكلمة كان قبيحًا. لقد غسل يدَيه ذات مرة في دورة الميناء بفندق «ديكلو»، وبعدها رفع والده سدادة الحوض من سلسلتها، وتسرَّبت المياه القذرة من فتحة الحوض. وعندما تسرَّبت كلُّها ببطء صدر عن الفتحة صوتٌ يُشبه صوت الرضيع هذا: سك،[٥] إنما كان صوتًا أعلى من ذلك.

وشعر بالبرودة ثم بالسخونة عندما تذكَّر ذلك، وتمثَّل منظر دورة المياه الأبيض. كان هناك صنبوران تُديرهما فيتدفق الماء: باردًا وساخنًا. وشعر بالبرودة ثم بالسخونة، وكان بإمكانه أن يرى الأسماء المنقوشة على الصنابير، كان هذا شيئًا عجيبًا جدًّا.

كذلك سرى هواء الردهة بالبرد إلى جسده، كان عجيبًا رطبًا، ولكن سرعان ما سيُوقدون مصابيح الغاز، ويصدر عن استعمالها طنينٌ خفيف كالأغنية الخفيفة لا يتغير أبدًا، وتستطيع سماعه حينما يتوقف التلاميذ عن الكلام في حجرة الألعاب. كانت تلك حصة الرياضيات، وكتَب المدرس — الأب أرنال — معادلةً صعبة على السبورة وقال: «والآن، مَن سيفوز يا تُرى؟ هيَّا يا يورك، هيَّا يا لانكستر.»

وبذل ستيفن كلَّ جهده، ولكن الرقم كان صعبًا، وشعر بالارتباك، وأخذت الشارة الحريرية الصغيرة ذات الوردة البيضاء المثبتة بالدبوس على صدرِ سُتْرتِه تهتز. لم يكن

[٥] لفظة سك بالإنجليزية Suck تعني يرضع.

ماهرًا في الرياضيات، ولكنه بذل كلَّ جهده حتى لا يخسر فريق يورك، وبدا وجهُ الأب أرنال شديد السمرة، ولكنه لم يكن غاضبًا بل كان يضحك، وطرقع «جاك لوتون» أصابعه، ونظر الأب أرنال إلى كراسته، وقال: «صح، برافو يا لانكستر، الوردة الحمراء تفوز، هيَّا الآن، تقدَّم يا يورك!»

ونظر جاك لوتون من فوق كتفه، وظهرت الشارة الحريرية الصغيرة وعليها الوردة الحمراء الزاهية؛ لأنه كان يرتدي سترة بحارة زرقاء. وشعر ستيفن بوجهه يحمرُّ مثلها عندما جالَت بخاطره المراهنات التي عُقدت حول مَن منهما سيفوز بالصف الأول في الرياضيات: هو أم جاك لوتون؟ كان جاك لوتون يفوز ببطاقة الأولوية عدة أسابيع، وأسابيع أخرى يفوز هو بها. واهتزَّت شارتُه الحريرية البيضاء وتماوجَت، بينما هو يعمل في حل المسألة التالية، وصوت الأب أرنال يخترق سمعَه.

ثم انطفأَت جذوةُ حماسه، وشعر بوجهه شديد البرودة، وخطر له أنَّ وجْهَه لا بد وأن يكون شاحبًا؛ لأنه كان باردًا. لم يكن باستطاعته حلُّ المسألة، ولكن هذا لا يهم. الورود البيضاء والورود الحمراء: لونان جميلان، وبطاقات الفوز للمرتبة الأولى والثانية والثالثة ذات ألوان جميلة أيضًا: حمراء وبيضاء وصفراء، والزهور الحمراء والصفراء جميلة. ربما كانت الوردة البرية لها مثل هذه الألوان. وتذكَّر الأغنية التي تدور حول الوردة البرية التي تُزهر في المكان الصغير الأخضر، ليست هناك زهور خضراء، غير أنها قد تكون موجودة في مكانٍ ما من العالم.

ودق الجرس، واصطفَّ التلاميذ خارج الحجرات وعلى طول الردهة نحو المطعم. وجلس ينظر إلى قطعتَي الزبد في طبقه، ولكنه لم يستطع أن يأكل الخبز الرطب. وكان مفرش المائدة رطبًا رخوًا، ولكنه شرب الشاي الساخن الخفيف الذي صبَّه في قدحه صبيُّ الفرَّاش الأرعن ذو المريلة البيضاء حول وسطه. وتساءل عمَّا إذا كانت مريلة الخادم رطبة. وكان «ناستي روش» و«سورين» يشربان الكاكاو الذي أرسله لهما أهلهما في عُلَب صفيحية؛ فقد قالا إنهما لا يستطيعان شرب الشاي لأنه مثل ماء الخنازير، وكانا يقولان إن والدَيهما من القضاة.

كان الأولاد جميعهم يبدون في عينَيه شديدي الغرابة، لهم آباء وأمهات وملابس وأصوات مختلفة. واشتاق إلى أن يكون في المنزل ويُريح رأسه على حِجر أمه، ولكن ليس هذا ممكنًا؛ لذلك فقد تطلَّع إلى انتهاء اللعب والمذاكرة والصلاة حتى يدلف إلى فراشه.

وشَرِب قدحًا آخر من الشاي، فقال «فلمنج»: «ماذا بك؟ أتشعر بألمٍ أم ماذا؟»

فقال ستيفن: «لا أدري.»

فقال فلمنج: «ليست معدتك على ما يرام؛ لأن وجهك يبدو شاحبًا، سيذهب ذلك سريعًا.»

وقال ستيفن: «آه … أجل.»

ولكن عِلَّته لم تكن هناك، بل خطر له أن العلة تكمن في فؤاده، إذا كان من الممكن أن يمرض المرء في هذا الموضع. كان جميلًا من «فلمنج» أن يسأله عن حاله، وشعر برغبة في البكاء. وارتكز بمرفقَيه على المائدة، وأخذ يسدُّ طاقاتِ أُذُنَيه ويفتحهما براحتَيه. وكان في كل مرةٍ يرفع يدَيه عنهما يسمع ضجةَ المطعم، التي تُشبه زئيرَ القطار عند الليل، أما عندما يسدهما فكان الزئير يختنق كالقطار حين يَعْبر نفقًا. كان القطار يزأر على هذا النحو في تلك الليلة عندما كان في مدينة «دوكي»، ولكنَّ زئيره توقَّف عندما دخل النفق، وأغمض عينَيه، وظل القطار يجري في خياله، يزأر ويتوقف ويزأر ويتوقف. كان جميلًا أن نسمعه يزأر ويتوقف، ثم ينطلق زئيرُه مرةً أخرى بعد خروجه من النفق ثم يتوقف.

وأخذ تلاميذُ الصفِّ الأعلى يهبطون على البساط الذي في وسط المطعم. كان منهم «بادي راث» و«جيمي ماجي»، والإسباني الذي سمحوا له بتدخين السيجار، والبرتغالي الصغير الذي يرتدي قبعةً صوفية، وتلاهم أفرادُ الصف الثالث. وكان لكل شخصٍ طريقةٌ مختلفة للمشي.

وجلس في ركنٍ من حجرة الألعاب يتظاهر بمشاهدة مباراة في الدومينو، وقد تمكَّن مرةً أو مرتين في لحظة خاطفة من سماع الأغنية الخفيفة التي تَصْدر عن المصباح الغازي. ووقف العريف أمام الباب ومعه بعض الأولاد، بينما «سيمون مونان» يعقد أطرافَ أردانِه المطلقة، وكان يُحدِّثهم عن «تولابج».

ثم ابتعد العريف عن الباب، واقترب «ولز» من ستيفن وقال له: «قل لي يا ديدالوس، هل تُقبِّل والدتَك قبل ذهابك للنوم؟»

وأجاب ستيفن: «أجل.»

فتحوَّل «ولز» إلى التلاميذ، وقال: «أوه … ها هو زميل يقول إنه يُقبِّل والدته كلَّ ليلة قبل أن يذهب للفراش.»

وتوقَّف التلاميذ الآخرون عن لَهْوهم والتفتوا إليهما وهم يضحكون. وتضرَّج وجهُ ستيفن خجلًا من وَقْع أعينهم، وقال: «إني لا أفعل ذلك.»

فقال ولز: «أوه … ها هو زميلٌ يقول إنه لا يُقبِّل والدتَه قبل أن يذهب للفراش.»

وضحك الجميعُ مرةً أخرى، وحاول ستيفن أن يُشاركَهم الضحك، وشعر بالارتباك والسخونة يغزوان جسدَه في لحظة خاطفة. ما هو الجواب الصحيح لهذا السؤال إذن؟ لقد ردَّ بإجابتَين وولز يضحك في كل مرة، لا بد أن ولز يعرف الجواب الصحيح؛ فقد كان في الصف الثالث بقسم القواعد، وحاول أن يفكِّر في والدة ولز، ولكنه لم يجرؤ على رفْع عينَيه إلى وجهه؛ فلم يكن يحبُّ وجهَه. كان «ولز» هو الذي دفعه أمس بكتفه إلى حفرة دورة المياه؛ لأنه لم يَقْبل أن يُبادل علبةَ سعوطه[٦] الصغيرة بثمرة «أبو فروة» البسيطة التي يملكها ولز ويسمِّيها قاهرة الأربعين. كان هذا عملًا دنيئًا، وقد قال جميع الزملاء هذا. لَكَم كانت المياه باردةً وموحلة، وقد شاهد أحد الزملاء مرةً فأرًا يقفز رأسًا في تلك الردهة، وشعر بوحل الحفرة الباردة يغطي جسدَه كلَّه. وعندما دقَّ الجرس معلِنًا بدْءَ الدراسة، وخرجَت صفوف التلاميذ من حجرة الألعاب، شعر بهواء الردهة والسلَّم البارد ينفذ بين ملابسه. كان ما يزال يفكر في الجواب الصحيح، أصوابٌ أن يُقبِّل والدتَه أم خطأ؟ ما معنى ذلك: أن يُقبِّل؟ يرفع وجهه إلى أعلى هكذا ليُلقيَ تحيةَ المساء، فتهبط والدتُه بوجهها عليه. كانت هذه القُبلة: أن تضعَ أمُّه شفتَيها على خدِّه. كانت شفتاها رقيقتَين، وكانتا تبلَّلان خدَّه، وتُحْدثان صوتًا خفيفًا رقيقًا. لماذا يفعل الناس هذا بوجوههم؟

وعندما جلس في الفصل فتحَ غطاءَ قمطره وغيَّر الرقم المثبت في الداخل من ٧٧ إلى ٧٦. كانت إجازة عيد الميلاد بعيدةً جدًّا، ولكنها لا بد أن تأتيَ يومًا ما لأن الأرض تدور على الدوام. كانت هناك صورةٌ للكرة الأرضية في أول صفحة من كتاب الجغرافيا، كرةٌ ضخمةٌ تُحيط بها السحب. كان لدى «فلمنج» علبةٌ لأقلام الألوان. وفي ذات ليلة في حصة الهوايات قام بتلوين الأرض باللون الأخضر والسحب باللون الأرجواني. كان هذان اللونان يُماثلان لونَي الفرشاتَين في رفِّ حاجيات دانتي. الفرشاة ذات الظهر المخملي الأخضر لـ «بارنل»، والفرشاة ذات الظهر المخملي الأرجواني لـ «ميشيل دافيت». ولكنه لم يطلب من «فلمنج» أن يلوِّنَهما بهذين اللونين، بل فعل فلمنج ذلك من تلقاء نفسه. وفتح كتاب الجغرافيا لكي يستذكرَ الدرس، ولكنه لم يستطع استذكارَ أسماء الأماكن في أمريكا. كانت كلُّها أماكنَ مختلفةً لها أسماء مختلفة، وكلها في بلاد مختلفة، والبلاد في قارات والقارات في العالم والعالم في الكون.

[٦] علبة السَّعُوط: نَشُوق، النَّشُوق، النُّشُوق، يساعد على العطس.
المعطس سُعُوط: يساعد على العطس ... مستحضرٌ من دقيق التبغ يمكن تعاطيه بالشَّم.

ورجع إلى الصفحة الأولى البيضاء من كتاب الجغرافيا، وقرأ ما كان قد كتبه عن اسمه والمكان الذي يوجد فيه:

ستيفن ديدالوس.

قسم الرياضيات.

مدرسة كلونجوز وود.

مدينة سالينز.

مقاطعة كلدار.

أيرلندا.

أوروبا.

العالم.

الكون.

وكان هو الذي قام بكتابة هذا. وذات ليلة كَتَبَ «فلمنج» هذه المقطوعة على الصفحة المقابلة ليمزح معه:

اسمي ستيفن ديدالوس،
ووطني أيرلندا.
أسكن في كلونجوز،
وآمل أن أدخل الجنة.

وقرأ سطور المقطوعة من الخلف للأمام، ولكنها لم تنتظم شعرًا عند ذلك. وأعاد قراءة الصفحة الأولى من أسفل إلى أعلى حتى وصل إلى اسمه. هكذا هو.

وقرأ الصفحة مرةً أخرى حتى نهايتها، وماذا وراء الكون؟ لا شيء. ولكن أليس هناك من شيء يحوط الكون حتى يحدِّدَ أبعاده ونهايته، ويُظهر بداية هذا اللاشيء الذي هو بُعْد الكون؟ لا يمكن أن يكون هذا الفاصل جدارًا، ولكن من الممكن إحاطة جميع الموجودات بخيط رفيع جدًّا. من الصعوبة بمكان أن يفكر المرء في كلِّ شيء وفي كل موضعٍ في وقت واحد، فالله وحده يستطيع ذلك. وحاول أن يتمثَّل مبلغ الضخامة التي قد تبدو عليها مثل هذه الفكرة الواحدة، ولكنه لم يستطع التفكير سوى في الله. إن الله هو اسم الله، تمامًا مثلما ستيفن هو اسمه، و Dieu هو اسم الله بالفرنسية، وهو من أسماء الله أيضًا، وحينما يُصلِّي أيُّ شخص لله ويقول Dieu، فإن الله يعلم على الفور أن الذي يصلِّي شخصٌ فرنسيٌّ. وعلى

الرغم من اختلاف الأسماء التي ترمز إلى الله في اللغات المختلفة ومعرفة الله لكل ما يقوله الناس حين يصلُّون في لغاتهم المختلفة، فإن الله يبقى دائمًا نفس الإله عندهم كلهم، واسم الله الأصلي هو الله.

وأنهكه تفكيرُه بمثل هذه الطريقة، فشعر بثقل في رأسه. وقلب الورقة الأمامية البيضاء ثم نظر إلى الأرض الكروية الخضراء في وسط السحب الأرجوانية. وتساءل أيهما أكثر صوابًا: مناصرة الفريق الأخضر أم الفريق الأرجواني؛ فقد نزعَت دانتي ذات مرة الظهر المخملي الأخضر لفرشاة بارنل بالمقص، وقالت له إن بارنل رجلٌ سيِّئٌ. وتساءل عمَّا إذا كانوا يناقشون تلك المسألة الآن بالمنزل، هذا ما يسمونه بالسياسة. وهناك فريقان: دانتي في جانب، ووالده ومستر كاسي في الجانب الآخر. أما أمُّه والعم تشارلس فلم ينحازَا إلى أيٍّ من الجانبين، وفي كل يوم تكتب الصحف عن المسألة.

وآلَمَهُ ألَّا يعرفَ ما تَعْني السياسة وأنه لا يدري أين ينتهي الكون. وشعر بضآلته وضعفه. متى يُصبح مثلَ رفاقه في الشعر والخطابة؟ إن لهم أصواتًا جهوريةً وأحذية ثقيلة ويدرسون حساب المثلثات. هذه الأمنية بعيدةُ المنال، فيجب أولًا أن تأتيَ الإجازة ثم الفصل الثاني فالإجازة مرة ثانية، ففصلٌ آخر، فالإجازة مرة أخرى. إن الأمر يُشبه قطارًا يدخل ويخرج من الأنفاق، ويُشبه بدون ضجة الأولاد وهم يأكلون في المطعم، عندما يسدُّ المرء طاقاتِ أُذُنَيه ويفتحهما. الفصل، الإجازة، النفق، خارجًا، الضجة، يقف.

لَكَم يبدو ذلك بعيدًا: من الأفضل الذهاب للفراش للنوم. لم يبقَ إلا الصلاة في الكنيسة ثم النوم. وارتجف ثم تثاءب. سيُصبح كلُّ شيء جميلًا في الفراش بعد أن يغمر الدفءُ الأغطية. تكون الأغطية شديدة البرودة في البداية عند النوم. وارتعد عندما مرَّت بخاطره درجةُ برودتها في البداية، غير أنها تأخذ في الدفء ويستطيع النوم. من الممتع أن يكون المرءُ مُتعبًا. وتثاءب ثانيةً. صلاة المساء ثم إلى الفراش. وارتجف وأحسَّ برغبة في التثاؤب ثانيةً. سيصبح كلُّ شيء ممتعًا بعد لحظاتٍ قليلة. ويشعر بالدفء الوهاج يزحف إليه من الأغطية الباردة الراجفة، ويأخذ في الدفء شيئًا فشيئًا حتى يشعرَ بكل جسده دافئًا، ويكتنفه الدفءُ في كل مكان. ومع ذلك فقد ارتجف قليلًا وما زالت به رغبةٌ إلى التثاؤب.

ودقَّ الجرس مؤذِنًا بصلاة المساء، ووقف في الصف خارج الفصل وراء زملائه، ونزلوا الدرج وساروا في الردهة إلى الكنيسة الصغيرة الملحقة بالمدرسة. وكانت الردهة والكنيسة مضاءتَين بنور خافت. سيكتنف الظلامُ والنوم كلَّ شيء بعد قليل. ويتخلل هواء الليل البارد الكنيسة، وبها رخامٌ في لون البحر عند الليل. البحر باردٌ في الليل والنهار على الدوام، غير

أن برودته تشتدُّ في الليل. كان البحر باردًا أو مظلمًا وراء السور هناك خلف منزل والده، حيث تَغْلي القِدرُ فوق النار وبها مشروب «البنش»،[٧] وتلَا عريف الكنيسة الصلاة فوق رأسه، وتجاوبَت الردود في ذاكرته:

ربنا افتح شفاهنا،
وستُسبِّح أفواهُنا بحمدك!
تعالَ لمعونتنا يا ربنا،
وعجِّل بمساعدتنا!

وكانت الكنيسة مفعمةً برائحة الليل الباردة، غير أنها رائحةٌ مقدسة. لم تكن مثلَ رائحة الفلاحين المسنين الذين يجثون في آخر الكنيسة عند قداس يوم الأحد: رائحة الهواء مختلطة برائحة المطر والحشائش والملابس القطنية. غير أنهم كانوا فلاحين شديدي الورع. كانوا يزفرون أنفاسهم خلفه، في عنقه، ويتنهدون في صلاتهم. وقد قال له زميلٌ ذات مرة إنهم يعيشون في الأكواخ المنتشرة في «كلين». وعندما كانت العربة قادمة بهم من «سالينز»، شاهد امرأةً تقف عند بابِ كوخٍ مفتوح وتحمل طفلًا بين يدَيها. كم يكون جميلًا أن ينام المرء في هذا الكوخ ليلةً واحدة وأمامه النيران مستعرة في وقود الحشائش ذي الدخان، ويكتنفه ظلامٌ تُضيئه النيران، ويشم رائحة الفلاحين، في الظلام الدافئ، والهواء والمطر، والحشائش والملابس القطنية، ولكن … أوه … إن الظلمة تكتنف الطريق الذي يقع بين الأشجار، وسوف يضل الطريق في الظلمة. وشعر بالخوف حين جال بفكره ذلك الأمر.

وسمع عريف الكنيسة يُردِّد الصلاة الأخيرة. وردَّد هو الصلاة أيضًا لتحميَه من الظلمة هناك بين الأشجار:

نتضرع إليك يا إلهي أن تزورَ مُودِّع روحنا.
هذا، وأن تطرد منه أحابيل الأعداء،
وشِرَاكهم، حتى ترقد ملائكتك المقدسة هنا؛
ليُظلِّلوا علينا السلام، ولعل بركاتك تُنثر علينا
دائمًا عن طريق المسيح سيدنا … آمين.

[٧] البنش: مشروبٌ عبارة عن خليطٍ من النبيذ والسكر واللبن والليمون.

وارتجفَت أصابعه وهو يخلع ملابسه في غرفة النوم. وناشد أصابعَه الإسراع. كان عليه أن يخلع ملابسه ويتلو صلاته، ويذهب للفراش قبل أن يُطفئوا ضوءَ المصباح حتى لا يذهبَ إلى جهنم عندما يموت. وجذب جوربَيه إلى أعلى وارتدى ملابس النوم بسرعة وركع إلى جانب فراشه وهو يرتجف، وردَّد صلاته في عجلة وهو يخشى أن يُطفئوا النور. وشعر بكتفَيه يرتجفان وهو يُتمتم:

ربي بارِكْ أبي وأمي واحفظهما لي!
ربي بارِكْ إخوتي الصغار وإخواني واحفظهم لي!
ربي بارِكِ العمة دانتي والعم تشارلس واحفظهما لي!

ثم بارَكَ نفسَه وصَعِد إلى الفراش بسرعة، وجذب طرف ملابسه حتى قدمَيه وكوَّم نفسه تحت الأغطية البيضاء الباردة وهو يرتجف ويرتعد. ولكنه لن يذهب إلى الجحيم عندما يموت، وسوف يكفُّ جسدُه عن الارتجاف. نظرة خاطفة من فوق الغطاء، وشاهد الستائر الصفراء التي تحيط بفراشه وتحجب عنه كلَّ ما يحيط به، وخَفَت النور في هدوء.

وابتعدَت خطوات العريف. إلى أن يذهب؟ إلى أسفل السلَّم عبر الردهة أم إلى غرفته في نهاية المبنى؟ وحدَّق في الظلام. أحقًّا ما يُقال عن الكلب الأسود الذي يتجول هناك في الليل وله عينان في حجم مصابيح العربة؟ لقد قيل إنه شبحٌ قاتل. وغمرَت جسدَه رعدةُ خوف دامت فترةً طويلة. وتمثَّل صالة مدخل إدارة المدرسة المظلم. وكان هناك خدمٌ مسنون يرتدون ملابس عتيقة في غرفة المكواة في أعلى السلَّم. كان ذلك منذ عهدٍ بعيد، وكان الخدم المسنون يلزمون الهدوء. ومع أن النار كانت موقدةً هناك فإن الصالة كانت ما تزال مظلمة. وارتقى شخصٌ السلَّمَ قادمًا من الصالة، وكان يرتدي عباءةَ المارشالية البيضاء، ووجهُه شاحبٌ غريبٌ ويداه مشدودتان إلى جنبه. ونظر بعينَيه الغريبتَين إلى الخدم المسنين، وتطلعوا هم إليه وعرفوا فيه وجهَ سيدهم وعباءته، وأدركوا أنه لَقِي حتفَه. ولكن لم يكن هناك غير الظلام حيث شخصوا بأبصارهم، ليس إلا الهواء الساكن المظلم، لقد لَقِي سيدُهم حتْفَه في ميدان القتال في «براج» هناك بعيدًا وراء البحر. كان واقفًا في الميدان ويداه مشدودتان إلى جنبه، ووجهُه شاحبٌ غريب، ويرتدي عباءةَ المارشالية البيضاء.

آ… يا لَلبرودة والغرابة التي يبعثها مجردُ التفكير في هذا الأمر! الظلام كلُّه باردٌ غريب، مليءٌ بوجوه شاحبة غريبة، وعيونٍ كبيرة مثل مصابيح العربات. كانوا أشباحَ قتلة وشخوصَ مارشالات لَقُوا حتفهم في ميادين القتال بعيدًا وراء البحر. تُرى ماذا يبغون البوح به حتى لتبدو وجوهُهم غريبة هكذا؟

نتضرع إليك يا إلهي أن تزور مودع روحنا هذا،
وأن تطرد منه كلَّ …

العودة إلى المنزل لقضاء العطلة! كم سيكون ذلك جميلًا، كما قال له أحد الزملاء ذات مرة. الصعود إلى العربات في الصباح المبكر المطير، حينما تقف بانتظارهم أمام باب المدرسة، وتسير العربات على الأرض المغطاة بالحصباء، ويهتف التلاميذ لمدير المدرسة:

مرحى! … مرحى! … مرحى!

وتمرُّ العربة على الكنيسة، ويرفع الجميع قبعاتِهم احترامًا، وتسير بهم على الطريق الزراعي، ويشير السائقون بسِياطهم نحو مدينة «بودنس تاون»، ويصيح التلاميذ هاتفين، ويمرون في طريقهم على منزل مزرعة «جولي فارمر»، وينطلق هتافٌ وراء هتاف يتلوه هتاف، ويسيرون على طريق «كلين» يهتفون ويسمعون الهتافات، والفلاحات يقفنَ على الأبواب، أما الرجال فينتشرون هنا وهناك: وكانت هناك هذه الرائحة الزكية في هذا الجو الممطر، رائحة «كلين»: المطر والجو الممطر والحشائش المحترقة والملابس القطنية.

وكان القطار ممتلئًا بالتلاميذ، قطارٌ طويلٌ جدًّا من الشيكولاتة، وواجهتُه مصنوعة من الكريمة. وكان الحراس يتجولون هنا وهناك، يفتحون الأبواب ويُغلقونها، مرتدين ملابس زرقاء داكنة وفضية، ولهم صفارات من الفضة، وتصدر عن مفاتيحهم موسيقى خاطفة: كليك، كليك، كليك.

وانطلق القطار يجري على الأراضي المنبسطة عبر تلال «آلن»، وأعمدة التلغراف تمرُّ وتمرُّ، والقطار يجري ويجري كما لو كان يدري حقيقة الأمر. هناك مصابيح وأغصان خضراء مجدولة في ردهة منزل والده، ويلتفُّ نبات القطيم[٨] واللبلاب حول مرآة الحائط، وتنعقد النباتات نفسها حول الثريات. وهناك قطيم أحمر ولبلاب أخضر حول الصور القديمة المعلقة على الجدران، قطيمٌ ولبلاب … بمناسبة عودته وبمناسبة عيد الميلاد، بديع …

كل الناس هنا، مرحبًا بعودتك يا ستيفن! ضجة الترحاب، وتُقبِّله أمُّه، أيليق هذا أم لا؟ وأصبح أبوه الآن مارشالًا، رتبة أعلى من رتبة القاضي. مرحبًا بعودتك يا ستيفن.

ضوضاء …

وضجَّت أصواتُ حلقات الستائر الحديدية وهي ترتفع على قصبتها، وصوت رشاش الماء في الأحواض، وأصوات القيام وارتداء الملابس والاغتسال في غرفة النوم بالمدرسة،

[٨] نباتٌ بريٌّ.

أصواتٌ وتصفيقٌ بالأيدي حين كان العريف يمرُّ هنا وهناك، آمرًا الأولاد أن يُسرعوا. وكشف شعاع الشمس الباهت عن الستائر الصفراء وقد رُفعت، وعن الأسِرَّة المهوشة. وكان فراشُه دافئًا جدًّا، ووجهه وجسده على درجة عالية من الحرارة.

ونهض وجلس على طرف فراش، كان متعبًا. وحاول أن يرتديَ جوربَيه، وشعر بملمسهما خشنًا مفزعًا، وشعاع الشمس غامضًا باردًا.

وقال فلمنج: أتشعر بتوعُّك؟

ولم يستطع تبيُّنَ الأمر. وقال فلمنج: «عُد إلى فراشك، سوف أُخبر «ماك جلاد» أنك لست على ما يرام.»

– إنه مريض.

– مَن؟

– فلتُخبر «ماك جلاد».

– عُدْ إلى فراشك.

– أهو مريض؟

وأمسك أحد الرفاق بذراعيه، بينما أنزل هو الجورب الذي كان عالقًا بقدمه، وعاد إلى الصعود لفراشه الدافئ.

وقبع بين الأغطية مسرورًا من توهُّجها الفاتر، وسَمِع التلاميذ يتكلمون عنه أثناء ارتدائهم ملابسهم للذهاب إلى القداس. كانوا يُرددون أن «ولز» كان دنيئًا؛ لأنه دفعه بكتفه إلى حفرة دورة المياه.

ثم صمتوا، لقد ذهبوا. وارتفع صوتٌ من جانب فراشه قائلًا: لا تَشِ بنا يا ديدالوس، إنك لن تفعل ذلك طبعًا؟

وكان «ولز» هو الذي يتكلم. ونظر إليه وأدرك أنه خائف.

– لم أكن أقصد ذلك، إنك لن تشيَ بي بالطبع؟

لقد قال له والده إنه مهما فعل فلا يجب أبدًا أن يَشِي بزميل له، فهزَّ رأسه وأجاب عليه بالنفي. وشعر بالسرور.

وقال «ولز»: بشرفي لم أقصد ذلك، لقد كنت أمزح معك، إني آسف.

واختفى الوجه والصوت. لقد اعتذر لأنه خائف. أخاف أن يكون بي مرض ما. «كانكر» مرضٌ يُصيب النباتات، أما الكانسر فيصيب الحيوانات، أو هو شيء آخر. كان هذا منذ وقت طويل في الملاعب على ضوء المساء، حين كان يزحف من مكان إلى آخر على امتداد منطقة

فريقه، كطائرٍ يطير على ارتفاعٍ منخفضٍ خلال النور المعتم. وأُضيئت «ليستر آبي». هناك مات «وولزي» وقام الرهبان بدفنه بأيديهم.

لم يكن «ولز» هو الذي يكلِّمه هذه المرة بل المشرف. إنه لا يتمارض. كلَّا، كلَّا، إنه مريضٌ حقًّا ولا يتمارض. وشعر بيدِ العريف تمسُّ جبهته، وشعر بها دافئةً رطبة تحت يد العريف الباردة الرطبة. كان ذلك الشعور نفسه الذي ينتاب الفأر بالقذارة والرطوبة. لكل فأر عينان يرى بهما، وشعرُه رخوٌ مُغطًّى بالطين، وقدماه متناهيتان في الصغر، مهيأة للقفز، وعيناه في لون التراب ليرى بهما. إنها تعرف كيف تقفز، ولكن عقول الفئران لا يمكنها معرفة حساب المثلثات، وعندما تموت ترقد على ظهورها، وعندئذٍ يجفُّ شعرها وتُصبح مجرد أشياء ميتة.

وعاد إليه العريف، وكان هو الذي يقول إن عليه أن ينهض، وأن الأب القس قال إن عليه أن ينهض ويرتدي ملابسه ويذهب للمستشفى. وقال العريف بينما كان يرتدي ملابسه على قدر ما أمكنه من السرعة:

– يجب على صغيرنا الذهاب بسرعة إلى الأخ ميشيل؛ لأن صغيرنا مصابٌ بتعب في المعدة.

كان لطيفًا منه أن يقول ذلك، وكافيًا لبعث الضحك فيه، غير أنه لم يستطع الضحك لأن خدَّيه وشفتَيه كانت ترتجف، فكان على المشرف والأمر كذلك أن يضحك بمفرده. وصاح المشرف: «بالخطوة السريعة، شمال، يمين.»

وهبطَا السلم معًا، ومرَّا في طريقهما عبر الردهة بالحمام. وعندما مرَّا ببابه خطرَت بباله الردغة الدافئة المغطاة بالحشائش، والهواء الدافئ الرطب، وأصوات القفز إلى الماء، ورائحة المناشف التي تُشبه الدواء، كلُّ هذا يخالطه رهبةٌ غامضة.

وكان الأخ ميشيل واقفًا على باب المستشفى، وكانت تنبعث خارج الغرفة المظلمة على اليمين، رائحةٌ كالتي تفوح من الأدوية مصدرُها الزجاجات المصفوفة على الرفوف. وتحدَّث المشرف مع الأخ ميشيل، وردَّ الأخ ميشيل عليه مناديًا إياه بالسيد. وكان شعرُه ذا لون أحمر وخطَّه الشَّيب، وذا نظرة غريبة. وكان غريبًا أن ينادوه دائمًا بالأخ، وغريبًا أيضًا أنك لا تستطيع أن تُناديَه بالسيد؛ لأنه قَسٌّ وله نظرة مختلفة للأمور. ألم يكن على درجة كافية من التقوى؟ إذن لماذا لا يكون كالآخرين؟

وكان هناك فراشان في الغرفة، يرقد أحد التلاميذ على أحدهما، وصاح هذا عندما دخلَا: «هالو، أهذا أنت يا ديدالوس الصغير! ماذا هناك؟» فقال الأخ ميشيل: هناك ما هناك.

كان التلميذ الآخر طالبًا في الصف الثالث بقسم القواعد. وبينما كان ستيفن يخلع ملابسه، طلب هذا من الأخ ميشيل أن يُحضر له بعضَ الساندويتش بالزبد! وقال: «أوه ... أرجو منك ذلك.»

فقال الأخ ميشيل: «عليك اللعنة! سوف تتسلم تصريح الخروج من هنا حينما يحضر الطبيب في الصباح.»

فقال التلميذ: «هل سأخرج؟ ولكني لم أُشفَ بعد.»

وكرر الأخ ميشيل: «قلت لك ستتسلم أوراق خروجك من هنا.»

وانحنى يحرِّك النار، وكان ظهره طويلًا مثل ظهر جواد العربة الطويل. وهزَّ محرك النار برزانة، وأشار برأسِه تجاه تلميذ الصف الثالث بقسم القواعد، ثم خرج الأخ ميشيل من الحجرة. وبعد برهةٍ أدار تلميذ الصف الثالث بقسم القواعد وجهَه ناحية الجدار وغطَّ في النوم.

ذلك هو المستشفى، إذن فهو مريض. تُرى هل أرسلوا خطابًا إلى منزله ليُخبروا والده ووالدته بذلك؟ من الأفضل أن يبعثوا واحدًا من القسس لإخبارهما بنفسه، ويستطيع أن يكتب خطابًا ويُرسله مع القس:

أمي العزيزة

إني مريض، وأريد العودة إلى المنزل. أرجوك أن تحضري وتذهبي بي إلى المنزل، إني في المستشفى.

ولدك الحبيب

ستيفن

لَكَم هما بعيدان! انتشرَت في الخارج أشعةُ الشمس الباردة، وتساءل عمَّا إذا كان سيموت، فمن الممكن أن يموت الإنسان في يوم مشمس كأيِّ يومٍ آخر، كما أنه قد يموت قبل أن تحضر أمُّه، وفي هذه الحالة سيُقام له قداس الموتى في كنيسة المدرسة، تمامًا مثلما أخبره زملاؤه عمَّا حدث حين مات «ليتل»، وسيشهد جميعُ التلاميذ هذا القداس، مرتدين السواد، ويُخيم الحزن على وجوههم. وسيكون «ولز» هناك أيضًا، ولكن لن يعتنيَ أحدٌ من التلاميذ بمجرد النظر إليه. وسيكون المدير موجودًا كذلك، مُتَّشحًا بعباءةٍ سوداء موشاةٍ بالذهب. كما ستُوضع شموعٌ صفراء طويلةٌ على المذبح وحول مكان النعش، ثم يحملون

النعش خارج الكنيسة في بطء ويقومون بدفنه في فناء مقبرة الطائفة الصغيرة على اليمين، بعيدًا عن الطريق الرئيسي الممتلئ بأشجار الزيزفون، وعندئذٍ سيشعر «ولز» بالندم على ما فعله معه، وسيدق جرس الكنيسة في بطء.

وخُيِّل إليه أنه يسمع أجراس الكنيسة، وردَّد لنفسه مرارًا الأغنية التي علَّمَته إياها «بريجيد»:

دنج دونج! جرس المدرسة.
وداعًا يا أمي!
أودعوني مقبرة فناء الكنيسة القديمة،
بجانب أخي الأكبر.
سيكون نعشي أسود اللون،
وستةٌ من الملائكة يقفون ورائي؛
اثنان يغنيان واثنان يصليان،
واثنان يحملان روحي بعيدًا.

كم كان ذلك جميلًا وباعثًا على الحزن، ويا لَجمال تلك الفقرة التي تقول «أودعوني مقبرة فناء الكنيسة القديمة.» وشعر برعدة تتخلَّل جسدَه. يا لَلأسى ويا لَلجمال! وشعر برغبة في البكاء الصامت لم يكن مبعثها شفقته على نفسه، بل من تأثير الكلمات الجميلة الحزينة التي تُشبه الموسيقى. الجرس! الجرس! وداعًا! وداعًا!

ووهن شعاع الشمس البارد، وكان الأخ ميشيل يقف إلى جانب فراشه، وفي يده طبقٌ من شُربة اللحم. وشعر بالسرور؛ لأن فمه كان دافئًا وجافًّا، وكان باستطاعته أن يسمع زملاءه يمرحون في الملعب، ويمر اليوم الدراسي كما لو كان حاضرًا.

وتأهَّب الأخ ميشيل للخروج من الغرفة، وطلب منه تلميذ الصف الثالث بقسم القواعد أن يعود ثانيةً ليُخبره بالأنباء من الصحف، وقال لستيفن إن اسمه «أثاي»، وإن والده يمتلك عددًا من الجياد للسباق رشيقةً وثَّابة، وإن والده يمنح الأخ ميشيل بقشيشًا طيبًا كلما أراد؛ لأن الأخ ميشيل دمثُ الأخلاق، ويُخبره دائمًا بالأنباء من الصحف التي تَصِل المدرسة كل يوم، وبها كافة الأخبار المتنوعة: الحوادث «غرق السفن، الرياضة، السياسة».

قال له: السياسة هي حديث الصحف هذه الأيام، هل تتحدث أسرتك في هذا الموضوع أيضًا؟

فقال ستيفن: «أجل.»

قال: وأسرتي كذلك.

وفكَّر لحظةً ثم أضاف: «إن اسمك عجيب، ديدالوس، واسمي عجيبٌ كذلك، أثاي. إن اسمي على اسم مدينة، أما اسمك فيُشبه الأسماء اللاتينية».

ثم سأله: «أماهرٌ أنت في حل الألغاز؟»

فأجاب ستيفن: لستُ على درجة كبيرة من المهارة في ذلك.

فقال الآخر: «هل تستطيع حل ذلك اللغز: لماذا تُشبه مقاطعة «كلدار» ساقَ الرجل؟»

وفكر ستيفن في الجواب، ثم قال: لا أعرف.

فقال: لأن بها فخذًا، أفهمت النكتة؟ «أثاي»[٩] مدينة في مقاطعة «كلدار»، أما الفخذ فهو المعنى المعروف للكلمة.

فقال: آه ... لقد فهمت.

قال: «إنه لغزٌ قديمٌ.» ثم أردف بعد برهة: «اسمع.»

فسأله ستيفن: ماذا؟

قال: أتعلم أنه بالإمكان إلقاء هذا اللغز بطريقة أخرى؟

قال ستيفن: حقًّا؟

قال: نفس هذا اللغز، أتعرف الطريقة الأخرى التي يُقال بها اللغز؟

قال ستيفن: كلَّا.

قال: ألَا يمكنك أن تخمِّن؟

وكان يرمق ستيفن أثناء كلامه من وراء أغطية الفراش، ثم رقد على الوسادة، وقال: «هناك طريقةٌ أخرى ولكني لن أقولها لك.»

لماذا لم يَقُلها له؟ إن والده الذي يمتلك جياد السباق لا بد وأن يكون من القضاة مثل والد «سورين» ووالد «ناستي روش». وفكر في والده، وكيف يغنِّي حين تعزف والدتُه الموسيقى، وكيف يعطيه دائمًا شلنًا كاملًا، حين يطلب منه ستة بنسات، وشعر عندئذٍ بالأسف من أجله لأنه لم يصبح من القضاة مثل آباء الأولاد الآخرين. وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا بعثه إلى هذا المكان معهم؟ غير أن والده كان قد قال إنه لن يشعر بالغربة هناك؛ لأن

[٩] يوجد هنا جناسٌ بين كلمة «أثاي» اسم المدينة وكلمة Thigh بالإنجليزية والتي تعني الفخذ.

عمَّ الأب كان قد ألقى مرة خطابًا أمام الزعيم المحرِّر[١٠] منذ خمسين عامًا. من الممكن تمييز الأشخاص الذين عاشوا في تلك الفترة من ملابسهم القديمة، وبدَا له أن في ذلك الزمن كان زمنًا وقورًا. وتساءل عمَّا إذا كان ذلك أيام كان تلاميذ كلونجوز يرتدون معاطف زرقاء ذات أزرار نحاسية، وصدارات صفراء وقبعات من جلد الأرانب، ويشربون البيرة كالكبار ويقتنون كلابًا لصيد الأرانب.

وشخَصَ ببصره إلى النافذة، ورأى ضوء النهار يَخْفت. لا بد وأن الضوء الرمادي يتخلل الملاعب الآن من وراء السحب. لم تكن هناك أيُّ ضجة تصدر عن الملاعب، لا بد وأن الفصل منهمكٌ الآن في حلِّ المسائل، أو ربما كان الأب أرنال يقرأ من الكتاب.

عجيبٌ أنهم لم يعطوه أيَّ دواء، أو ربما يُحضره له الأخ ميشيل عندما يعود. يُقال إنهم يعطون المريض الذي يدخل المستشفى مادةً ذات رائحة كريهة ليشربها، ولكنه يشعر الآن بتحسنٍ عن ذي قبل. من الجميل أن تتحسن صحة المرء بالتدريج، وعند ذلك يسمحون له بالقراءة. في المكتبة كتابٌ عن هولندا وبه أسماءٌ أجنبيةٌ جميلة، وصِوَر مدن وسفن غريبة المنظر تبعث البهجة في النفس.

يا لَشحوب الضوء عند النافذة! غير أن ذلك جميل. وظلال النيران ترتفع وتنخفض على الحائط وتتخذ هيئة الأمواج، لقد وضع أحدهم بعض الفحم فيها، وكان يسمع بعض الأصوات، إنهم يتحدثون، إنها ضجة الأمواج، أو حديث الأمواج فيما بينها حين ترتفع وتنخفض.

وشاهد الأمواج المتلاطمة، أمواجًا طويلةً مظلمة وتنخفض، مظلمةً، تحت ستار الليل المظلم. وتلألأَ ضوءٌ خافت عند رصيف الميناء حيث ترسو السفن. ورأى جمهرةً من الناس تتجمع عند حافة الماء، ليشاهدوا السفينة التي تدخل ميناءهم. ووقف رجل طويل على ظهر السفينة يُحدِّق ببصره إلى الأرض الممتدة المظلمة، واستطاع أن يرى وجهه على ضوء رصيف الميناء، وجه الأخ ميشيل الحزين، ورآه يرفع يده إلى الناس وسَمِعه يقول في صوت مرتفع حزين، عبر المياه: «لقد مات، رأيناه طريحًا على خوان النعش.»

وارتفع عويل الحزن من قلوب الناس: «بارنل! بارنل! لقد مات.»

[١٠] الزعيم الأيرلندي دانييل أوكونور.

وارتمَوا على رُكَبِهم ينوحون ويعولون. وشاهد «دانتي» في رداءٍ على القطيفة الأرجوانية، وحول كتفَيها عباءة من القطيفة الخضراء، تسير في كبرياءٍ وصمتٍ أمام الناس الذي جثَوا إلى جوار حافة الماء.

توهَّجَت النار وارتفعَت في المدفأة، ونُصبت مائدة عيد الميلاد تحت الثريات المزدانة بأغصان اللبلاب. لقد عادوا إلى المنزل متأخرين بعض الوقت، ولم يكن الطعام قد أُعدَّ بعد، ولكن أمه قالت سيكون جاهزًا بعد لحظة.

وكانوا جالسين في انتظار فتح الباب ودخول الخدم حاملين الأطباق الكبيرة، وعليها أغطيتها المعدنية الثقيلة.

الجميع ينتظرون: العم «تشارلس» الذي جلس بعيدًا في ظل النافذة، «دانتي» ومستر «كاسي» اللذان جلسا على المقاعد المريحة على جانبَي المدفأة، وستيفن جالسٌ على مقعد بينهما وقد مدَّ قدميه على سياج المدفأة الساخن. ونظر المستر ديدالوس في مرآة رف المدفأة. وعقص طرفي شاربه، ثم وقف مديرًا ظهره للنار المستعرة، وقد رفع ذيل معطفه بيده، وبين حينٍ وآخر كان يرفع يده من على ذيل معطفه ليعقص طرفًا من شاربه، وكان كاسي يميل برأسه إلى ناحية واحدة، ويربت بأصابعه على لُغد رقبته مبتسمًا. وابتسم ستيفن كذلك، فقد أدرك الآن أن مستر كاسي ليس له كيس من الفضة في حلقه. وابتسم عندما جال في خاطره كيف خدعه الرنين الفضي الذي يصدر دائمًا عن مستر كاسي. وعندما حاول أن يفتح يد مستر كاسي ليرى ما إذا كان قد خبَّأ الكيس الفضي هناك، وجد أن أصابعه متقلصة لا تنبسط. وقد أخبره مستر كاسي أن أصابعه الثلاثة قد تجمَّدت حين كان يُقدِّم هديةً إلى الملكة فكتوريا في عيد ميلادها. وربَّت مستر كاسي على لُغد رقبته وابتسم لستيفن بعينين يرين عليهما النوم، وقال له مستر ديدالوس: أجل، حسن، بالضبط، لقد تنزهنا نزهةً جميلة، أليس كذلك يا جون؟ أجل ... إني أتساءل عمَّا إذا كنَّا سنتناول العشاء هذه الليلة على الإطلاق! حسن ... لقد استنشقنا عبير «الأوزون» في نزهتنا اليوم عند الميناء، أجل بحق الإله.

والتفت إلى «دانتي» وقال لها: ألَا تخرجين للنزهة أبدًا يا مسز ريوردان؟

وعبست دانتي وقالت باقتضاب: كلَّا.

وأنزل مستر ديدالوس ذيل معطفه وسار إلى مائدة الطعام، وأخرج دُنًّا فخاريًّا كبيرًا من الويسكي من الصوان، وملأ الإبريق ببطءٍ، وهو ينحني بين فترة وأخرى ليرى مقدار

ما صبَّه فيه. وبعد أن أعاد الدُّنَّ إلى مكانه بالصوان، أفرغ بعض الويسكي في قدحَين، وأضاف إليها قليلًا من الماء وعاد بهما نحو المدفأة، وقال: قليلٌ من الشراب ليفتح شهيتك يا جون.

فتناول مستر كاسي القدح وجرعه، ثم وضعه بجانبه على رف المدفأة، ثم قال: حسن، لا أستطيع أن أمنع نفسي عن التفكير في صديقنا «كريستوفر» الذي يصنع …

ثم انفجر في نوبةٍ من الضحك والسعال، ثم أضاف: … الذي يصنع هذا النوع من الشمبانيا لأولئك الرجال.

وضحك مستر ديدالوس بصوت مرتفع وقال: أهو كريستي؟ إن الخبث الذي يشعُّ من أحد تآليل رأسه الأصلع يفوق خبث مجموعة كاملة من الثعالب.

ومال برأسه، وأغمض عينَيه وأخذ يلعق شفتيه بنهم، ثم بدأ يتكلم بصوتٍ بدَت فيه نبرة صاحب النزل: إن فمه يبدو رقيقًا حين يتحدث إليك، ألَا تعلم ذلك، وزنمتَا رقبتِه دائمًا رطبتان ومغطتان بالعرق، فليباركه الله.

وكان مستر كاسي ما زال يحاول التغلب على نوبة الضحك والسعال. وضحك ستيفن لأنه تبين أن صوت أبيه ووجهه يبدوان كصوت صاحب النُّزُل وهيئته.

وارتدى مستر ديدالوس نظارتَه وقال في هدوء وحنان عندما وقعت عليه عيناه: علامَ تضحك أيها الجرو الصغير؟

ودخل الخدم ووضعوا الأطباق على المائدة، وتَبِعَتهم مسز ديدالوس ورتبت أماكن الجلوس، ثم قالت: هيَّا إلى أماكنكم.

وتوجَّه مستر ديدالوس إلى طرف المائدة، ثم قال: الآن، اجلسي هناك يا مسز ريوردان! اجلس يا عزيزي جون.

ونظر حواليه إلى حيث جلس العم تشارلس وقال له: هنا طيرٌ مطبوخٌ في انتظارك.

وعندما اتخذ الجميع أماكنهم، وضع يده على الغطاء، ثم قال بسرعةٍ وهو يسحبها: هيَّا يا ستيفن.

فوقف ستيفن في مكانه ليتلو الصلاة قبل تناول الطعام:

فلتباركنا يا إلهي، وبارِك عطاياك.
هذه التي سنتناولها من كرمك
عن طريق سينا المسيح. آمين.

وبارك الجميع أنفسهم، وصعَّد مستر ديدالوس زفرة تُعبِّر عن سروره، وهو يرفع الغطاء الثقيل عن الطبق، وقد رصعت القطرات الملألئة حوافه. ونظر ستيفن إلى الديك السمين الذي يتصدر مائدة المطبخ، وقد فُصل جناحاه وقُطعت أجزاؤه. كان يعلم أن والده قد اشتراه بجنيه من سوق «دي أولييه»، وأن البائع قد وخزه حتى عظمة الصدر، ليُظهر مدى جودته، وتذكَّر صوت البائع حين قال: خذ هذا الديك يا سيدي، إنه من أجود الأنواع، بحق.

لماذا يُسمِّي مستر «بارت» المدرس في كلونجوز العصا التي يضرب بها التلاميذ بالديك الرومي؟ ولكن كلونجوز بعيدة عن هنا، وتفوح رائحة الديك ولحم الخنزير والكرفس الدافئة من الأطباق والصحاف، وتستعر النار متوهجة عالية في المدفأة، ويُشيع اللبلاب الأخضر والقطيم الأحمر السعادة في النفس. وعندما ينتهون من العشاء، يأتي البودنج الكبير الضخم وقد رُصِّع باللوز المقشر وأغصان الفطيم، وحوله بعض النيران الزرقاء، وعلى القمة راية صغيرة خضراء.

كان هذا أول حفل عيد ميلاد يحضره. وطاف بخاطره إخوته وأخواته الذين ينتظرون في غرفة الأطفال، حيث كان ينتظر هو مرارًا، حتى يأتيَ البودنج، وأشاعت فيه الياقة الواطئة العريضة وسترة كلية «إيتون» شعورًا بالغرابة والزهو. وحينما صحبَته أمُّه هذا الصباح إلى الردهة، وقد ارتدى ثياب القداس، بكى والده لأن أباه جال بخاطره بدوره آنذاك، وقد قال العم تشارلس هذا أيضًا.

وكشف مستر ديدالوس الغطاء عن الطبق، وبدأ يأكل في شهية، ثم قال: يا لكريستي العجوز المسكين، لقد جرَّ عليه الخداع والتدليس كثيرًا من الاضطرابات.

فقالت مسز ديدالوس: إنك لم تناول مسز ريوردان بعض الحساء يا سيمون.

فأمسك مستر ديدالوس بطبق الشوربة، وصاح: أحقًّا؟ أرجو عفوك يا مسز ريوردان.

فغطَّت دانتي طبقها بيديها، وقالت: كلا ... شكرًا.

فتحوَّل مستر ديدالوس نحو العم تشارلس:

– كيف تجد الطعام يا سيدي؟

– حسنًا جدًّا يا سيمون.

– وأنت يا جون؟

– على ما يرام، التفت أنت إلى طعامك.

– وماري؟ هاك يا ستيفن هذا ليساعد شعرك على التجعد.

وصبَّ كثيرًا من الحساء في طبق ستيفن، ثم أعاد الطبق إلى مكانه على المائدة، ثم سأل العم تشارلس، إن كان الطعام لينًا في فمه، ولكن العم تشارلس لم يتمكن من الكلام؛ لأن فمه كان محشوًّا، فهزَّ رأسه بالإيجاب.

وقال مستر ديدالوس: لقد ردَّ صديقنا على القسيس ردًّا مُفحمًا، ماذا تقول؟

فقال مستر كاسي: لم أكن أظن أن هذا من خصاله المميزة.

«سوف أُعطيكم ما تستحقونه يا أبي حين تكفُّون عن تحويل بيت الله إلى سرادق انتخابات».

فقالت دانتي: يا لَه من ردٍّ مفحمٍ على أحد القسس من رجلٍ يدعو نفسه كاثوليكيًّا.

فقال مستر ديدالوس في هدوء: لا يلومنَّ إلا أنفسهم. إذا أخذوا بنصيحتي فليقصروا اهتماماتهم على شئون الدين.

فقالت دانتي: إن ما يقومون به يدخل ضمن نطاق عملهم. إن تحذير الناس من اختصاصات عملهم.

فقال مستر كاسي: إننا نتوجَّه إلى بيت الله وملْؤنا الخشوع للصلاة لخالقنا وليس للاستماع إلى خُطَب الانتخابات.

فعادَت دانتي تقول: هذا يدخل ضمن نطاق الدين، إنهم على حق، فمن واجبهم توجيه رعيتهم.

فسأل مستر ديدالوس: ويُبشِّرون بالسياسة من على المحراب، أيصحُّ هذا؟!

فقالت دانتي: بالطبع، إن الموضوع موضوع الأخلاق العامة، لا يكون القَسُّ قسًّا ما لم يُبيِّن لرعيته الصحيح من الخطأ.

فأنزلت مسز ديدالوس سكينتها وشوكتها، وقالت: بحق السماء، دعونا من المناقشات السياسية، خاصة في هذا اليوم من أيام السنة.

فقال العم تشارلس: تمامًا يا سيدتي، والآن، كفى هذا يا سيمون، لا تزيدوا حرفًا.

فقال مستر ديدالوس بسرعة: أجل، أجل.

وكشف غطاء الطبق في إقدام، وقال: والآن … مَن يريد مزيدًا من الديك الرومي؟

ولم يُجِب أحد، وقالت دانتي:

يا لَها من لغةٍ مهذبةٍ ينطق بها كاثوليكي!

فقالت مسز ديدالوس: أتوسل إليك يا مسز ريوردان أن تتركي هذا الموضوع.

فالتفتَت دانتي إليها وقالت: وهل أجلس هنا وأسمع سخريتهم من رعاة كنيستي؟

فقال مستر ديدالوس: لن يمسَّهم أحدٌ بكلمة طالما لم يتدخلوا في السياسة.

فقالت دانتي: لقد قال قسس أيرلندا وأساقفتها كلمتَهم، ولا بد أن يُطيعَهم الناس.

فقال مستر كاسي: فليتركوا السياسة وشأنها، وإلا فسيترك الناس كنائسهم ويبتعدون عنها.

فقالت دانتي وهي تلتفت نحو مسز ديدالوس: أتسمعين؟

فقالت مسز ديدالوس: فلتنهيَا هذه المسألة يا مستر كاسي وأنت يا سيمون، الآن.

وقال العم تشارلس: هذا شيءٌ مؤسف، مؤسف جدًّا.

فقال مستر ديدالوس: ماذا؟ أكان يليق بنا أن نتخلى عنه تنفيذًا لأمر الشعب الإنجليزي؟

فقالت دانتي: لم يكن جديرًا بالقيادة، وقد أصبحت خطيئتُه معروفة للجميع.

فقال مستر كاسي في برود: كلُّنا خطاة، وذوو خطايا سوداء.

فقالت مسز ريوردان: ويلٌ للرجل الذي تأتي العثرة على يديه. لَخيرٌ له أن يربط في عنقه حجر الرَّحَى ويغرق في أعماق البحر، من أن يُعثر على أحد هؤلاء الصغار المؤمنين. هذه لغة الروح القدس.

فقال مستر ديدالوس ببرود: لو سألتني لقلت لك إنها لغةٌ سقيمةٌ للغاية.

فقال العم تشارلس: سيمون، سيمون ... الطفل.

فقال مستر ديدالوس: أجل، أجل ... إنما كنت أعني الـ ... لقد خطرَت ببالي لغةُ حمَّال المحطة السقيمة ... حسنًا، هذا جميل، أرني طبقك يا ستيفن، يا عزيزي الصغير، فلتأكل هذا الآن، هيَّا.

وكوَّم بعضَ الطعام في طبق ستيفن، وتناول العم تشارلس ومستر كاسي قطعًا كبيرةً من الديك الرومي، وعدة ملاعق من الحساء. ولم تأكل مسز ديدالوس إلا القليل، بينما جلست دانتي ويداها على حجرها وقد احمر وجهها، وأخذ مستر ديدالوس ينبش بالشوكة في نهاية الطبق، وقال: هنا قطعة لذيذة الطعم نسميها «أنف البابا»، فإذا أراد أيٌّ من السادة أو السيدات أن ...

وأمسك بقطعة من لحم الدجاج على طرف الشوكة، ولكن أحدًا لم يتكلم، فوضعها في طبقه وهو يقول: حسنًا، لن يلومني أحدٌ لأني لم أقدِّمها له، وإني أعتقد أنه يجدر بي أن آكلَها؛ لأن صحتي ليست على ما يرام هذه الأيام الأخيرة.

وغمز بعينَيه لستيفن وأخذ في الأكل مرةً أخرى، بعد أن أعاد وضْعَ غطاء الطبق.

وساد الصمت، بينما كان منهمكًا في الأكل، ثم قال: حسنًا، لقد ظل الطقس على صفائه على كل حال، كذلك وفد على المدينة كثيرٌ من الغرباء.

ولم يتكلم أحد، وعاد يقول: أظن أن مَن حضروا إلى البلدة هذه المرة أكثر ممن حضروا إليها في عيد الميلاد السابق.

وتطلَّع إلى الآخرين الذين أحنَوا وجوههم على أطباقهم. ولما لم يردَّ عليه أحدٌ قال بعد لحظة في مرارة: حسنًا، لقد نُغص عليَّ عيد الميلاد على كل حال.

فقالت دانتي: لا يمكن أن يكون هناك حظٌّ أو بركة في بيتٍ لا يحترم قسس الكنيسة.

فألقى مستر ديدالوس سكينَه وشوكته في الطبق بعنفٍ، وقال: احترام! أنحترم «بيلي ذا الشفتَين»[١١] أم «وعاء الأمعاء» في «أرماج»؟[١٢] احترام!

وقال مستر كاسي في رنة احتقار: لأمراء الكنيسة!

وقال مستر ديدالوس: لسائق عربة اللورد «ليتريم».[١٣]

فقالت دانتي: إنهم رسل المسيح، إنهم فخر بلادهم.

فقال مستر ديدالوس بفظاظة: وعاء الأمعاء، إن وجهه يبدو وسيمًا في أوقات الراحة. آه لو رأيت هذا الرجل وهو يلعق قطعةً من لحم الخنزير وبعض الكرنب في يومٍ من أيام الشتاء الباردة. وقلب سحنته في حركة بهيمية وأخذ يلعق شفتَيه بصوتٍ عالٍ.

– ينبغي ألَّا تتحدث بهذه الطريقة أمام ستيفن يا سيمون، إن ذلك ليس طيبًا.

فقالت دانتي: سوف يتذكر كلُّ هذا حين يكبر، سيتذكر الكلام الذي قيل في بيته ضد الله وضد الدين والقسس.

فصاح بها مستر كاسي عبر المائدة: فليذكر أيضًا الكلام الذي حطَّم به القسس وأعوان القسس قلب «بارنل»، وقادوه ككلاب الصيد إلى حتفه، فليذكر هذا أيضًا حين يكبر.

فصاح مستر ديدالوس: أولاد البغي. تضافروا عليه عندما سقط، وباعوه ومزَّقوه كالفئران في البالوعة. يا للكلاب الوضعاء! وقد حضروا ما حدث، حضروا ما حدث بحق الإله!

[١١] من رؤساء القساوسة في أيرلندا.

[١٢] من رؤساء القساوسة في أيرلندا.

[١٣] كناية عن أحد المتعاطفين مع الإنجليز.

فصاحَت دانتي: لقد تصرفوا التصرف السليم، لقد أطاعوا الأساقفة والقسس، يحق لهم الفخر بذلك.

فقالت مسز ديدالوس: حسنًا، من البشاعة أن أقول إنه لا يمكننا التخلص من هذه المناقشات المفزعة، حتى ولو يومًا واحدًا في السنة.

ورفع العم تشارلس يدَيه في وداعة وقال: هيًّا، هيًّا، ألَا يمكننا الاحتفاظ بآرائنا مهما كانت بدون إظهار الطباع السيئة والكلام السيِّئ؟ إنه لشيءٌ يؤسَف له.

وتحدَّثَت مسز ديدالوس إلى دانتي في صوت خفيض، ولكن دانتي أجابَت بصوت مرتفع: لا يمكنني السكوت، سأدافع عن كنيستي وديني، إذا ما أهانهما الكاثوليكيُّون المرتدون وبصقوا عليهما.

فأبعد مستر كاسي طبقَه إلى منتصف المائدة، وارتكز بمرفقَيه أمامه، وقال في صوت خشن لمضيفه: قُل لي، هل قصصت عليك قصة البصقة المشهورة؟

فقال مستر ديدالوس: كلَّا، إنك لم تفعل يا جون.

فقال مستر كاسي: إنها قصةٌ يجدر بالمرء أن يتعلم منها. لقد حدثت منذ وقتٍ ليس بالبعيد في مقاطعة «ويكلو»، التي كانت تقع في هذا المكان نفسه الذي نحن فيه الآن.

وقطع حديثه والتفت إلى دانتي، وقال في حنق هادئ: يحقُّ لي أن أقول لك يا سيدتي إنك إذا كنت تعنيني بما قلتِ، فأنا لست كاثوليكيًّا مرتدًّا. إنني كاثوليكي مثلما كان والدي من قبلي، وجدي من قبله ووالد جدي من قبله، عندما كنَّا نبيع أرواحنا ولا نبيع إيماننا.

فقالت دانتي: يزيدك من عارك هذا الكلام والذي تقوله الآن.

فقال مستر ديدالوس مبتسمًا: القصة يا جون، فلتمضِ في قصتك على أية حال.

فردَّدَت دانتي في سخرية: كاثوليكي حق! إن أحقر بروتستانتي لم يكن ليقول هذا الكلام الذي سمعته هذا المساء.

فأخذ مستر ديدالوس يهزُّ رأسه إلى الأمام وإلى الخلف، ويُدندن كما يفعل المغني الريفي، وقال مستر كاسي وقد احمر وجهه: يحق لي أن أُخبرَك مرةً أخرى أنني لستُ بروتستانتيًّا.

وأخذ مستر ديدالوس وهو سادرٌ في هزِّ رأسه ودندنته، يغني في نغمة صادرة من أنفه:

تعالَوا يا أتباع الكاثوليكية الرومانية.
يا مَن لم تحضروا قداسًا واحدًا.

ثم تناول سكينَه وشوكتَه في مرح، وأخذ في تناول الطعام وهو يقول لمستر كاسي: فلنسمع القصة يا جون، فسوف تساعدنا على الهضم.

ونظر ستيفن في مودة إلى وجه مستر كاسي، الذي كان يتطلع عبر المائدة خلال ذراعَيه المتشابكتَين. كان يجب أن يجلس بقربه عند المدفأة، وينظر إلى وجهه المكفهر القاسي. ولكنَّ عينَيه السوداوَين لم تكونا أبدًا قاسيتَين، وكان صوتُه البطيء محبَّبًا للأسماع، ولكن لماذا يهاجم القسس الآن؟ لا بد وأن تكون دانتي على حق، غير أنه سمع والده يقول ذات مرة إنها راهبة ضالة، وإنها قد تركَت دير «أليجاني»، عندما حصل أخوها على بعض النقود من المتوحشين في مقابل بعضِ الحليِّ والمصوغات. وربما يكون هذا هو سبب مغالاتها في عدائها لبارنل، وهي لم تكن تحب أن تراه يلهو مع «إيلين»؛ لأنها بروتستانتية؛ ولأنها كانت في طفولتها تعرف أطفالًا تعوَّدوا اللهو مع البروتستانت الذين يسخرون من بعض ابتهالات العذراء المقدسة. كانوا يقولون وهم سادرون في سخريتهم بالمذهب الكاثوليكي، إنها البرج العاجي والبيت الذهبي. كيف يمكن أن تتسم امرأة بالبرج العاجي أو البيت الذهبي؟ ومَن يكون على حقٍّ إذن؟ وتذكَّر ذلك المساء في المستشفى في مدرسة «كلونجوز»، المياه الحالكة، والضوء عند الميناء، وعويل الأسف يصدر من الناس عند سماعهم النبأ.

يدَا «إيلين» طويلتان بيضاوان. عندما كانا يلعبان ذات مرة معًا، وضعَت يدَيها على عينيه، يدان طويلتان بيضاوان، رفيعتان باردتان ورقيقتان، هذا ما يسمونه بالعاج، شيءٌ باردٌ أبيض، وهذا ما يعنونه بالبرج العاجي.

قال مستر كاسي: القصة قصيرةٌ جدًّا وطريفةٌ أيضًا، حدثَت في أحد الأيام هناك في مدينة «أركلو»، في يومٍ قارس البرد قبل موت زعيمنا بقليل، رحمه الله.

ثم أغمض عينَيه في إرهاقٍ وتوقَّف عن الكلام، وتناول مستر ديدالوس إحدى العظام من طبقه ونزع عنها اللحم بأسنانه، ثم قال: تعني قبل أن يقتلوه.

وفتح مستر كاسي عينَيه وتنهَّد ثم واصل كلامه: حدثَت القصة ذات يوم في «أركلو»، وكنَّا هناك لحضور أحد الاجتماعات. وكان علينا بعد نهاية الاجتماع أن نشقَّ طريقنا خلال الزحام إلى المحطة. ويا لَأصوات الامتعاض وثغاء الماعز الذي كان يتصاعد من كل مكان! لقد أطلقوا علينا الشتائم بكل ما يعرفون من ألفاظ السباب. وكانت هناك سيدة عجوز، ويا لَها من عجوزٍ سكيرةٍ شمطاء بمعنى الكلمة. كانت تُلقي بكل اهتمامها إليَّ، وأخذَت تتدافع بجانبي في الوحل تصرخ وتصيح في وجهي: «يا صائد القسس، اعتمادات باريس المالية! مستر «فوكس»! «كيتي أوشي»!»

فسأل مستر ديدالوس: وماذا فعلت يا جون؟

فقال مستر كاسي: تركتها تصخب، فقد كان اليوم باردًا، ولكي أُنعشَ فؤادي، كنت أمضغ — مع عدم المؤاخذة يا سيدتي — قطعةً من التبغ في فمي؛ ولهذا لم يكن بإمكاني أن أتكلم على الإطلاق؛ لأن فمي كان مليئًا بلعاب التبغ.

– وماذا حدث بعد ذلك يا جون؟

– حسنًا، تركتُها تصخب حتى تُريحَ ما في نفسها عن «كيتي أوشي» وبقية ما تتحدث عنه، حتى أطلقَت هذه السيدة سِبابًا لن أُدنِّس حفل عيد الميلاد الليلة، ولا أُذُنَيك يا سيدتي ولا شفتيَّ بترديده ثانيةً.

وتوقَّف عن الكلام، وسأله مستر ديدالوس وهو يرفع رأسه على العظمة:

– وماذا فعلتَ يا جون؟

فقال مستر كاسي: فعلت؟ لقد رفَعَت إليَّ وجهَها العجوز القبيح وهي تقول هذا، وكان فمي مليئًا بلعاب التبغ فمِلْت نحوها وبصقتُ عليها، هكذا.

والتفتَ جانبًا، وقام بالبصق.

– بصقتُ عليها هكذا، في وسط عينَيها تمامًا.

ورفع يدَيه إلى عينَيه يغطِّيهما بهما، وأطلق صيحةَ ألمٍ حادة.

– وصرخَت السيدة بعدها: يا يسوع، يا ماري ويا يوسف! لقد أُغشيَ بصري، لقد أُغشيَ بصري وغَرِقت.

وأوقفَته نوبةُ سعال وضحك، ثم ردد: لقد أُغشيَ بصري تمامًا.

وضحك مستر ديدالوس عاليًا، واضطجع في مقعده، بينما أخذ العم تشارلس يهزُّ رأسه يمنةً ويسرةً.

وبدت دانتي في شدة الغضب، وأخذت تردد، بينما هم يضحكون:

– جميلٌ جدًّا ... ها ... جميلٌ جدًّا.

لم تكن تلك البصقة في عينَي المرأة بالشيء الجميل أبدًا، ولكن ما هو ذلك السِّباب الذي أطلقَته المرأة على «كيتي أوشي»، والذي رفض مستر كاسي أن يقوله؟ وتمثَّل في خاطره صورةُ مستر كاسي وهو يسير بين جماعات الناس، ويُلقي الخطب من العربة الصغيرة، لقد دخل السجن من جراء ذلك، وأنه يذكر أن الجاويش «أونيل» حضر إلى المنزل في إحدى الأمسيات، ووقف في الردهة يتحدث في صوتٍ خفيضٍ مع والده ويمضغ شريط قبعته في

عصبية. ولم يذهب مستر كاسي هذه الليلة إلى دبلن بالقطار، بل حضَرَت عربةٌ إلى باب المنزل، وسمع والده يذكر بعض الكلام عن طريق «كابنتيلي».

كان مستر كاسي ووالده من مناصري أيرلندا، «وبارنل» وكذلك دانتي؛ فذات ليلة حين كانت الفرقة الموسيقية تعزف في أرض الاحتفالات، ضربت رجلًا على رأسه بمظلتها؛ لأنه خلع قبَّعتَه حين عزفَت الفرقة لحن «حفظ الله الملكة» في نهاية العرض.

وأطلق مستر ديدالوس زفرة احتقار، وقال: آه يا جون، إنهم على حق، إننا شعبٌ سيِّئ الحظ يتحكم فينا القسس، وكنَّا دائمًا كذلك وسنبقى دائمًا هكذا حتى نهاية الكون.

وهزَّ العم تشارلس وهو يقول: شيء مؤسف، شيء مؤسف.

وردَّد مستر ديدالوس: شعبٌ يتحكم فيه القسس وينبذه الرب.

وأشار إلى صورةِ جدِّه المعلَّقة على الحائط على يمينه، وقال: أترى هذا الرجل العجوز يا جون؟ لقد كان أيرلنديًّا معتزًّا بوطنه في وقتٍ كان ذلك الاعتزاز لا يجلب شيئًا على صاحبه، وقد حُكم عليه بالإعدام لأنه كان عضوًا في الجماعة السرية. وقد قال مرةً عن «أصدقائنا» القسس، إنه لا يمكن أبدًا أن يسمح لأحدٍ منهم أن يضع قدمَه تحت سقف بيته.

فصاحَت دانتي في غضب: إذا كنَّا شعبًا يتحكم فيه القسس فيجب علينا أن نفخر بذلك. إنهم عين الله، وقد قال المسيح عنهم «لا تمسوهم بأذى، فإنهم قرة عيني.»

فسأل مستر كاسي: ولكن أليس لنا أن نُحبَّ وطننا إذن؟ أليس لنا أن نتبع الرجل الذي خُلق لزعامتنا؟

فأجابَت دانتي: إنه خائنٌ لوطنه، إنه خائنٌ زانٍ. إن القسس على حقٍّ لتخليصهم عنه، لقد كان القسس دائمًا أصدقاء أيرلندا المخلصين.

فقال مستر كاسي: «أكانوا كذلك حقًّا». وألقى بقبضة يد على المائدة، ثم أخذ يبسط أصبعًا وراء آخر وهو يعبس غاضبًا مستطردًا: ألم يَخُنَّا أساقفة أيرلندا في وقت الاتحاد حين انحاز الأسقف «لاينجان» إلى جانب المركيز «كورنواليس»؟ ألم يَبِع الأساقفة والقسس مطالبَ بلدهم عام ١٨٢٩ مقابل تحرير الكاثوليكية؟ ألم يهاجموا الحركة «الفينيائية»[١٤] من على المنابر وفي حجرات الاعتراف؟ ألم يُمثِّلوا برفات «ترنس بيلو ماكمانوس»؟[١٥]

---

[١٤] حركة أيرلندية قومية.

[١٥] وطني أيرلندي (١٨٢٣–١٨٦٠).

وكان وجهُه متوهجًا من الغضب، وشعر ستيفن بالوهج يرتفع في وجنته هو؛ فقد هزَّته هذه الكلمات، وأطلق مستر ديدالوس ضحكةَ احتقار شديدة، وصاح:

أوه يا إلهي، لقد نسيت «بول جولن»[16] العجوز، عين أخرى من عيون الله!

ومالَت دانتي عبر المائدة وصاحَت في مستر كاسي: على حق، على حق، إنهم على حق دائمًا، الله والأخلاق والدين أولًا وقبل كل شيء.

وقالت مسز ديدالوس لها بعد أن لاحظت غضبها: لا تُثيري غضبك بالرد عليهم يا مسز ريوردان.

وصاحَت دانتي: الله والدين قبل كلِّ شيء، الله والدين قبل الدنيا كلها.

فرفع مستر كاسي يدَيه المنقبضتَين وضرب بهما على المائدة، وصاح في حدَّة: حسنًا جدًّا، إذا كان الأمر كذلك فليس هناك إله لأيرلندا.

فصاح مستر ديدالوس وهو يُمسك بردن معطف ضيفه: جون! جون!

وشخصَت دانتي بعينَيها عبر المائدة وخدَّاها يرتجفان. وحاول مستر كاسي النهوض من مقعده، ومال على المائدة نحوها، وهو يُلوِّح أمامه في الهواء بإحدى يدَيه، كأنما يمزق أستار أحد العناكب، وصاح قائلًا: ليس لأيرلندا إله! لقد ضقنا ذرعًا بالإله، فخذوه بعيدًا.

فصرخَت دانتي وهي تقفز على قدمَيها، وتكاد تبصق في وجهه: أيها الكافر، أيها الشيطان.

وجذب العمُّ تشارلس ومستر ديدالوس مستر كاسي، وأعادوه إلى مقعده مرةً أخرى، وهما يتحدثان إليه من كلا الجانبين محاولين تهدئته. وكان يتطلع أمامه بعينَيه السوداوين الحادَّتَين مردِّدًا: أبعدوا الإله عنَّا.

وأزاحَت دانتي مقعدَها في عنفٍ وغادرَت المائدة. وقلبت أثناء ذلك حلقة المنشفة، فتدحرجَت في بطءٍ على البساط، حتى استقرت بجانب أرجل أحد المقاعد الكبيرة. ونهض مستر ديدالوس في سرعة وتَبِعها إلى الباب. وعند الباب التفتت دانتي في حدةٍ وصاحت، وقد توهجَت وجنتاها وارتعشتا من فرط الغضب:

– أيها الشيطان الجهنمي! لقد انتصرنا! لقد قهرناه حتى مات، أيها الشيطان.

وانصفق الباب خلفها.

---

[16] كاردينال أيرلندي (١٨٠٣–١٨٧٨).

وبعد أن خلَّص مستر كاسي ذراعَيه ممن كانا يُمسكانه، أحنَى رأسه فجأةً على يدَيه وأجهش بالبكاء من الألم، وصاحَت بصوتٍ مرتفعٍ باكٍ: أيها المسكين بارنل، يا مليكي الذي مات.

وبكى بصوتٍ عالٍ مريرٍ. وعندما رفع ستيفن وجهه الذي ارتسم عليه الهلع، رأى عينَي والده وقد اغرورقتَا بالدموع.

كان التلاميذ يتحدثون في جماعات صغيرة، وقال أحدهم: لقد أمسكوهم بالقرب من تل «ليونز».

– مَن الذي أمسكهم؟

– مستر «جليسون» والقس، كانا يركبان إحدى العربات.

وأضاف نفس هذا التلميذ:

– لقد سمعت هذا من أحد تلاميذ الصف الأعلى.

وسأل «فلمنج»: ولكن لماذا هربوا؟

فقال «سيسل تندر»: أنا أعرف السبب. لقد سرقوا بعض النقود من غرفة المدير.

– ومَن الذي سرقها؟

– شقيق «كيكهام»، واشترك الجميع في ذلك.

ولكن هذه سرقة، كيف استطاعوا أن يفعلوا ذلك؟

وقال «ولز»: إنك لا تعرف شيئًا عن الموضوع يا ثندر، أما أنا فأعرف لماذا هربوا!

– أخبرْنا إذن عن السبب.

فقال ولز: ليس لي أن أُفشيَ ذلك.

فقال الجميع: أوه ... أخبرنا يا ولز، أخبرنا على ألَّا نقولَ لأحدٍ شيئًا.

ومدَّ ستيفن رأسه إلى الأمام ليسمع. ونظر ولز حوله ليرى ما إذا كان أحد قادمًا، ثم قال في سرية: أتعرفون نبيذ الهيكل الذي يحتفظون به على أحد الرفوف في غرفة المقدسات؟

– أجل.

– حسنًا، لقد شربوا ذلك النبيذ، وقد اكتشفوا من شربه عن طريق الرائحة. وقد هربوا لذلك السبب.

فقال التلميذ الذي تكلَّم أول مرة: أجل، هذا ما سمعتُه أيضًا من تلميذ الصف الأعلى.

وصمت جميع التلاميذ، ووقف ستيفن بينهم منصتًا، وهو يخشى أن يتكلم. وغمرَه شعورٌ واهنٌ بالرهبة جعله يشعر بضعفه. كيف استطاعوا أن يفعلوا ذلك؟ وجالت

بفكره غرفة المقدسات المظلمة الهادئة؛ هناك رفوفٌ خشبيةٌ سوداء بُسطت عليها الأوشجة الكهنوتية المطوية، وعلى المرء أن يتحدث عنها في رهبة ووجل؛ فرغم أنها ليست الكنيسة إلا أنها مقدسٌ. وتذكَّر تلك الأمسية في فصل الصيف حين ذهب إلى هناك ليرتديَ ملابس حامل «القارب» في مساء الذهاب إلى الهيكل الصغير في الغابة. مكانٌ غريبٌ مقدسٌ، وكان الصبي الممسك بالمبخرة قد رفعها عاليًا من سلسلتها الوسطى، حتى يظلَّ الفحم مشتعلًا، إنه يُسمَّى الفحم النباتي، وقد اشتعل في هدوء حين أخذ الصبي يهزُّه في رفقٍ، وصدرت عنه رائحةٌ حادة خفيفة. وعندما ارتدى الجميع ملابسهم للاحتفال، تقدَّم هو بالقارب إلى المدير، فوضع هذا فيه ملء ملعقة من البخور، الذي أخذ يئزُّ على الفحم المشتعل.

كان التلاميذ يتحدثون في جماعات صغيرة هنا وهناك في الملعب. وبدا التلاميذ صغار الحجم في عينَيه؛ ذلك لأن أحد المتسابقين وهو تلميذٌ في الصف الثاني بقسم القواعد، قد اصطدم به وألقاه أرضًا نهار أمس، حين ألقَته دراجة التلميذ برفقٍ على أرض السباق، فكُسرت نظارته إلى ثلاث قطع، ودخل بعض الحصى ورماد الطريق في فمه؛ ولهذا السبب بدا له التلاميذ على هيئةٍ أصغر وعلى مسافةٍ أبعد، وبدَت له قوائم المرمى في الملعب رفيعة بعيدة، والسماء الرمادية الهادئة على علوٍّ شاسعٍ، ولم يكن هناك أحدٌ في ملاعب كرة القدم؛ فقد كانوا يُعدون للعبة الكريكت، وقد قال البعض إن «بارنز» سيكون رئيس الفريق، وقال البعض الآخر إنه سيكون «فلاورز».

كان التلاميذ يلعبون بالكرة ويسددون الضربات على امتداد أرض الملعب. ومن هنا وهناك كانت تتردد أصوات مضارب الكريكيت خلال الهواء الرمادي الهادئ، وكانت أصداؤها: «بيك باك بوك بك» تبدو كقطرات ماء الينبوع، تتساقط في بطء على الحوض الممتلئ حتى حافته.

وقال أثاي في هدوء، وكان مُلازمًا الصمت: كلكم على خطأ.

فالتفت الجميع نحوه في فضول.

– لماذا؟

– أتعلم أنت؟

– مَن قال لك؟

– أخبرنا يا «أثاي».

فأشار أثاي نحو الملعب حيث يسير «سيمون مونان» وحده يتسلَّى بركل الأحجار التي أمامه، وقال: اسألوه.

فنظر التلاميذ إليه وقالوا: لماذا نسأله؟

– أهو مشتركٌ معهم؟

وخفض أثاي من صوته، وقال: أتعلمون لماذا هربَا؟ سوف أُخبركم ولكن عليكم ألَّا تُفشوا ما ستعرفونه.

– أخبرنا يا أثاي، هيَّا، عليك أن تُخبرنا إذا كنت تعلم.

فصمت لحظةً ثم قال بغموض: لقد ضُبطوا مع «سيمون مونان» و«تسكر بويل» في دورة المياه في إحدى الليالي.

– فنظر إليه التلاميذ وسألوه:

– ضُبطوا؟

– ماذا كانوا يفعلون؟

فقال أثاي: يفعلون شيئًا قبيحًا.

وصمت جميع التلاميذ، وقال أثاي: وهذا سبب هربهم.

ونظر ستيفن إلى وجوه التلاميذ، غير أنهم كانوا يتطلعون ناحية الملعب، وشعر برغبة في سؤال أحدهم عن هذا الموضوع، ماذا يعنون بفعلِ شيءٍ قبيحٍ في دورة المياه؟ ولماذا هرب تلاميذ الصف الأعلى الخمسة من أجل ذلك؟ وخطر بباله أن الأمر مجرد مزاح. إن «سيمون مونان» يرتدي ملابس جميلة، وقد أراه ذات ليلة كرة بها بعض الحلوى، كان بعض تلاميذ كرة القدم الخمسة عشر، قد ألقَوا بها إليه على البساط وسط المطعم، عندما كان يجلس بجانب الباب. كان ذات ليلة المباراة ضد فريق «بيكتيف رانجرز»، وكانت كرتُه على هيئة تفاحة حمراء وخضراء، وبالإمكان فتحها وهي مليئة بالحلوى. ذات يوم قال «بويل» إن الفيل له نوبان بدلًا من نابَين؛ ولهذا فقد أطلقوا عليه «نوبي بويل»، ولكن بعض الزملاء أطلقوا عليه اسم مدام بويل؛ لأنه كان مشغولًا على الدوام بتقليم أظافره.

لإيلين أيضًا يدان طويلتان نحيلتان باردتان بيضاوان؛ لأنها فتاة، وكانتا شبيهتَين بالعاج، غير أنهما رقيقتان، وهذا هو معنى البرج العاجي، ولكن البروتستانت لم يتمكنوا من فهم ذلك وسخروا منه. وقف ذات مرة بجانبها، يتطلعان إلى فناء الفندق. كان هناك خادمٌ يرفع أعلامًا مزينةً على السارية، بينما يعدو كلبٌ من كلاب الصيد مذعورًا هنا وهناك على الحشائش المشمسة. وضعت يدها في جيبه حيث كانت يده، وشعر بيدها باردة نحيلة رقيقة. قالت إن الجيوب شيءٌ مضحكٌ حقًّا، ثم انطلقت فجأة تجري عبر منحنى الممر المنحدر، وتطاير شعرها خلفها كأسلاك الذهب تحت أشعة الشمس، البرج العاجي، البيت الذهبي، تستطيع فهم الأشياء بمداومة التفكير فيها.

ولكن لماذا ضُبطوا في دورة المياه؟ إن المرء يذهب إلى هناك إذا ما أراد القيام بعملٍ ما. كان بناؤها بكُتَل أحجار الأردواز، وتتسرب المياه طوال اليوم من بين البلاط الصغير، وهناك رائحة غريبة للمياه الراكدة بها. وخلف أحد أبواب إحدى الدورات رسمٌ بالقلم الأحمر لرجلٍ ذي لحية، يرتدي ملابس رومانية ويحمل حجرًا في كلتا يديه، وقد كتب تحت الرسم:

«كان بالبوس يبني جدارًا.»

لا بد أن تلميذًا رسمها هناك للمزاح، فقد كان للرسم وجهٌ مضحك، غير أنه شبيهٌ برجل ذي لحية، وعلى جدار دورة أخرى كتب في خطٍّ جميلٍ:

«كتب يوليوس قيصر الكاليكو بيللي.»

قد يكون هذا هو سبب ذهابهم هناك، فهو المكان الذي يكتب فيه بعضُ التلاميذ نكاتِهم، ومع ذلك فإن ما قاله «أثاي» غريبٌ، وكذلك الطريقة التي قاله بها. لم يكن ما فعلوه من قبيل المزاح؛ لأنهم هربوا. وتطلع مع الآخرين إلى الملعب، وشعر بالخوف يتملكه.

وأخيرًا قال «فلمنج»: وهل يعاقبوننا على ما جناه غيرنا!

وقال «سيسل تندر»: لن أعود للمدرسة ثانية، وسترون ذلك. ثلاثة أيام دون كلام في المطعم مع الضرب بالمسطرة لأقل شيء.

فقال ولز: أجل، وكذلك فإن «بارت» العجوز اتخذ طريقةً جديدة لثني أوراق الجزاءات، حتى لا نتمكن من فتحها، لنرى كم ضربةً سيعاقبنا بها، إني لن أعود كذلك.

فقال سيسل تندر: أجل، كما أن المشرف كان عند الصف الثاني قسم القواعد هذا الصباح.

فقال فلمنج: فلنَقُم بتمرُّد، ألَا توافقون؟

وظل جميع التلاميذ صامتين. وكان الهواء ساكنًا، وأصوات مضارب كرة الكريكت تتردد أكثر بطئًا عن ذي قبل: بيك، بوك.

وسأل ولز:

– ماذا سيفعلون بهم؟

فقال أثاي: سيجلدون «سيمون مونان» و«تسكر»، أما تلاميذ الصف الأعلى، فقد خيَّروهم بين الجلد وبين الفصل من المدرسة.

وسأل التلميذ الذي تكلَّم أولًا: وماذا سيختارون؟

فأجاب أثاي: كلَّا، كلَّا، سوف يُجلد كلاهما على مُؤخِّرتَيهما.

فأخذ ولز يحكُّ جسده ويقول مقلِّدًا صوتًا باكيًا: أرجوك أن تتركني يا سيدي.

فكشَّر أثاي عن أسنانه وشمَّر عن ردني سترته، وهو يقول:

لا مناص من ذلك.
لا بد من هذا العمل.
فهيَّا أنزل سراويلك.
واكشف عن عجيزتك.

وضحك التلاميذ، ولكنه شعر بالخوف يراودهم. وكان يسمع أصوات مضارب كرة الكريكت من هنا ومن هناك، خلال سكون الهواء الرمادي العليل: بوك. هذا مجرد صوت يتطرق إلى سمْعه، أما إذا كان الأمر يتعلق بالضرب، فسوف يشعر بالألم. وللضرب بالعصا صوتٌ أيضًا، غير أنه يختلف عن هذا الصوت. يقول التلاميذ إن العصا قد صُنعت من عظام الحيتان والجلد، وحُشيت بالرصاص من الداخل. وتساءل متعجبًا عما يكون عليه الألم. هناك أصواتٌ عديدة مختلفة؛ فمثلًا للعصا الطويلة الرفيعة صوتٌ صافر مدوٍّ. وتساءل كيف يكون الألم الناتج عن ضربة مثل هذه العصا. وشعر بالرعدة والبرودة من جراء تفكيره في ذلك الأمر، ومما سمعه من أثاي أيضًا. ولكن ما الذي أضحكهم في ذلك الموضوع؟ سبَّب له هذا رجفة؛ ذلك لأننا نشعر دائمًا بالرجفة حين نُنزل سراويلنا، تمامًا كما يحدث في الحمام حين ننزع ملابسنا. وتساءل عمن سيقوم بإنزالها، المدرِّس أم التلميذ بنفسه، أو … كيف يضحكون على ذلك بهذه الطريقة؟

ونظر إلى أردان أثاي المرفوعة لأعلى، وإلى يدَيه المعروقتَين الملطختَين ببقع الحبر. لقد شمر عن أردانه ليُمثِّل كيف سيقوم مستر جليسون بالجلد. ولكنَّ رُدني مستر جليسون مستديرةٌ براقة، ومعصمَيه نظيفان أبيضان ويدَيه سمينتان بيضاوان، كما أن أظافره طويلة مدببة. قد يكون معنيًّا بتقليم أظافره كما يفعل ليدي بويل، ولكنها كانت أظافرَ طويلةً مدببة بصورة مزعجة. إنها تبدو طويلة قاسية مع أن اليدين البيضاوَين السمينتَين لم تكونَا قاسيتَين بل رفيقتَين. وعلى الرغم من رعدة البرد والخوف التي أحس بها عند تفكيره في الأظافر الطويلة القاسية، وصوت العصا الصافر المدوِّي، والرعدة التي نحس بها عند نهاية القميص عندما نخلع ملابسنا، فقد كانت تخامر فؤادَه بهجةٌ غريبة هادئة،

حين تخطر بباله اليدان السمينتان البيضاوان لنظافتهما وقوتهما ورفقهما. وفكَّر فيما قاله سيسل تندر عن أن مستر جليسون لن يجلد كوريجان بشدة. وقد قال فلمنج إنه لن يفعل ذلك لأنه يحسن به ذلك، غير أن هذا ليس هو السبب.

وصاح صوتٌ ومن أقصى الملعب: «اجمع».

وصاحت أصواتٌ أخرى: اجمع! اجمع!

وجلس في حصة الكتابة ضامًّا ذراعيه، مُنصتًا إلى احتكاك الأقلام البطيء على الورق. وكان مستر هارفورد يجول هنا وهناك، يضع علامات صغيرة بالقلم الأحمر، ويجلس أحيانًا بجانب أحد التلاميذ ليُريَه كيف يُمسك بالقلم. وحاول أن يتهجَّى حروف العنوان المكتوب على السبورة بنفسه، وكان يعرفه قبلًا لأنه كان آخر موضوع في الكتاب: «الحماس بدون تبصُّر كالسفينة الجانحة»، ولكن الحروف بدَت له خيوطًا خفية، ولم يكن يستطيع أن يتبيَّن ملامح الحرف الكبير كاملة إلا بإغماض عينه اليمنى تمامًا، والنظر من خلال العين اليسرى، غير أن مستر هارفورد كان لطيفًا جدًّا ولم يغضب مطلقًا، مع أن جميع المدرِّسين الآخرين تجتاحهم نوباتٌ جامحة من الغضب، ولكن ... لماذا يتحملون هم مغبة ما فعله تلاميذ الصف الأعلى؟ قال ولز: إنهم شربوا بعض نبيذ الهيكل من على رف غرفة المقدسات، وإنهم قد كُشفوا من شُربه عن طريق الرائحة، لعلهم سرقوا كأس القربان المقدس، ليهربوا به ويبيعوه في مكانٍ ما. لا بد أنها خطيئة رهيبة: يتسللون هناك بهدوء في الليل، ويفتحون قمطرًا ويسرقون ذلك الشيء المضيء الذهبي؛ حيث يوضع الإله على الهيكل وسط الزهور والشموع عند طلب البركة، بينما يتصاعد البخور كالسحب من كلا الجانبَين حين يهز التلميذ المبخرة، «ودمونيك كللي» يُغني أول جزء بنفسه مع الكورس، ولكن الإله لم يكن فيها بالطبع حين سرقها التلاميذ. ومع ذلك فمجرد لمسها خطيئة كبرى وغريبة. وفكَّر في ذلك برهبةٍ شديدة، خطيئة غريبة هائلة. وشعر بهزة الإثارة عند التفكير في ذلك خلال السكون الذي يشقُّه صوتُ احتكاك الأقلام في رفق. ولكن شرب نبيذ الهيكل من على القِمَطْر، واكتشاف ذلك عن طريق الرائحة خطيئة كذلك، ولكنها ليست خطيئة هائلة أو غريبة، كل ما تُثيره هو إحساس خفيف بالسقم من رائحة النبيذ. عندما تناول القربان المقدس لأول مرة في الكنيسة أغمض عينَيه، وفتح فمه وأخرج لسانه قليلًا. وعندما انحنى المدير لكي يُناوله القربان المقدس، اشتمَّ رائحة نبيذ خفيفة تصدر عن أنفاس المدير من بعد نبيذ القداس. يا لَجمال تلك الكلمة: نبيذ، إنها تحمل أفكارك إلى اللون الأرجواني الداكن؛ لأن العنب أرجواني داكن يُزرع في اليونان أمام منازل تُشبه المعابد البيضاء، ولكن

أنفاس المدير الخفيفة جعلته يشعر بإحساس سقيم صباح يوم تناول القربان لأول مرة. يوم تناول القربان المقدس لأول مرة هو أسعد أيام حياتنا. وذات مرة سأل القادة نابليون عن أسعد يوم في حياته، وكانوا يظنون أنه سيقول إنه اليوم الذي ربح فيه معركة عظيمة أو اليوم الذي نُصِّب فيه إمبراطورًا، غير أنه قال: إن أسعد يوم في حياتي أيها السادة هو اليوم الذي تناولت فيه القربان المقدس لأول مرة.

ودخل الأب أرنال الفصل وبدأ درس اللغة اللاتينية، وظل ساكنًا وهو منحنٍ على القِمَطر وقد طوَى ذراعَيه، ووزَّع الأب أرنال كراسات الواجبات، وقال إنها شيءٌ مشين، وأن عليهم أن يُعيدوا ما كتبوه من التصحيحات في الحال. وكان أسوأها جميعًا هو كراس فلمنج؛ لأن صفحاته كانت ملتصقة بعضها بالبعض الآخر بلطخ الحبر. وأمسكها الأب أرنال من طرفها وقال: إن تقديم مثل هذه الكراسة إلى المدرِّس إهانة له. وبعد ذلك طلب من جاك لوتون أن يُصرِّف الاسم اللاتيني Mare، وتوقَّف جاك عند المفرد القابل ولم يستطع تصريف الجمع.

فقال الأب أرنال في صرامة: يجب أن تخجلَ من نفسك وأنت قائد الفصل. ثم سأل تلميذًا آخر، وآخر، وآخر.

ولم يعرف أحد، وهدأ الأب أرنال، وكان هدوءُه يزداد كلما يحاول تلميذ الإجابة ثم يعجز. ومع أن صوته كان هادئًا إلا أن وجهَه كان مكفهرًا وعينَيه تبرقان، ثم سأل فلمنج، وأجاب فلمنج أن الكلمة ليس لها جمع. وفجأة أغلق الأب أرنال الكتاب وصاح فيه:

– اركع هناك في وسط الفصل، فأنت واحدٌ من أبلد مَن صادفتُ في حياتي، أما الآخرون فليعيدوا كتابة الواجب ثانية.

وتحرَّك فلمنج في تثاقلٍ خارجًا من مكانه وركع بين القِمَطرَين الأخيرَين، وانحنى التلاميذ الآخرون عن كراريس الواجبات وبدءوا في الكتابة. وملأ السكون غرفة الدراسة، ولاحظ ستيفن وهو ينظر في خوف إلى وجه الأب أرنال المكفهر، أن الحمرة قد شابَته قليلًا من تأثير الغضب الذي انتابه.

أيكون الأب أرنال قد أخطأ حين ثار غاضبًا، أم يُسمح له بأن يغضب حين يكون التلاميذ بُلَداء، حتى يحملَهم ذلك على أن يُحسنوا استذكارَ دروسهم، أم يكون قد تظاهَرَ بالغضب؟ لا بد أن ذلك مسموحٌ له؛ لأن القَسَّ يعرف الخطيئة ولا يرتكبها، ولكن لو أنه وقع فيها مرةً عن طريق الخطأ، ماذا يفعل كي يعترف؟ ربما يُسِرُّ باعترافه إلى راعي الكنيسة في هذه الحالة. ولو وقع راعي الكنيسة في الخطيئة فإنه يعترف للمدير، والمدير

لزعيم الإقليم، وزعيم الإقليم لزعيم الجزويت. يسمُّون هذا بالنظام الجزويتي. وقد سمع والده يقول ذات مرة إنهم كلَّهم رجالٌ ماهرون. كان بإمكانهم أن يُصبحوا رجالًا ذوي مكانة في الدنيا، لو لم يختاروا الانضمام للجزويت. وتساءل عمَّا كان من الممكن أن يُصبح عليه الأب أرنال وبادي باريت، وكذلك مستر ماك جلاد ومستر جليسون لو لم ينضموا لطائفة الجزويت. من الصعب تصوُّر هذا؛ لأن عليك في هذه الحالة أن تتصورهم على حالة مختلفة، بمعاطفَ ملونة وسراويلَ مختلفة ولِحًى وشوارب، وأنواعٍ مختلفة من القبعات.

وفتح الباب في هدوءٍ ثم أغلق.

وسرَت همهماتٌ سريعة بين أرجاء الحجرة ... المشرف، وساد الفصلَ سكونٌ تامٌّ أعقبه صوتُ ضربٍ بالعصا عند آخر قِمَطر.

وقفز قلب ستيفن من الخوف.

وصاح المشرف: ألَا يوجد أحدٌ هنا يستحق الضرب أيها الأب أرنال؟ ألَا يوجد كسولٌ بليدٌ يستحق الجلد في هذا الفصل؟

وتوجَّه إلى منتصف الحجرة، وأبصر فلمنج راكعًا على ركبتَيه.

وصاح: هوه ... من هذا الصبي؟ لماذا يركع هكذا؟ ما اسمك أيها الفتى؟

– فلمنج يا سيدي.

– هوه ... فلمنج! أحد الكسالى طبعًا، إني أرى ذلك في عينَيك. لماذا يركع على ركبتَيه أيها الأب أرنال؟

فقال الأب أرنال: لقد كتب واجب اللاتيني غايةً في السوء، ولم يستطع الإجابة على أيِّ سؤال في القواعد.

فصاح المشرف: لقد فعل ذلك بالتأكيد، لقد فعل ذلك بالتأكيد، إنه كسولٌ بفطرته، إني أرى ذلك في طرف عينَيه.

وهبط بالعصا على القمطر محدِثًا دويًّا عاليًا، وصاح: انهض يا فلمنج، انهض يا فتى.

ونهض فلمنج في بطء.

وصاح المشرف: افتح يدك.

ومدَّ فلمنج يده، وهبطَت العصا عليها في صوتٍ عالٍ: واحد، اثنين، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة.

– اليد الأخرى!

وهبطَت العصا مرةً أخرى في ستِّ ضرباتٍ سريعة عالية.

وصاح المشرف: اركع هناك.

وركع فلمنج وهو يعتصر يدَيه تحت إبطَيه، وقد تقلَّص وجهُه من الألم.

وكان ستيفن يعلم مبلغَ قدرةِ يدي فلمنج على تحمُّل الألم؛ لأنه كان يدهنهما بالزيت. ولكن ربما كان الألم الذي شعر به عظيمًا لأن صوت العصا كان مهولًا، وأخذ قلب ستيفن يدقُّ ويخفق.

وصاح المشرف: هيَّا إلى عملكم جميعًا! لا نريد كسالى بُلَداء هنا، الكسالى البلداء المحتالين، إلى عملكم … سيحضر الأب دولان ليراكم كل يوم، سيحضر الأب دولان غدًا.

ثم وخز أحدَ التلاميذ في جنبه بعصاه وقال له: أنت أيها الصبي، متى سيحضر الأب دولان ثانية؟

فأجاب صوت توم فيرلونج: غدًا يا سيدي.

فقال المشرف: غدًا وغدًا وغدًا، اجعلوا ذلك في حسابكم، سيحضر الأب دولان كل يوم. هيَّا إلى كتابتكم. أنت أيها الصبي، مَن أنت؟

وقفز قلب ستيفن بغتة:

– ديدالوس يا سيدي.

– ولماذا لا تكتب كالآخرين؟

– أنا … إن …

ولم يستطع الكلام من فرطِ الخوف.

– لماذا لا يكتب هذا الصبي أيها الأب أرنال!

فقال الأب أرنال: لقد انكسرَت نظارته، وقد أعفيتُه من الكتابة.

فقال المشرف: انكسرَت؟ ما هذا الذي أسمعه؟ ما هذا الذي تقول، إنه اسمك؟

– ديدالوس يا سيدي.

– اخرج من هنا يا ديدالوس، أيها المخادع الصغير الكسول. إني أرى الخداع في وجهك، أين كُسرت نظارتك؟

وتعثر ستيفن في وسط الفصل، وقد أعماه الخوف والعجلة.

وأعاد المشرف قوله: أين كُسرت نظارتك؟

فصاح المشرف: أوه … طريق السباق؟ إني أعرف هذه الحيلة.

فرفع ستيفن عينَيه في دهشة، وشاهد في لمحةٍ خاطفةٍ وجهَ الأب دولان الرمادي، الذي تجاوز سنَّ الشباب، ورأسه الرمادي الأصلع وقد ملأ الزغب جوانبه، وأطراف نظارته

الحديدية، وعينَيه اللتين لا لون لهما، تتطلعان من وراء النظارة. لماذا قال إنه يعرف هذه الحيلة؟

وصاح المشرف: أيها المتبلد الصغير الكسول! كُسرت نظارتي. حيلة قديمة يلجأ إليها التلاميذ. ابسط يدَيك حالًا.

فأغمض ستيفن عينَيه، ومدَّ ذراعَه المرتجفة في الهواء، ورفع راحته إلى أعلى، وشعر بالمشرف يمسُّها مسًّا خاطفًا بعصاه عند الأصابع ليقوِّمها، ثم شعر بردن السترة يشتق الهواء حين رفع العصا ليضربه بها. ونزلت عليه ضربة حارقة واخزة مجلجلة كصوتٍ مدوٍّ لعصا تنكسر، جعلت يده المرتجفة تتقلص مثل ورقة الأشجار في النيران. وبعث الصوت والألم بالدموع الحارقة إلى عينَيه، وأخذ جسده يرتجف من الخوف، وذراعه ترتجف، ويده المتقلصة المحترقة الزرقاء ترتجف كورقة شجر يتلاعب بها الهواء، وارتفعت صرخة كالصلاة إلى شفتَيه، وكان على وشك إطلاقها، ولكنه أمسك بدموعه الساخنة، وحبس الصرخة التي أحرقَت حلقه، رغم الدموع التي تحرق عينَيه، وارتجاف الألم والخوف في أطرافه.

وصاح المشرف: يدك الأخرى.

فسحب ستيفن ذراعه اليمنى العاجزة المرتجفة، ومدَّ يده اليسرى. وشق ردن السترة الهواء ثانية عند رفع العصا، وحوَّل الصوت الساحق والألم القاسي الجنوني الحارق المجلجل يدَه وراحتَه وأصابعه إلى كومة زرقاء راجفة. وانبجسَت الدموع الحارقة من عينَيه، وسحب ذراعه المرتجفة في رعبٍ وهو يحترق بالخزي والحزن والخوف. وانفجر يُعوِّل من آلامه، وأخذ جسدُه يرتجف رجفة الخوف. وفي موجةِ الخزي والغضب شعر بالصرخة الحارقة تنطلق من حلقه، والدموع الحارقة تتساقط من عينَيه على خدَّيه المتوهجَين.

وصاح المشرف: اركع هناك.

وركع ستيفن بسرعةٍ وهو يعتصر يدَيه المضروبتَين بين جنبَيه، وبعث تفكيرُه في يدَيه وقد ضُربتا وتورمتَا من الألم في لحظة خاطفة، شعورَ الأسف في نفسه كما لم تكونا يدَيه بل يدَي شخصٍ غيره يشعر بالأسف لهما. وبينما هو راكعٌ يُهدِّئ غصصَه الأخيرة في حلقه، ويشعر بالألم الحارق المجلجل مدفونًا بين جنبَيه، جالَت بخاطره اليدان اللتان مدَّهما في الهواء براحتَين مرفوعتَين، ولمسة العريف الثابتة لهما ليقوِّم الأصابع المرتجفة، وكومة الراحة والأصابع المضروبة المتورمة المحمرة، التي كانت ترتجف في يأسٍ في الهواء.

وصاح المشرف: اركع هناك.

وصاح المشرف من عند الباب: هيَّا إلى عملكم جميعًا، سيحضر الأب دولان كل يوم ليرى ما إذا كان أي صغير كسول بليد يحتاج للجلد كل يوم، كل يوم.

وأغلق الباب خلفه.

واستمر التلاميذ في صمتهم يكتبون الواجب. ونهض الأب أرنال من مقعده وأخذ يتجول بينهم، يساعد الصبية بكلمات لطيفة، ويُصحِّح لهم الأخطاء التي وقعوا فيها. كان صوته لطيفًا جدًّا ورقيقًا، ثم عاد إلى مقعده وقال لفلمنج وستيفن: عودَا أنتما الاثنَين إلى مكانَيكما.

ونهض فلمنج وستيفن، وسارَا إلى مقعدَيهما وجلسا، وفتح ستيفن كتابًا بيدٍ واحدةٍ ضعيفة — وقد احمرَّ وجهُه من الخجل — وانحنى عليه مُقرِّبًا وجهَه من الصفحة. كان ما حدث ظلمًا وقسوةً؛ لأن الطبيب قال له ألَّا يقرأ دون النظارة، وقد كتب إلى والده هذا الصباح، ليُرسل له نظارةً جديدة، وقد سمح له الأب أرنال بألَّا يستذكرَ دروسه حتى تحضر النظارة الجديدة … ثم يُلقِّبه المشرف بالمخادع أمام التلاميذ ويضربه، في حين أنه يحصل دائمًا على المرتبة الأولى أو المرتبة الثانية، وهو قائد فريق يورك! وكيف يستطيع أن يعرف أنها خدعة؟ وشعر بملمس أصابع العريف حين كان يُقوِّم يده … في البداية ظن أنه سيصافحه لأن أصابعه كانت رقيقة ثابتة، ولكن بعد لحظة قصيرة سمع ردن السترة يشقُّ الهواء وصوت الضربة يجلجل. إن ركوعه في وسط الفصل أمرٌ ظالمٌ قاسٍ، وقد طلب منهما الأب أرنال العودةَ إلى مكانَيهما هما الاثنان دون أيِّ تمييز بينهما. وأنصتَ إلى صوت الأب أرنال الخفيض اللطيف، وهو يصحح الواجبات للتلاميذ، ربما يكون قد شعر بالأسف ويرغب في أن يكون رقيقًا، ولكن هذا ظلمٌ وقسوة. إن المشرف قَسٌّ دينيٌّ ورغمًا عن ذلك فإن ما فعله ظلمٌ وقسوة، وكان وجهه الرمادي وعيناه اللتان لا لون لهما، تُبديان نظرات القسوة من وراء النظارة ذات الإطار المعدني؛ لأنه مدَّ أصابعه اللينة الثابتة ليُقوِّم من يده أولًا لكي تكون الضربة شديدة وذات صوتٍ داوٍ.

قال فلمنج في الردهة حين كان التلاميذ يمرون مصطفِّين إلى المطعم: يا لَه من فعلٍ دنيء حقير أن يُضرب تلميذ لا ذنب له.

وسأل ناستي روش: إن نظارتك قد كُسرت بمحض الصدفة، أليس كذلك؟

وشعر ستيفن بقلبه يغصُّ بما قاله فلمنج ولم يردَّ.

فقال فلمنج: طبعًا، لو حدث لي ذلك ما احتملت، بل ذهبت وشكوته للمدير.

فقال سيسل تندر بحماس: أجل، وفوق ذلك فقد رأيته يرفع العصا فوق مستوى كتفه، وليس مصرَّحًا له أن يفعل ذلك.

فسأل ناستي روش: هل آلَمَتْك الضربات كثيرًا؟

فقال ستيفن: جدًّا؟

فعاد فلمنج يقول: لم أكن لأتحمل ذلك من هذا الرجل الأصلع أو ممن على شاكلته، إنها حيلةٌ دنيئة قذرة منحطة، بل كنت أذهب إلى المدير وأُخبره بذلك بعد الغداء مباشرة.

فقال سيسل تندر: أجل، افعل ذلك، أجل.

وقال ناستي روش: أجل، افعل ذلك، أجل. اذهب واشكه للمدير يا ديدالوس؛ لأنه قال إنه سيأتي غدًا مرةً أخرى ليضربك.

فقال الجميع: أجل، أجل، قُلْ للمدير.

وكان بعض تلاميذ الصف الثاني قسم القواعد يُنصتون للحديث، وقال أحدهم: لقد أعلن مجلس الشيوخ والشعب الروماني أن ديدالوس قد عُوقب ظلمًا.

هذا خطأ! هذا ظلمٌ وقسوة. وطوال جلسته في المطعم كان يعاني المرة تلو المرة نفس الإذلال، حين يتذكر ما حدث، حتى بدأ يتساءل عمَّا إذا كان هناك شيء في وجههم يجعلهم يبدو كالمخادع، وودَّ لو أن لديه مرآة ليرى فيها ذلك، غير أن هذا لم يكن ممكنًا، ولم يكن ما حدث سوى ظلم وقسوة وجَور.

ولم يستطع أن يأكل شرائح السمك السوداء التي كانوا يُقدِّمونها لهم يوم الأربعاء في أيام الصوم الكبير، كما أن إحدى حبَّات نصيبه من البطاطس كانت تحمل علامة المجرفة. أجل، سيفعل ما أشار إليه به زملاؤه. سيذهب ويُخبر المدير بأمر العقاب الذي نزل به دون وجه حق. لقد حدث في التاريخ شيء مثل هذا قبلًا، قام به شخص عظيم شاهد صورته في كتب التاريخ، وسيعلن المدير أنه قد عوقب بدون وجه حق؛ لأن مجلس الشيوخ والشعب الروماني دائمًا يُعلنون أن الرجال الذين يحدث لهم ما حدث له، قد عوقبوا دون وجه حق، كانت أسماء هؤلاء الرجال العظماء مدوَّنة في كتاب «أسئلة ريتشمال ماجنال». إن التاريخَ كلَّه يدور حول هؤلاء الرجال وعن أعمالهم، وكذلك تدور قصص «بيتر بارلي» عن اليونان وروما حول الموضوع نفسه. وهناك صورة لبيتر بارلي نفسه في أول صفحة من الكتاب. وبجانب صورته طريق في أعلى مرج مليء بالحشائش وبعض الشجيرات الصغيرة. ولبيتر بارلي قبعة عريضة مثل التي يرتديها القسس البروتستانت وعصًا ضخمة، ويبدو في الصورة مُغِذًّا السيرَ نحو اليونان وروما.

إن ما عليه أن يفعله سهلٌ للغاية، ليس عليه بعد انتهاء الغداء وخروجه، إلا أن يواصل السير ليس نحو الردهة، بل إلى الدور الأعلى على اليمين في الطريق المؤدي لإدارة المدرسة.

ما عليه إلا أن يقوم بهذا: أن يُعرِّجَ يمينًا ويغذَّ السير نحو الدور الأعلى، وفي نصف دقيقة سيكون في الردهة الواطئة المظلمة الضيقة، التي تؤدي إلى حجرة المدير عن طريق مبنى المدرسة. وقد قال التلاميذ جميعهم إن هذا ظلم ومنهم تلميذ الصف الثاني بقسم القواعد، الذي ذكر في حديثه مجلس الشيوخ والشعب الروماني.

ماذا سيحدث؟

وسمع أصوات تلاميذ الصف الأعلى ينهضون في أقصى المطعم من الأمام، وسمع صوت خطواتهم وهم يعبرون أرض الغل: «بادي رات» و«جيمي ماجي» والإسباني والبرتغالي، أما الخامس فكان كوريجان الكبير الذي سيقوم مستر جيسون بجَلْده. كان هذا سببَ دعوة المشرف له بالمخادع وضرْبه له بدون سبب. وبجهدٍ من عينَيه الضعيفتَين اللتين أرهقَتهما الدموع، شاهد كتفَي كوريجان الكبير العريضتَين ورأسَه الكبير الأسود المعلق بينهما تمرُّ في الصف. ولكن هذا التلميذ ارتكب خطأ ما، وبجانب ذلك فإن مستر جليسون لن يجلدَه بشدة. وتذكَّر مبلغ الضخامة التي يبدو عليها كوريجان في الحمام. إن جلدَه في مثل لون ردغَة المياه المغطَّاة بالحشائش في طرف الحمام الضحل. وعندما يسير على أحد الجوانب تصطفق قدماه بصوتٍ عالٍ على أحجار القرميد المبتلَّة، وتهتزُّ فخذاه قليلًا عند كل خطوةٍ لأنه كان سمينًا.

خلا المطعم من نصف التلاميذ وما زال الباقون يخرجون في الصفوف. في إمكانه الصعود للدور الأعلى؛ إذ لا يوجد قسس ولا مشرفون خارج باب المطعم، ولكنه لن يستطيع الذهاب، سوف ينحاز المدير إلى جانب العريف ويظن أنها مجرد حيلة تلاميذ. وحينئذٍ سيأتي العريف كلَّ يوم وسيكون الأمر أسوأ من ذي قبل؛ لأنه سيكون شديدَ القسوة على أيِّ تلميذٍ يشكوه للمدير. لقد نصحه زملاؤه بالذهاب غير أنهم لم يكونوا ليذهبوا هم أنفسهم، وقد نسوا كلَّ شيء عن الأمر الآن. كلَّا، من الأفضل نسيان الأمر تمامًا، ولربما لم يكن العريف يَعني بأنه سيحضر كل يوم سوى مجرد القول فقط. كلَّا، من الأفضل الابتعاد عن طريق العاصفة لأن المرء حين يكون صغيرًا في السن والحجم، ففي إمكانه تجنُّب ذلك.

ونهض التلاميذ الجالسون إلى منضدته، ونهض هو وسار إلى الخارج بينهم في الصف، لا بد له أن يحزم أمره. إنه يقترب من الباب، وإذا استمر في السير مع التلاميذ فإنه لن يتمكن من الصعود للمدير مطلقًا؛ لأنه من المستحيل بعد ذلك أن يترك الملعب لذلك الغرض، ولو أنه ذهب للمدير ثم ضُرب رغمًا عن ذلك، فسيهزأ به التلاميذ جميعهم، وسيتحدثون عن ديدالوس الصغير الذي صَعِد للمدير ليشكوَ المشرف.

كان يسير عبر الغل، وشاهد الباب أمامه. هذا مستحيل، إنه لا يستطيع الذهاب. وخطر بباله رأسُ المشرف الأصلع وعيناه القاسيتان اللتان لا لون لهما، تتطلَّعان إليه، وسَمِع صوت المشرف يسأله مرتين عن اسمه، لماذا لم يتذكر الاسم عندما قال له أول مرة؟ ألم يكن منتبهًا أم كان يريد أن يسخر من اسمه؟ إن عظماء التاريخ لهم مثل هذه الأسماء، ومع ذلك لم يسخر منهم أحد. وإذا كان يريد أن يسخر من شيء فليسخر من اسمه هو: دولان، إنه شبيهٌ بأسماء الغسالات.

ووصل إلى الباب، وانحرف بسرعة نحو اليمين ثم صَعِد السلَّم، ودخل الردهة الواطئة المظلمة الضيقة التي تؤدي إلى الإدارة، قبل أن يتمكن من التفكير في العودة. وبينما هو يعبر مدخل باب الردهة — وبدون أن يُديرَ رأسه لينظر — شاهد جميع التلاميذ يتطلعون بأبصارهم خلفه، وهم يسيرون في صفوفهم.

وعبر الردهة الضيقة المظلمة بعد أن مرَّ على بعض الأبواب الصغيرة، أبواب غُرَف أفراد الطائفة، ونظر أمامه وعلى يمينه ويساره خلال العتمة، وخطر بباله أن أمامه بعضَ الصور، كان الظلام والصمت يكتنفان المكان، وعيناه ضعيفتَين أتعبَتهما الدموع؛ ولذلك لم يتمكن من الرؤية، غير أنه كان يظن أنها صور قديسين وكبار رجال الجزويت، الذين كانوا ينظرون إليه من علٍ في صمتِهم وهو يمر بهم: القديس أغناطيوس لويولا، ممسكًا بكتاب مفتوح ويشير إلى ما كتبه فيه من كلمات: «إلى مجد الله وعظمته»، والقديس «فرنسيس إكسافير» يشير إلى صدره، و«لورنزو ريتشي» وعلى رأسه البيريه كأحد مشرفي الفصول، ثم مناصري الشباب المقدس الثلاثة: القديس «ستانيسلاوس كوستكا»، والقديس «ألويسيوس جونزاجو»، والمقدس «جون بير شمانز»، وكلُّهم ذوو وجوه شابة لأنهم ماتوا في شبابهم، ثم الأب «بيتر كيني» جالسًا على مقعد مرتديًا عباءة فضفاضة.

ودلف إلى أعلى الدرج الذي يقع فوق ردهة المدخل، ونظر حواليه … لقد قُتل «هاملتون روان» في هذا المكان، وما زالت علامات رصاص الجنود ظاهرة. وفي هذه المنطقة أيضًا شاهد الخدم المسنين الشبح الذي يرتدي عباءة الماريشال.

وكان هناك خادم يكنس الأرض عند مهبط أعلى السلم، فسأله عن مكان حجرة المدير، وأشار الخادم العجوز إلى بابٍ في الطرف الأقصى، وشخص إليه بعينَيه حين ذهب نحوه وقرع الباب.

ولم يأتِه أيُّ رد، فقرع الباب ثانيةً بصوتٍ أعلى، وقفز قلبه حين سَمِع صوتًا مكتومًا: ادخل!

وأدار المقبض وفتح الباب وأخذ يتلمَّس مكان مقبض الباب الداخلي المكسو بالقطنية الخضراء، وعثر عليه وفتحه ودخل.

وشاهد المدير جالسًا إلى المكتب منهمكًا في الكتابة، وكانت هناك جمجمة على مكتبه، بينما رائحة عجيبة وقورة كرائحة جلد المقاعد تملأ الغرفة.

وأخذ قلبه يدقُّ في سرعة حين دخل هذا المكان الوقور، وبسبب السكون الذي يسود الغرفة. ونظر إلى الجمجمة وإلى وجه المدير الطيب.

وقال المدير: حسنًا أيها الرجل الصغير، ماذا تريد؟

وازدرد ستيفن لعابَه وقال: لقد كُسرت نظارتي يا سيدي.

ففتح المدير فمه وقال: «أوه» ثم ابتسم، وقال: حسنًا، إذا كسرنا نظارتنا فيجب أن نكتب لمنزلنا حتى يبعثوا لنا بنظارة جديدة.

فقال ستيفن: لقد كتبتُ للمنزل يا سيدي! وقد سمح لي الأب أرنال بعدم الاستذكار حتى تأتيَ النظارة الجديدة.

فقال المدير: حسنًا جدًّا.

وازدرد ستيفن لعابَه مرةً ثانية، وحاول جهده أن يمنع ساقَيه وصوته من الارتعاد: ولكن يا سيدي ...

– ماذا؟

– لقد حضر الأب دولان اليوم وضربني؛ لأنني لم أكن أحل واجبي.

ونظر المدير إليه في صمت، وشعر بالدم يصعد إلى وجهه، والدموع توشك على الانبجاس من عينَيه.

وقال المدير: إن اسمك هو ديدالوس، أليس كذلك؟

– أجل يا سيدي.

– وأين كُسرت نظارتك؟

– في أرض السباق يا سيدي، حين كان أحد التلاميذ منطلقًا من مكان الدراجات، فسقطَت وكُسرت النظارة، كما أني لا أعرف اسم هذا التلميذ.

ونظر إليه المدير ثانيةً في صمت، ثم ابتسم وقال: أوه ... حسنًا، لقد حدث هذا عن طريق الخطأ، إني واثقٌ أن الأب دولان لم يكن يدري ذلك.

– ولكني أخبرتُه أنها كُسرت يا سيدي، وقد ضربني رغم ذلك.

فسأله المدير: وهل قلتَ له إنك كتبتَ لمنزلك في طلب نظارة جديدة؟

– كلَّا يا سيدي.

فقال المدير: حسنًا إذن، إن الأب دولان لم يفهم ذلك. يمكنك أن تقول إنني أعفيك من دروسك بضعة أيام.

فقال ستيفن بسرعة خوفًا من أن يمنعه ارتعاده من الكلام، أجل يا سيدي، ولكن الأب دولان قال إنه سيأتي في الغد لكي يضربني على ذلك مرةً أخرى.

فقال المدير: حسنًا جدًّا، إنها غلطةٌ وسوف أتحدث إلى الأب دولان بنفسي، أيكفي هذا الآن؟

وشعر ستيفن بالدموع تُبلل عينَيه وتمتم: أوه ... أجل يا سيدي، شكرًا.

ومدَّ المدير يدَه عبر جانب المكتب الذي وُضعت عليه الجمجمة، وشعر ستيفن براحة يده الباردة الرطبة وهو يضعها في يده للحظةٍ خاطفة.

وقال المدير وهو يسحب يده وينحني: والآن طاب يومك.

فقال ستيفن: طاب يومك يا سيدي.

وانحنى ثم سار في هدوء خارج الحجرة، وهو يُغلق الأبواب في حرصٍ وبطءٍ.

ولكنه بدأ يسير في سرعة أكثر فأكثر، حين خلَّف الخادم العجوز وراءه على مهبط الدرج، ودخل ثانيةً في الردهة الواطئة المظلمة الضيقة، وزاد في سرعته أكثر وأكثر خلال العتمة، وضرب البابَ القصيَّ بكوعه وأسرع هابطًا الدرج، ثم سار بسرعة عبر الردهتين وخرج إلى الهواء الطلق.

وتردَّدت في سمعِه صيحاتُ التلاميذ في الملاعب، وأخذ يجري، وأسرع أكثر وأكثر في جريه، وجرى عبر أرض السباق، ووصل إلى ملعب الصف الثالث وهو يلهث.

وشاهده التلاميذ وهو يجري، والتفوا حوله في حلقة وهم يتدافعون لكي يسمعوا.

– أخبرْنا، أخبرْنا!

– ماذا قال؟

– هل دخلتَ؟

– ماذا قال؟

– أخبرْنا، أخبرْنا!

وأخبرهم بما قاله، وبما قاله المدير.

وبعد أن أخبرهم بذلك، قذف جميع التلاميذ بقبعاتهم في الهواء، وصاحوا: مرحى ...

وأمسكوا بقبعاتهم ثم قذفوها عاليًا مرةً أخرى إلى عنان السماء، وصاحوا ثانيةً: مرحى! ... مرحى!

وتشابكَت أيديهم على شكل حلقة، ورفعوه فيما بينهم وحملوه حتى اضطر إلى مقاومتهم ليتركوه. وحين نجح في الهرب منهم تفرَّقوا في كل ناحية، وهم يقذفونه بقبعاتهم عاليًا في الهواء مرة أخرى، ويصفرون أثناء ذلك ويصيحون: مرحى …

ثم أطلقوا بعض صيحات السخط على دولان الأصلع وثلاث هتفات «لكونمي»، وقالوا إنه ألطف مدير جاء لـ «كلونجوز».

وماتت الصيحات في الهواء الرمادي، وأصبح وحيدًا. كان سعيدًا حرًّا، ولكنه لن يكون بأي حال مزهوًّا بما فعله بالأب دولان. سيكون في منتهى الهدوء والطاعة، وودَّ لو يفعل شيئًا طيبًا له؛ كي يُثبتَ له أنه ليس مزهوًّا بما فعله.

كان الهواء هادئًا رماديًّا رفيقًا، وكان المساء يوشك على الهبوط، والهواء يَعْبَق برائحة المساء، رائحة الحقول في الريف حيث ينبشون الأرض بحثًا عن رءوس اللفت، يقشرونها ويأكلونها حين يذهبون للنزهة إلى «هيجور بارتون»، وتلك الرائحة تنبعث هناك من الغابة الصغيرة الواقعة خلف المنطقة المليئة بجوز العفص.

وكان التلاميذ يتدربون على قذف الجُلَّة الطويل وعلى لعب الكرة والعقد البطيء للكريكت. وفي السكون الرمادي الهادئ كان يُسمع وقْع ضربات الكرات، ومن هنا وهناك كانت تتردد أصواتُ مضارب الكريكت خلال الهواء الساكن: بيك، ياك، يوك، يك، مثل قطرات ماء الينبوع تتساقط في رقَّة على سطح ممتلئ حتى الحافة.

الفصل الثاني

اعتاد العمُّ تشارلس تدخينَ نوعٍ رديء من التبغ، حتى إن ابن أخيه اقترح عليه آخرَ الأمر أن يستمتع بتدخينه كلَّ صباح في المرحاض الصغير، الذي يقع في نهاية الحديقة، وقال العجوز في هدوء: «حسنًا جدًّا، يا سيمون، وهو كذلك يا سيمون، في أيِّ مكانٍ تريد، سيناسبني المرحاض الصغير تمامًا، فهو صحيٌّ للغاية.» فقال مستر ديدالوس دون مواربة: «عليَّ اللعنة ... آه لو أعرف كيف تدخِّن مثل هذا التبغ المخيف، إنه شبيهٌ بالبارود وحق الإله.» فأجاب العجوز: «إنه لطيفٌ جدًّا يا سيمون، هادئٌ ومسكِّن.»

وعلى ذلك، أخذ العم تشارلس يختلف إلى مرحاضه الصغير كل صباح بعد أن يُلمِّع شعر قذاله[1] ويمشِّطه، ثم ينظف قبعته الطويلة ويرتديها. وحين ينهمك في التدخين، لا يبدو منه وراء باب المرحاض[2] غير حافة قبعته العالية وطرف غليونه. وكان قد تعوَّد أن يغنِّيَ في «خميلته»، وهو الاسم الذي أطلقه على المرحاض الصغير الذي يشارك فيه القطة وأدوات الحديقة. كان يُدندن صباح كل يوم في سعادة بإحدى أغانيه المفضلة مثل: «أوه ... ازرع لي خميلة»، أو «عيونٌ زرقاء وشعرٌ أصفر»، أو «أدغال بلارني». وترتفع في أثناء ذلك طيات الدخان الرمادية والزرقاء ببطءٍ من غليونه، وتختفي في ثنايا الهواء النقي.

وكان العم تشارلس رفيق ستيفن الدائم أثناء الشطر الأول من الصيف في «بلاك روك»، والعم تشارلس رجلٌ عجوزٌ قويٌّ أسمر البشرة جامد الأسارير، أبيض العارضَين، وكان قد اعتاد إنجاز بعض المهام بين المنزل الذي يقع في شارع «كاريسفورت» والمحلات

---

[1] قَذَاله ما بين الأُذُنَين من مؤخرة الرأس جماع مؤخرة الرأس.

[2] مرحاض: الكنيف، بيت الخلاء والنظافة، دورة المياه.

التي تتعامل معها العائلة في الشارع الرئيسي للمدينة، وقد سَعِد بصحبته في هذه الجولات؛ لأن العم كثيرًا ما كان يغترف له في سخاء من كل ما هو معروض في المحل في الصناديق والبراميل المفتوحة إلى جانب مائدة الصراف؛ فقد يحدث أن يُمسكَ بحفنة من العنب مختلطة بالنشارة، أو ثلاث تفاحات أو أربع، ويدسَّها بسخاء في يدِ ابنِ أخيه، في حين يبتسم البائع لذلك في قلق، وحين يتصنَّع ستيفن التردد في أخذها يعبس العم ويقول: «خذها يا بني؟ أتسمعني؟ إنها تُفيد معدتك». وحين يفرغان من شراءِ كلِّ ما تتضمنه القائمة، يذهبان إلى المتنزه حيث يجدان «مايك فلن»، وهو صديقٌ قديم لوالد ستيفن، جالسًا على أحد المقاعد ينتظرهما، وعند ذلك يبدأ ستيفن في الجري حول المتنزه، ويقف «مايك فلن» عند البوابة قريبًا من محطة السكة الحديدية، ممسكًا بالساعة في يده، ويجري ستيفن حول الحديقة بالطريقة التي يفضلها «مايك فلن»: الرأس إلى أعلى، والركبتان مشدودتان جيدًا، واليدان ملتصقتان بالجنبَين. وحينما ينتهي هذا التمرين الصباحي، يبدأ الممرن في سرد تعليقاته، ويعمد أحيانًا إلى تصوير ما يقوله فيسير بسرعة في حركات مضحكة ياردةً أو ياردتين، وفي قدمَيه زوجٌ من الأحذية المطاطية الزرقاء. ويتجمع أحيانًا بعض الصبية والمربيات يَرقُبْنه في دهشة، وقد يبقَون لمشاهدته عندما يجلس ثانيةً مع العم تشارلس يتناقشان في الرياضة والسياسة. ومع أن ستيفن قد سمع والده يقول إن مايك فلن قد أخرج بعضًا من أفضل رجال السباق من تحت يديه، إلا أنه غالبًا ما كان يتطلع إلى وجه ممرِّنه السمين المغطى بالقليل من الشعر، وقد انحنى فوق أصابعه الطويلة المتربة التي يلفُّ بها سيجارته، ويرمق في عطف عينَيه الوادعتَين المنطفئتَين، اللتين قد تتركان متابعةَ الأصابع حين تنتهي من لفِّ السيجارة، وتُحملقان بغموضٍ في الفضاء الأزرق، ويُعيد ما تبقَّى من أليفة التبغ إلى الكيس ثانيةً، وغالبًا ما يعرج العم تشارلس في زيارة للكنيسة في طريق العودة إلى المنزل. وكان الحوض الذي يحتوي على الماء المقدس عاليًا، فكان الرجل العجوز يدفع بقبضته إلى الماء وينثره برشاقة على ملابس ستيفن وعلى أرض الرواق. وحينما كان العمُّ يصلِّي كان يركع على منديله الأحمر ويتلو الصلاة بصوت منخفض من كتاب صغير أسود اللون، طُبعت الكلمات المهمة في ذيل كل صفحة منه لجذب الانتباه. وكان ستيفن يركع إلى جانبه احترامًا لورعِه، وإن كان لا يشاركه هذا الورع، وكثيرًا ما تساءل ستيفن متعجبًا لِمَ كان يصلِّي بكل هذا الخشوع، ربما كان يصلِّي للأرواح التي تعبر المطهر أو لكي يمنَّ الله عليه بنهاية سعيدة، أو ربما كانت صلاته لله عسى أن يردَّ إليه جزءًا من الثروة الضخمة التي بدَّدها في «كورك».

وفي يوم الأحد، يخرج ستيفن مع والدِه وعمِّه العجوز في تريُّضِهم المعتاد. وكان العجوز يسير في خفة على الرغم من الدمامل التي تملأ قدمَيه. وكانوا عادةً يقطعون عشرة أو اثنَي عشر ميلًا، وكانت قرية «ستيلورجان» تقع في مفترق الطرق، فكانوا يميلون إما إلى اليسار نحو جبال دبلن أو إلى طريق «جوتستون» ومنه إلى مدينة «دندرم»، ثم يعودون إلى المنزل عن طريق «ساندي فورد». وعندما يغذُّون الخُطَى على الطريق أو يقفون عند أحد المحلات العامة الكئيبة في الطريق، كان الكبار يتحدثون دومًا عن الموضوعات المحببة إلى قلوبهم، عن السياسة الأيرلندية، وعن «مانستر»[٣] وعن الأساطير الشائعة عن عائلتهم، وكان ستيفن يُصغي إلى هذه الأحاديث بأُذُن نهمة. وكان يُعيد الكلمات التي لا يفهمها مرارًا وتكرارًا حتى يحفظَها عن ظهر قلب، ويستشفَّ عن طريقها بعضَ لمحات الدنيا الحقيقية التي تحوطه. وبدا اليوم الذي سيتخذ فيه مكانه في حياة هذه الدنيا يقترب، وأخذ يستعدُّ خفيةً لتأدية الدور المهم الذي شعر أنه ينتظره، والذي لا يتفهم من طبيعته إلا أثرًا غامضًا.

وأما الأمسيات فكان حرًّا فيها، فينكب على قراءة نسخة ممزقة من ترجمة لرواية «الكونت دي مونت كريستو». وكانت شخصية هذا المنتقم الغامض تمثِّل في ذهنه رمزًا لكل شيءٍ غريب مرعب سَمِعه أو جال بخاطره. وفي الليل كان يبني على مائدة حجرة الاستقبال صورة لكهف الجزيرة الرائعة من أوراق صكوك المبيعات والزهور الصناعية، وورق اللفِّ الملون وشرائط الورق الذهبي والفضي الذي تُلَفُّ فيه الشيكولاتة. وحين كان يهدم ما بناه بعد أن يملَّ جماله الزائف، تخطر على باله صورة مرسيليا، والتكعيبات المشمسة، ومرسيدس بطلة الرواية، وعلى الطريق الذي يُفضي إلى الجبال خارج «بلاك روك»، يقع منزلٌ صغيرٌ أبيض اللون في الحديقة التي تغصُّ بها أشجار الورد، وقال لنفسه إن مرسيدس أخرى تسكن في هذا البيت. وكان يقيس المسافة في ذهابه وإيابه بهذه العلامة، وقد عاش في سلسلة طويلة من المغامرات يزدحم بها خياله، تبلغ في غرابتها مغامرات تلك الرواية، وكانت تنتهي بصورة له وقد أضحى أكبرَ سنًّا وأكثر رصانة، يقف في حديقةٍ يُضيئها القمر مع مرسيدس التي استهانَت بحبِّه سنين كثيرة من قبل، وهو يقول لها في حركة إباء حزينة ذات كبرياء: «إني لا آكل هذا النوع من الأعناب يا سيدتي.»

[٣] رواية فرنسية تأليف إسكندر ديماس الأب.

وصادق ولدًا يُدعَى «أوبري ميلز»، وكوَّن معه عصابةً للمغامرات في شارعهم. وكان أوبري يحمل صفارةً تتدلَّى من ثقبِ زرِّه ومصباحًا صغيرًا مشدودًا إلى حزامه، في حين حمل الآخرون عِصِيًّا قصيرة مشدودة إلى أحزمتهم على هيئة الخناجر. وقد اختار ستيفن — وكان قد قرأ عن طراز ملابس نابليون العادي — أن يظلَّ بدون رسميات، وقد ضاعف بذلك من مسرة استشارة الضباط له قبل إصدار الأمر. وكان أفراد العصابة يُغيرون على حدائق النسوة العجائز، أو يذهبون إلى القلعة ويتحاربون هناك على الصخور المغبرة التي تنمو عليها الأعشاب، ويعودون بعدها كالجوَّالين المتعبين، ورائحة الشاطئ العفنة تملأ خياشيمهم وأعشاب البحر في أيديهم وعلى شعرهم.

وكان البائع الذي يُحضر اللبن لعائلة أوبري وعائلة ستيفن واحدًا، وغالبًا ما كانَا يذهبان في عربته إلى «كاريكانيز» حيث الأبقار ترعَى بين الحشائش. وبينما الرجال منهمكون في حلب اللبن، يركب الأولاد الفرس الصغير كلٌّ بدوره حول الحقل، ولكن الأبقار دخلت حظائرها مع مقدم الخريف، وأصبح منظر فناء البقر القذر عند «ستراد بروك» المليء بالبِرَك الخضراء القبيحة، والروث السائل المتخثر وأجران النخالة ذات البخار، يملأ فؤاد ستيفن بالأسى. أصبحت هذه الأبقار التي كانت تبدو في الريف غايةً في الجمال في الأيام المشمسة، تُثير تقزُّزَه لدرجةٍ لا يحتمل معها النظر إلى اللبن الذي تدرُّه.

ولم يُزعجه قدوم سبتمبر هذه السنة، فلم يكن سيذهب ثانيةً إلى كلونجوز. وتوقفت التمرينات التي كان يؤديها في الحديقة عندما ذهب «مايك فلن» إلى المستشفى، أما أوبري فكان مشغولًا في مدرسته، وليس له من فراغٍ إلا ساعة أو ساعتين عند المساء؛ لذلك فقد تفرَّقت العصابة، ولم تَعُد هناك أيُّ غارات في المساء أو معارك فوق الصخور.

وكان ستيفن يركب العربة التي تُحضر اللبن في بعض الأحيان. وقد أزالت هذه النزهات الباردة ذكريات فناء البقر القذر، ولم يشعر بأيِّ تقزز عند مرأى شعر الأبقار والتبن المتناثر على معطف اللبَّان، وحينما تتوقف العربة أمام أيِّ منزلٍ، كان ينتظر حتى يلمح مطبخ المنزل المصقول أو الردهة الخافتة الأنوار، ولكي يُلاحظ الطريقة التي تحمل بها الخادمة الجرة والتي تغلق بها الباب. وجال بخاطره أن الرحلة بالعربة كل مساء لتوزيع اللبن حياة جميلة، لو كان لديه قفازات دافئة وكميات كبيرة من حبات الزنجبيل في جيبه يأكل منها أثناء الطريق. ولكن ذلك الإرهاص الذي أسقم فؤاده والذي جعل ساقَيه تنحنيان فجأة وهو يجري حول الحديقة، وهذا الإحساس نفسه الذي جعله ينظر في ريبة إلى وجه مدرِّبه السمين المغطَّى بالقش، حين كان ينحني على أصابعه الطويلة

الملوَّثة، كلُّ هذا بدَّد كلَّ رؤى خطرَت له عن المستقبل، وقد شعر بطريقة مبهمة أن والده يعاني بعض المتاعب، وأن هذا هو سبب عدم عودته إلى مدرسة كلونجوز، كما كان يشعر أحيانًا بتغيير طفيف في منزله. وكانت هذه التغييرات التي حدثت في الأشياء التي يؤمن بثباتها تُمثل صدمات صغيرة لمفهومه الصبياني للدنيا. ولم يكن الطموح الذي يشعر به أحيانًا في ظلمات روحه يسعى إلى إيجاد منفذ له. وأفعم ذهنه بظلام مثل الذي يملأ العالم الخارجي، عند سماعه وقْعَ حوافر الحصان التي تضجُّ عبر طريق العربة العامة على طريق «روك»، والعلبة الصفيحية الضخمة تتأرجح مجلجلة خلفه. وعاد بذهنه إلى مرسيدس، وزحف قلقٌ غريبٌ على دمائه حين كان يعكف على صورتها، وأحيانًا، كانت تدفعه حمَّى عنيفة لأن يطوف وحيدًا في المساء عبر الطريق الساكن. وكان هدوء الحدائق والأنوار العطوفة في النوافذ تصبُّ الرقة في قلبه المضطرب. وضايقته ضجةُ الأولاد وهم يمرحون، ودفعَته أصواتهم لأن يشعر — بأكثر حدة عمَّا كان يشعر في كلونجوز — أنه يختلف كثيرَ الاختلاف عن الآخرين. لم يكن اللهو هو ما يرغب فيه، بل كان يريد أن يصادف في العالم الواقعي الصورة المجسدة للبطلة مرسيدس التي طالما تاقت إليها روحه. ولم يكن يعرف المكان أو الطريقة التي ينشد بهما هذه الصورة، ولكن أنبأه شعورٌ داخليٌّ أنها ستصادفه دون أن يفعل شيئًا من جانبه. سوف يتقابلان في هدوء كأنما يعرف أحدهما الآخر منذ مدة طويلة. وقد يحدث ذلك عند واحدة من هذه البوابات، أو في مكانٍ آخر أكثر سرية. سيكونان وحدهما يحيط بهما الظلام والسكون، وسوف تعمل الرقة العلْوية على تغييره في هذه اللحظة، سيتحوَّل تحت تأثير عينَيها إلى شيء غير محسوس، ثم يتغير كليةً في لحظة واحدة، سيُفارقه الضعف والخوف والسذاجة في هذه اللحظة السحرية.

توقَّفت قافلة العربات الصفراء، ذات صباح أمام الباب، ودخل الحمَّالون إلى المنزل لينقلوا الأثاث، وأخرجوا الأثاث عبر الحديقة الأمامية التي انتشرت فيها أكوام القش وأطراف الحبال، ووضعوه في العربات الضخمة الرابضة إلى جانب البوابة. وعندما تم ترتيبُ كلِّ شيء تحرَّكت العربات إلى الطريق في ضجة شديدة. وشاهد ستيفن هذه العربات تتثاقل عن طريق «الريون» من نافذة عربة القطار التي جلس فيها مع أمِّه دامعة العينَين.

لم تُشعل النار في ذلك المساء، وأسند مستر ديدالوس المحرِّك على قضبان سياج المدفأة الحديدية حتى يتمَّ الاشتعال، وأخلد العم تشارلس إلى النعاس في ركن من أركان الغرفة ذات الأثاث الثقيل والخالية من الأبسطة، وصورة العائلة مسندة إلى الجدار على مقربة منه،

وألقى ضوء المصباح من فوق المنضدة نورًا واهنًا على الأرض الخشبية المغطَّاة بالوحل الذي تخلف عن أقدام الحمَّالين. وجلس ستيفن على مقعد بجوار والده، يُنصت إلى حديث طويل مفكك، لم يفهم منه في البداية إلا القليل أو لم يفهم شيئًا على الإطلاق، ولكنه بدأ يُدرك تدريجيًّا أن لوالده أعداء، وسيقع شجارٌ بينه وبينهم. وشعر أيضًا أنه سينضمُّ إلى مثل هذا الشجار، وأن بعض واجب قد أُلقيَ على كاهله. ونفث تحوُّله عن الراحة والنعيم في «بلاك روك»، وطوافه خلال المدينة المقبضة المغطاة بالضباب، وتفكيره في المنزل العاري الكئيب الذي سيشعر فيه الآن، نفث كل ذلك الكآبة والحزن في قلبه، ومرةً أخرى انتابه شعورٌ داخليٌّ بما ستكون عليه الأيام المقبلة. فَهِم كذلك سرَّ تهامُس الخدم معًا في الردهة، وسبب وقوف والده على سياج المدفأة موليًا ظهرَه إلى النار، وهو يتحدَّث بصوت مرتفع مع العم تشارلس، الذي كان يحثُّه على الجلوس لتناول غدائه. وقال مستر ديدالوس الأب وهو يحرِّك النار في نشاط: «ما زال في نفسي بقية يا ستيفن، لم نَمُتْ بعدُ يا بني العزيز، كلَّا، وبحق السيد المسيح (وليغفر لي الله) لم نقترب حتى من الموت.»

وكانت دبلن بالنسبة له إحساسًا جديدًا مُعقدًا. كانت السنون قد أثقلَت على العم تشارلس، حتى لم يَعُد قادرًا على الخروج لشراء ما يحتاجون إليه من الخارج. وأتاحَت ضجةُ الانتقال إلى المنزل الجديد لستيفن حريةً أكبر مما كانت له في «بلاك روك»، وقنع في البداية بالتجوال في حذر حول الميدان المجاور لمنزلهم، أو بالسير حتى منتصف شارع جانبي على الأكثر. ولكن حين رسم في ذهنه خريطة للمدينة الجديدة، اخترق شارعًا من شوارعها الرئيسية انتهى به إلى مبنى الجمرك. ومضى يسير بين المرافئ والموانئ متعجبًا من كثرة قطع الفلين التي تهتز وتتأرجح على صفحة المياه يُحيطها الزبد الأصفر الثقيل، ومن جموع حمَّالي الميناء وضجة العربات ورجل البوليس الملتحي ذي الملابس غير المناسبة. وأيقظت الحياة العريضة الغريبة التي أوحَتها إليه بالات البضائع التي رُصَّت تجاه الجدار أو أُلقيت بعيدًا عن البواخر، أيقظَت مرةً أخرى في نفسه ذلك القلق الذي بعث به جائلًا في المساء من حديقة إلى حديقة بحثًا عن مرسيدس.

وأحيانًا ما يحدث وسط هذا الجو الصاخب أن يتخيل نفسه في مرسيليا التي جاء ذكرُها في الرواية، لولا أنه كان يفتقد السماء الساطعة وتكعيبات العنب التي تغمرها الشمس. وحين تطلع إلى الموانئ والبحر والسماوات الخفيضة، نما في نفسه شعورٌ غامضٌ بالسخط، ومع ذلك فقد واصل تجواله هنا وهناك يومًا بعد يومٍ كأنما ينشد شخصًا يراوغه.

وذهب مرةً أو مرتين مع والدته لزيارة بعض أقاربه. ومرًّا في الطريق ببعض المحلات الجميلة، التي أُضيئت وزُيِّنت احتفالًا بعيد الميلاد. ورغم ذلك لم تُفارقه نوبةُ الصمت المرير. وكانت هناك أسبابٌ كثيرة لهذه المرارة التي يشعر بها، أسبابٌ بعيدة عنه وأخرى متعلقة به، كان يشعر بالسخط على نفسه لاستسلامه لبعض الدوافع القلقة التافهة وهو في هذه السن، ساخطًا كذلك على تغيُّرات الأحوال التي تُشكِّل العالم من حوله إلى رؤًى من القذارة والخيانة. ومع كل هذا، فلم يغيِّر سخطُه شيئًا من هذه الرؤى. ودأب على تسجيل ما يراه حوله في صبر، مُبقيًا ذاته على مبعدة، ومتذوقًا نكهتَه المميتة خفية.

كان يجلس ذات مرة على مقعد المطبخ الصغير بمنزل عمته، وكان هناك مصباحٌ ذو طاسة مُعلَّقًا على جدار المدفأة ذات الطلاء اللامع، وعمَّتُه تقرأ على ضوئه صحيفةَ المساء، وقد أسندتها إلى ركبتَيها، وشخصَت ببصرها مدةً طويلة إلى صورة باسمة في الصحيفة، وقالت في تأمُّل: «مابل هنتر الجميلة».

ووقفت فتاةٌ مصفوفة الشعر على أطراف أصابعها لتنظر إلى الصورة، وقالت في رقة: أتقف في وسط الطين؟

– إنها في مشهدٍ تمثيليٍّ صامتٍ يا عزيزتي.

وأحنَت الطفلةُ رأسَها المصفَّف الشعر على كُمِّ أمها، وهي تُحملق في الصورة، وتَمْتمت مخلوبة اللب: «مابل هنتر الجميلة».

واستقرَّ بصرُها طويلًا على هاتين العينين الرصينتَين الزاجرتَين، وتَمْتمت في حرارة: يا لَها من مخلوقة بديعة!

وسَمِع كلماتِها الصبيُّ القادم من الطريق حاملًا كيس الفحم، فأنزل حمْلَه على الأرض وهرع إلى جانبها ليرى، فأتلف أطراف الصحيفة بأصابعه الملونة بالأحمر والأسود، وأخذ يُزيح الفتاة شاكيًا أنه لا يرى شيئًا. ومرةً أخرى، كان جالسًا في حجرة الطعام الضيقة، في أعلى المنزل القديم ذي النوافذ المعتمة، والنيران الواهنة تُلقي ظلالها على الجدران، بينما تتجمع عتمة كثيفة على النهر عبر النافذة. وانهمكَت سيدةٌ عجوز في عمل الشاي أمام النار، وقصَّت أثناء انهماكها في العمل ما قاله الطبيب والقس على حالتها في صوتٍ خفيض، وعن تغيُّرات لاحظَها عليها مؤخَّرًا وعلى أحوالها وأقوالها الغريبة، وجلس يُنصت إلى كلامها ويتتبَّع في خياله مسارب المغامرات المفتوحة أمامه على أكوام الفحم وعلى القناطر، وفي السراديب وبين الأروقة المتعرجة وفي الكهوف المثلومة.

وشعر فجأةً بوجودِ شخصٍ أمام مدخل الباب، وظهر رأسٌ تُغلفه الغبشةُ التي تُهيمن على المدخل. وكانت هناك مخلوقة شبيهة بالقردة، أقبلت على هدى الأصوات التي تتحدث أمام النار. وانطلق صوتٌ من عند الباب يقول: أهذه جوزفين؟

فأجابت المرأة المشغولة أمام النار في مرح: كلَّا يا إيلين، إنه ستيفن.

– أوه ... أوه ... مساء الخير يا ستيفن.

فردَّ التحية، ولمحَ بسمةً بلهاءَ على الوجه الذي يقف أمام الباب.

وعادت المرأة العجوز تسأل: أتريدين شيئًا يا إيلين؟

ولكنها لم تردَّ على السؤال، وقالت: «لقد ظننت أنها جوزفين، لقد ظننتك جوزيفين يا ستيفن.» وأخذت تُردد ذلك مراتٍ عديدةً، ثم أخذَت تضحك في وهن.

ومرة أخرى كان يجلس وسطَ حفلٍ للأطفال في «هارولد كروس»، وقد ازدادَت طبيعتُه الصامتة اليقظة حدَّةً، حتى إنه لم يشترك في أيٍّ من الألعاب. وكان الأولاد يرقصون ويمرحون هنا وهناك، حاملين عليهم آثار ما تبقَّى من ألعابهم النارية. ورغم أنه حاول أن يشاركهم جذلهم، فقد شعر بنفسه شخصًا كئيبًا وسط القبعات وأغطية الرأس المرحة.

ولكنه بدأ يشعر بمتعة الوحدة بعد أن أدى أغنيته في الحفل، وتراجع إلى ركن الغرفة المنزوي، وفَعَل المرح فعل النسمات الهادئة فيه، بعد أن بدَا له في الحفل زائفًا تافهًا، وعبر حواسه في بهجة، ساترًا عن أعين الآخرين فورة دمائه الشديدة التي تنتابه حين تُمطر نظراتها من خلال حلقات الراقصين والموسيقى والضحك إلى ركنه المنزوي، محذرةً مداهنة منقبة مثيرة فؤاده.

وفي نهاية الحفل، وقف الأطفال الذين بقوا في الردهة يرتدون ملابسهم، وألقَت هي بوشاحٍ على كتفَيها، ثم ذهبَا سويًّا إلى العربة العامة، ورذاذ من أنفاسها الطيبة الحارة يتطاير في جذلٍ أمام رأسها المدثر، بينما يدق حذاؤها في سعادة على الطريق المغطى بالجليد. واستقلَّا العربة العامة الأخيرة في هذه الليلة، وكأنما عرفت الجياد العجفاء الداكنة ذلك، فأخذَت تهزُّ أجراسها في تلك الليلة الصافية تنبيهًا للناس. وكان الكمساري يتحدث مع السائق، ويُومِئان برأسَيهما مرارًا على ضوء المصباح الأخضر. وانتشرت بعض أوراق التذاكر الملوَّنة على مقاعد العربة الخالية، وتلاشَى كلُّ صوتٍ على الطريق، ولم يقطع سكونَ الليل شيءٌ إلا حين تحكُّ الجياد أنوفها بأنوف بعضها البعض فتهتزُّ أجراسها لذلك.

وبدَا عليهما الإنصاتُ للأجراس، وهو يقف على الدرجة العليا، وهي على السفلى، وصَعِدت إلى درجته مرات عديدة، وعادَت إلى درجتها ثانيةً حين كانا يتبادلان الحديث.

ووقفت مرةً أو مرتين بجواره في الدرجة العليا بضعَ لحظات ناسيةً أن تنزل، ثم تهبط ثانية. ورقص فؤاده لمشهد حركاتها كما تتراقص قطعة الفلين على الموج، وسمع ما تقوله له عيناها من وراء أجفانها، وأدرك أنه سمع ما تقولانه قبل ذلك في ماضٍ سحيقٍ في الحياة أو في الخيال، ورآها تستعرض فتنتَها؛ رداءَها الجميل، ووشاحَ زينتها، وجواربها السوداء الطويلة، وأدرك أنه استسلم لها آلاف المرات، ومع ذلك كان صوتٌ داخل نفسه يتحدث حديثًا يعلو على ضجة فؤاده الراقص مسائلًا إياه: أيأخذ هديتها؟ وما كان عليه إلا أن يمدَّ ذراعه ليأخذها. وتذكَّر يوم وقف هو وإيلين في فناء الفندق، يراقبان الندل يرفعان أعلامًا على سارية من الخشب، بينما كلبٌ من كلاب الصيد يجري مذعورًا هنا وهناك على الحشائش المشمسة، وكيف أنها انفجرت فجأةً في نوبةٍ من الضحك، وجرَت تهبط على منحنى الممر، بينما وقف هو بلا حراك في مكانه — كما هو الآن — شاخصًا في هدوءٍ لما يجري أمامه. وجالَ بخاطره أنها تريده أن يحتضنها أيضًا؛ ولهذا جاءت معه إلى العربة، «إنَّ باستطاعتي أن أُمسك بها بسهولة حين تأتي نحوي، ولا أحد يرانا، إنَّ باستطاعتي أن أُمسك بها وأقبِّلها».

ولكنه لم يفعل شيئًا، وحين جلس وحيدًا في العربة المهجورة، مزَّق تذكرتَه إلى قِطَع صغيرة، وحملق في وجومٍ في أرضية العربة المغضنة.

وجلس في اليوم التالي إلى مائدة الغرفة العارية عدة ساعات، وقد وضع أمامه قلمًا جديدًا وزجاجةً من الحبر ودفترَ تمرينات جديدًا، وكتب في أعلى الصفحة الأولى — بدافع العادة — الحروفَ الأولى لشعار طائفة الجزويت:

«أ. م. ع»،[٤] وظهر عنوان القصيدة التي كان يُعالج كتابتها عند أول سطر من الصفحة: إلى إ. ك،[٥] وكان يعلم أن هذه هي البداية الصحيحة، فقد شاهد عناوين كثيرة مشابهة في ديوان شعر اللورد بايرون. وبعد أن كتب هذا العنوان ووضع تحته خطًّا، استغرق في أحلام يقظته وأخذ يرسم خطوطًا على غلاف الدفتر. تراءى لنفسه جالسًا على المائدة في «براي» صبيحة النقاش الذي حدث في يوم عيد الميلاد على الغداء، وهو يحاول أن يكتب قصيدةً عن «بارنل» على ظهر إحدى مفكرات والده. ولكن ذهنه رفض حينذاك

[٤] «إلى مجد الله العظيم»، وهو شعار جماعة الجزويت المسيحية.

[٥] إمَّا كليري، الفتاة التي يحبُّها ستيفن.

أن يُعالجَ هذا الموضوع، وحين توقَّف عن الكتابة، غطَّى الصفحة بأسماء وعناوين بعض زملائه المعينين:

- رودريك كيكام.
- جون لوثون.
- أنتوني ماكسويني.
- سيمون مونان.

والآن، يبدو أنه سيفشل مرةً أخرى في الكتابة، ولكن تركيز الفكر على الحادثة التي يريد الكتابة عنها جعله يشعر بثقةٍ أشدَّ، وأبعد عن ذهنه خلال تلك العملية العناصر التي اعتبرها عادية عديمة الأهمية، ولم يَعُد هناك أثرٌ للعربة العامة نفسها أو رجال العربة أو الجياد، بل ولم يَعُد هو أو هي يظهران في وضوح، فدارَت القصيدة التي كتبها حول الليل والنسمة اللطيفة وضياء القمر الوضاء. كان يكمن شجنٌ مبهم في فؤادَي بطلَي قصيدتِه؛ إذ هما يقفان في صمتٍ تحت الأشجار الجرداء. وحين حانت لحظة وداعهما وتبادلَا قبلةً كان أحدهما يمانع فيها من قبل. وبعد ذلك كتب الحروف: ح. ل. د.[٦] في أسفل الصفحة. وبعد أن أخفى الدفتر مضى إلى حجرةِ أمِّه، وحدَّق في وجهه في المرآة مدةً طويلة.

ولكن زمن فراغه وحريته كان يدنو من نهايته؛ ففي أحد الأيام عاد والده إلى المنزل مُحمَّلًا بكثير من الأخبار، شغله الحديث عنها أثناء الأكل.

وكان ستيفن ينتظر عودة والده؛ فقد كان الطعام لحمًا مفرومًا هذا اليوم، وسيسمح له والده بأن يأكل من الصلصة، ولكنه لم يستطعم مذاقَ اللحم؛ لأن ذكرى مدرسة كلونجوز ملأَت أطباقَه بزبدٍ من الاستياء.

قال مستر ديدالوس للمرة الرابعة: لقد مضيتُ إليه رأسًا عند ركن الميدان.

فقالت مسز ديدالوس: أعتقد أنه سيتمكن من ترتيب موضوع مدرسة بلفدير.

فقال مستر ديدالوس: سيتمكن من ذلك بالطبع، ألم أُخبرك أنه أصبح راعي الجزويت الآن؟

وقالت مسز ديدالوس: إني لم أسترح قط لفكرة إرساله إلى مدارس الإخوة المسيحيين.

---

[٦] عبارة «الحمد لله دائمًا».

فقال مستر ديدالوس: لعنهم الله! أيذهب مع «بادي ستنك» و«ميكي مد»، كلَّا، فليبقَ مع الجزويت ما دام قد بدأ معهم، فسوف ينفعونه في السنوات المقبلة، فبإمكانهم أن يُهيئوا له عملًا.

– وهم أغنياء جدًّا، أليس كذلك يا سيمون؟

– نوعًا ما، إنهم يعيشون عيشةً طيبة، لقد رأيت مائدتهم في كلونجوز، إنهم يهتمون بالتغذية بحق الإله، مثل ديوك القتال.

ودفع مستر ديدالوس بطبقه إلى ستيفن، ودعاه إلى التهام ما فيه من طعام، وقال: والآن يا ستيفن، يجب أن تعود إلى العمل يا عزيزي، فقد حصلتَ على إجازة طويلة حقًّا!

وقالت مسز ديدالوس: أوه … إني واثقةٌ أنه سيعمل باجتهاد شديد، خصوصًا حين يجد أخاه موريس معه.

فقال مستر ديدالوس: أوه، بحق القديس بول، لقد نسيت موريس، تعال هنا يا موريس، أيها المشاكس الغبي، أتعرف أنني سأبعث بك إلى المدرسة حين يعلمونك هجاء ق– ط– ه قطه، وسوف أشتري لك منديلًا صغيرًا لطيفًا كي تُجفف به أنفك، أليس هذا جميلًا؟

فابتسم موريس لوالده ثم لأخيه.

وثبت مستر ديدالوس نظارته على عينيه، وحدَّق النظر في ولديه، ومضغ ستيفن طعامه دون أن يُجيب على نظرات والده.

وقال مستر ديدالوس آخر الأمر: وبالمناسبة، لقد حدثني المدير — أو هو الراعي على وجه الدقة — عن قصتك مع الأب دولان، يا لَك من وقح.

فقالت مسز ديدالوس: كلَّا، لم يَقُل ذلك حقًّا يا سيمون؟

فقال المستر ديدالوس: كلَّا، كلَّا، ولكنه قصَّ عليَّ تفاصيل الموضوع، لقد كنَّا نتجاذب أطراف الحديث، والحديث ذو شجون، وعلى فكرة، أتدرين ماذا قال لي عمن سيحصل على وظيفة الهيئة؟ ولكني سأخبرك عن ذلك فيما بعد. حسنًا، فكما كنت أقول، كنَّا جالسين نتحادث في ودٍّ، وسألني عمَّا إذا كان الصديق الصغير ما زال يرتدي النظارات، ثم أخبرني بالقصة كلها.

– وهل كان مستاءً يا سيمون؟

– مستاء؟ كلَّا، لقد نعتَه بالرجل الصغير.

وقلَّد مستر ديدالوس النغمة الأنفية التي يتحدث بها راعي المدرسة، وهو يقول على لسانه: «وحين أخبرت المدرسين بهذه القصة وقت الغداء، ضحكت والأب دولان كثيرًا عليها،

وقالت له: من الأفضل أن تُراعيَ الحذر أيها الأب دولان، وإلا فإن ديدالوس الصغير سيتسبب في عقابك، لقد ضحكنا كثيرًا على هذا، ها ها ها»، ثم تحوَّل المستر ديدالوس إلى زوجته، وقال ملاحظًا في صوته الطبيعي: «وهذا يُريك الروح التي يعاملون بها الأطفال هناك، آه ... يا لَلحياة التي يعيشونها، حياة دبلوماسية». ثم قلَّد صوت راعي المدرسة مرةً ثانية، وهو يردِّد: «لقد أخبرت المدرسين بهذه القصة وقت الغداء، وقد ضحكت وضحكنا كلنا على هذا، ها ها ها».

وحانت الليلة التي سيمثِّلون فيها تمثيلية عيد العنصرة، وتطلع ستيفن في نافذة غرفة تغيير الملابس إلى الممر الصغير، المغطى بالحشائش التي تمتد على جانبَيه صفوف المصابيح الصينية، وشاهد الزوار يهبطون درجات المبنى الرئيسي، ويتجهون عبر الممر إلى المسرح. وكان الخدم في ملابس السهرة، وخريجو المدرسة الكبار يتجمعون أمام مدخل المسرح في جماعات، ويستقبلون الزوار في حفاوة. وتمكن من رؤية وجه أحد القسس، وهو يضحك على ضوء توهُّج أحد المصابيح المفاجئ.

وكانوا قد أزاحوا القربان المقدس من على الهيكل، وأرجعوا بعض المقاعد الأمامية إلى الخلف، بحيث تُركت منصة المذبح الأولى وما قبلها خالية. وكانت هناك مجموعةٌ من العصيِّ الرياضية بجانب الجدار، كما رُصَّت أثقال التمرينات في أحد الجوانب، ووسط أكوام لا تُحصى من لفائف الأحذية والقمصان والفانلات الرياضية، كان حصان القفز المغطى بالجلد يقف منتظرًا دوره ليُحمل إلى المنصة، ويستقر بين الفريق الفائز في نهاية العرض الرياضي.

ومع أن ستيفن كان قد انتُخب سكرتيرًا للنشاط الرياضي، إعجابًا بمهارته في ميدان كتابة المقالات، إلا أنه لم يكن سيشترك في العرض الرياضي الذي سيجري في البداية، ولكنه سيشترك في المسرحية التي ستُقدم بعد ذلك، والتي سيمثِّل فيها الدور الرئيسي وهو دور المدرِّس الهزلي. وقد اختير لهذا الدور اعتبارًا لتكوينه الجسماني وسلوكه الرزين؛ فقد كان الآن في نهاية سنته الثانية في مدرسة بلفدير، وفي الصف الثاني بها.

وهبط عددٌ من الأولاد يرتدون البنطلونات القصيرة والفانلات من على المنصة في صخب، وساروا خلال الممر وفي ردهة الكنيسة، وكانتا مليئتين بالأولاد والمدرِّسين المتلهفين. وكان مدرِّس الألعاب السمين الأصلع يختبر بقدمه منطقةَ القفز في الحصان الخشبي. وجلس شابٌّ نحيفٌ يرتدي معطفًا طويلًا يراقب ما يجري عن كثب، وكان عليه أن يؤدي

عرضًا خاصًّا بالعصا الرياضية التي كانت تطلُّ من فتحة جيب بنطلونه. وحين كان فريق آخر يستعد للصعود إلى المنصة، كانت تُسمَع أصوات ارتطام أدوات التمرين الخشبية بعضها بالبعض الآخر.

وبعد لحظة كان المشرف المتحمس يدفع أمامه الأولاد خلال الممر كقطيع من الإوَز، وهو يهز أطراف ردائه في عصبية ويصيح ليحث المتكاسلين على الإسراع. وكانت جماعةٌ ممن يمثِّلون فلاحي «النابوليتان» يتمرنون على مشيتهم المعروفة في آخر القاعة، بينما يحوط البعض رءوسهم بأذرعتهم، ويهز البعض سلال الزهور الصناعية وينحنون في احترام. وكانت هناك سيدة عجوز تركع في ثوب فضفاض أسود في ركن القاعة المظلم شمال المكان الذي يوضع فيه الكتاب المقدس على المذبح. وحين نهضت السيدة بدَت في رداء أحمر، ولها شعر صناعي وأشقر معقوص وقبعة قديمة الطراز من القش، وحاجبان أسودان خُطِّطا بالقلم: وخدَّان عليهما قليلٌ من الطلاء والبودرة. وسرَت همهمة عجب خفيضة في القاعة عند اكتشاف هذه الشخصية النسائية. واقترب أحد العريفين وهو يبتسم ويُحني رأسه من الركن المظلم، وقال للسيدة العجوز في بشاشة بعد أن حياها: «ما هذا الذي معك يا مسز تالون، أهي شابة صغيرة جميلة أم لعبة؟» ثم صاح في دهشة بعد أن انحنى ورأى الوجه الباسم ذا الطلاء: «كلَّا! بحق السماء، إنه الصغير «برتي تالون».»

وسمع ستيفن من مكانه بجانب النافذة صوتَ السيدة العجوز التي يُمثِّلها برتي وهي تضحك مع العريف، وسمع كذلك من ورائه همسات الإعجاب تصدر عن الأولاد، وهم يتقدمون ليرى الصبي الصغير، الذي كان عليه أن يؤديَ رقصة القبعة بمفرده، وصدرت رغمًا عنه حركةٌ تعبِّر عن نفاد الصبر، فترك حافة الشيش تسقط، وهبط الدرج الذي كان يقف فوقه وخرج من القاعة.

وذهب خارج مبنى المدرسة ثم توقَّف في الظل الذي كان يغمر الحديقة. ومن قاعة المسرح المواجهة ارتفعت أصوات ضجة النظارة، وبعض الأصوات النحاسية المفاجئة من المجموعة التي تمثِّل الجنود. وكان الضوء يَبِين من أعلى سقف المسرح الزجاجي، مما جعل المسرح يبدو كالسفينة المزدانة وهي تُلقي مراسيَها أمام المنازل، وتقودها مصابيحُها الواهنة إلى مرساها. وفُتح بابٌ جانبي في المسرح فجأةً وسطع خيطٌ من النور على الحشائش، وصدر عن السفينة عزفٌ موسيقي مفاجئ، مقدمة فالس، وحين أُغلق الباب الجانبي مرةً أخرى كان صوت الموسيقى الواهن مسموعًا على الرغم من ذلك. وأثارت العاطفةُ التي تحملها المقطوعات الافتتاحية وحركتها البطيئة المرنة في نفسه انفعالًا لا يمكن التعبير

عنه، ذلك الانفعال الذي كان سببَ ضيقه طوال اليوم، وسبب مغادرته المسرح منذ دقائق مضَت، وانبعث الضيق منه كموجات صوت. وعلى أمواج الموسيقى السارية كانت تسبح السفينة تاركةً وراءها أنوار مصابيحها، ثم قطعَت الحركةَ الموسيقية ضجةٌ تُماثل ضجة المدفعية الصغيرة، انبعثت من التصفيق الذي استقبل به النظارةُ فريقَ حمل الأثقال على المسرح.

وظهرت في الظلمة نقطةٌ من الضياء الأحمر عند نهاية المبنى الملحق قرب الطريق، وحين توجَّه ناحيتها اشتمَّ رائحةَ عطر فوَّاح واهنة. كان صبيَّان يقفان عند ناصية أحد أبواب المنازل يدخنان، وقبل أن يَصِل إليهما، عرف «هارون» من صوته.

وصاح صوتٌ عالٍ غليظ: ها هو ديدالوس العظيم! مرحبًا بصديقنا الصدوق! وانتهى هذا الترحيب بضحكة ناعمة صفراء بعد أن صافحه هيرون، ثم أخذ ينكش الأرض بعصاه، فقال ستيفن وقد توقَّف وأخذ يردِّد الطرف بين هيرون وصاحبه: «ها أنا ذا».

ولم يكن يعرف الشخص الآخر، ولكنه عرف منه على ضوء طرفَي السيجارتَين المشتعلتَين في الظلام وجهًا شاحبًا مرفهًا تَنُوس عليه الابتسامة، وجسمًا طويلًا يرتدي معطفًا سميكًا وقبعةً صلبة، ولم يُكلِّف هيرون نفسه عناءَ تقديم ستيفن لصديقه، بل قال بدلًا من ذلك: لقد كنت أحدِّث صديقي «واليس» عن المتعة التي سنشعر بها لو أنك قلَّدت مدير المدرسة في دور الناظر الذي ستمثِّله الليلة. سيكون ذلك طرفة جميلة ممتعة. وقام هيرون بمحاولة فاشلة لتقليد صوت المدير الخشن المدعي أمام صديقه، ثم سأل ستيفن وهو يضحك من فشله أن يقوم هو بذلك، وحثَّه قائلًا: هيَّا يا ديدالوس، إن بإمكانك تقليده في دقة، وهو يقول: مَن لا يطيع أوامر الكنيسة يكون بالنسبة لك وثنيًّا حقيرًا.

وصدرت من «واليس» الذي التصقَت السيجارة بشفتَيه عبارةُ غضب هادئة قطعَت على زميله التقليد، وقال: «لعن الله هذا المبسم»، وأخرجه من فمه وهو يتأمله بابتسام ثم بعبوس وأضاف: «إنه يلتصق دائمًا هكذا، أتستعمل المبسم؟»

فردَّ ستيفن: أنا لا أدخن.

فقال هيرون: كلَّا، إن ديدالوس شابٌّ مثاليٌّ، إنه لا يدخن ولا يذهب للهو ولا يغازل، ولا يسبُّ أيَّ شيء أو كلَّ شيء.

وهزَّ ستيفن رأسه وابتسم في وجه خصمه المتورِّد المتغير بفمه الذي يُشبه منقار الطير. وكان قد فكَّر في مرةٍ سابقة في غرابة الشبه بين وجهِ هيرون ووجه الطيور وفي

الاسم أيضًا،[٧] وكانت خُصلةٌ باهتة من الشعر تُشبه خُصلةَ الأسد تتدلَّى على جبهته. وكانت جمجمتُه ضيقةً ضامرة، وأنفُه رفيعًا معقوفًا بين عينَيه المتقاربتَين الجامدتَين. وكان هذان الخصمان زميلَيه في الدراسة، وكانوا معًا في الفصل ويصلُّون معًا في الكنيسة، ويتحادثون معًا على مائدة الطعام. ولما كان تلاميذ الصف الأول جميعًا من البُلَداء الكُسالى، كان ستيفن وهيرون طوال العام قائدَي الفصل الحقيقيِّين؛ فهما اللذان يذهبان إلى مدير المدرسة معًا ليطلبَا يوم إجازة للمدرسة، أو لطلب العفو عن أحد التلاميذ. وقال هيرون فجأة: على فكرة، لقد شاهدت والدك يدخل المسرح.

واختفت الابتسامة من على وجه ستيفن؛ فقد كان هدوءُه ينقلب ثورةً في لحظة واحدة عند أي إشارة إلى والده سواء من التلاميذ أو الأساتذة. وانتظر في صمت وخشية ما سيقوله هيرون بعد ذلك. ولكن هيرون لكزَه بكوعه بحركة ذات مغزى، وقال: إنك لجروٌ مخادعٌ.

فقال ستيفن: لماذا؟

فقال هيرون: تظن أن بإمكانك إخفاء الأمر عن الجميع، ولكني أؤكد لك أنك جروٌ مخادعٌ.

فقال ستيفن في وداعة: هل لي أن أسألَك عمَّ تتكلم؟

فردَّ هيرون: طبعًا يحقُّ لك هذا ... لقد رأيناها، أليس كذلك يا واليس؟ ويا لَها من جميلة فاتنة، وكثيرة السؤال. قال والدك: وأيَّ دورٍ سيلعب ستيفن يا مستر ديدالوس؟ ألن يغنِّيَ ستيفن يا مستر ديدالوس؟ وكان والدك يُحدِّق فيها بشدة من وراء نظارته حتى ظننتُ أنه قد اكتشف أمرك هو الآخر. لو كنت مكانك لما كان ذلك يهمني على الإطلاق، فهي فاتنةٌ مدهشةٌ، أليس كذلك يا واليس؟

وطافَت لمحةُ غضب على ذهن ستيفن لتلك التلميحات التي تُقال على مسمعٍ من أحد الغرباء، الذين لا يهمُّهم أن يسمعوا عن اهتمام فتاة به. وكان ستيفن لا يفكر طيلة اليوم إلا في اللحظة التي افترقَا فيها في العربة العامة عند «هارولد كروس»، والعواطف المتفرقة التي أثارها ذلك في نفسه، والقصيدة التي كتبها عن ذلك الموقف. وظل يتخيل مقابلةً أخرى معها؛ فقد كان يعرف أنها ستحضر المسرحية. وجاش ذلك القلق القديم في صدره مرةً أخرى، مثلما حدث له ليلة السهرة الفائتة، ولكنه لم يجد متنفسًا له هذه المرة في الشعر.

[٧] كلمة Heron تعني الطائر «مالك الحزين».

كان يفصل بين هذين الحدثَين سنتان من النضج والمعرفة، سنتان تقفان في وجه مثل هذا المتنفس. وكان ينبثق هذا التيار من الرقة الحزينة في نفسه طيلة اليوم، وينعكس عليها في مدٍّ وجزر، مما آلمَ نفسَه إلى أن اضطرَّته رقةُ المشرف والولد الصغير المتنكر إلى الخروج بعد أن نفد صبرُه.

ومضى هيرون في قوله: ولذلك يجب عليك أن تعترف أننا قد كشفنا أمرَك تمامًا هذا المرة، ولن تستطيع أن تتظاهر أمامي مرةً أخرى بأنك قديس، وأراهن على ذلك.

وضحك بعد ذلك ضحكةً خالية من البهجة، ثم انثنى كما كان أولًا وضرب ستيفن بعصاه في خفة على باطن ساقه، كأنما يوبِّخه مازحًا.

وكان غضب ستيفن قد تبخَّر فعلًا، ولم يكن قد اغترَّ بما قيل أو اهتزَّ، غير أنه رغب لهذا الموقف أن ينتهيَ. ولم يكد يشعر بالغضب إزاء ما بدا له من فظاظتهما الحمقاء؛ فقد كان يعلم جيدًا أن مغامرته مع الفتاة كانت ماثلةً في ذهنه بلا خطر عليها من هذه الكلمات، وانعكست على وجهه ابتسامةُ خصمه المزيفة.

وكرر هيرون، وهو يُعاود ضربه بعصاه على باطن ساقه: «اعترف». وكانت ضربته مزاحًا أيضًا، ولكنها كانت أشدَّ من الضربة الأولى.

وشعر ستيفن بجلده يتوهج قليلًا دون أن يشعر بألم، ثم انحنى في طواعيةٍ وأخذ يتلو صيغة «الاعتراف»، كأنما يُجاري مزاج صاحبَيه في المزاح. وانتهى الموقف على خير؛ فقد أغرق هارون وواليس في الضحك من هذه الاستهانة بالمقدسات، ولم يصدر الاعتراف إلا من بين شفتَي ستيفن فقط. وحين كانوا يتبادلون هذا الحديث المشار إليه، انتقل ذهن ستيفن بفعل ذكرى سابقة إلى مكان آخر، حين شاهد الغمازَين القاسيَين الواهنَين على جانبَي شفتَي هارون الباسمتَين، وحين شعر بضربة عصاه على باطن ساقه، وحين سمع كلمة التحذير المألوفة: اعترف.

وقعَت هذه الحادثة السابقة التي عادت إلى ذاكرته الآن، عند نهاية الفصل الأول في المدرسة حين كان في الصف السادس. كانت طبيعته المرهفة ما زالت ترزح قلقةً تحت مظاهر دبلن السقيمة، وقد وجد نفسه بعد سنتين من الاستغراق في الفكر في وسط محيط جديد، حيث تُؤثر كلُّ حادثة وكلُّ شخص في نفسه إلى حدٍّ بعيد، ويثقل عليه بالمغريات أو يجذبه بها، ويملأ نفسه دومًا بتيارات القلق والأفكار المريرة في الحالتين، وكان يُمضي وقت الفراغ الذي تسمح له به حياته المدرسية في صحبة مؤلفين هدَّامين، كان عنفهم وجموحهم في الكتابة يُضرم النيران في عقله قبل أن يخرج منه على شكل كتابات فجة.

وكان يعتبر المقال الذي يكتبه هو حصيلة الأسبوع، وكان يتنبَّأ كل ثلاثاء أثناء ذهابه إلى المدرسة بما يقع حوله في الطريق، أو يُحفز نفسه ليلحق بشخص يسير أمامه قبل مرور مدة معينة، أو يخطو بقدمَيه في حذرٍ على الطريق وهو يقول لنفسه هل سيكون الأول في المقال الأسبوعي أو لا يكون.

وفي أحد هذه الأيام، انقطع حبلُ انتصاراته فجأة، فقد أشار المستر «تيت» أستاذ اللغة بإصبعه إليه، وقال بخشونة: مقالة هذا الفتى بها هرطقةٌ دينية:

وساد السكونُ الفصل، ولم يقطعه مستر تيت بل دسَّ يدَه بين ساقَيه، بينما أحدثَت ملابسُه الكتانية المنشَّاة صريرًا عند الرقبة والرسغين. ولم ينظر ستيفن إليه. كان صباح يوم من أول أيام الربيع، وكانت عيناه لا تزالان ضعيفتَين متوجعتَين. كان يشعر بالفشل والإحباط، بقذارة ذهنه وقذارة بيته، وشعر بحافة ياقته المقلوبة الناتئة على رقبته.

وأعادت ضحكةٌ عالية قصيرة من مستر تيت بعض الراحة إلى الفصل. قال: ربما لم تعرف ذلك.

وسأل ستيفن: أين؟

وسحب مستر تيت يدَه المتسربة ونشر المقالة بين يديه.

– هنا ... عن الخالق والروح ... إر إر إر ... آه ... «دون أي إمكانية للاقتراب أكثر». هذه هرطقة.

وتمتم ستيفن: إنما عنيتُ «دون أي إمكانية للوصول».

كان هذا تسليمًا. وطوى المستر تيت المقال بعد أن هدأ وناولها له، وهو يقول: آه ... للوصول ... هذا شيءٌ آخر.

ولكن الفصل لم يهدأ بهذه السرعة، ورغم أن أحدًا لم يُحادثه في الموضوع بعد الحصة، إلا أنه كان يستشعر فرحًا خبيثًا عامًّا غامضًا يضطرم من حوله.

وبعد ليالٍ قليلةٍ من هذا التأنيث العلني، كان يسير حاملًا خطابًا عبر طريق «درو مكوندرا» حين سَمِع صوتًا يهتف به: «قف».

والتفتَ فرأى ثلاثة طلاب من صفِّه الدراسي قادمين نحوه في الظلمة. كان هيرون هو الذي صاح به، يسير بين اثنين من مُرافقيه وهو يشقُّ الهواء أمامه بعصًا رفيعة شقًّا ينتظم مع خطواتهم. وكان «بولاند» صديقه يسير إلى جواره وقد ارتسمت ابتسامةٌ واسعة على وجهه، بينما «ناش» على بُعْد خطواتٍ خلفهما ينهج من المشي ويحرِّك رأسه الأحمر الضخم.

ولما انعطف الأولاد إلى طريق «كلونليف» معًا بدءوا في الحديث عن الكتب والمؤلفين، وأخذوا يذكرون الكتب التي كانوا يقرءونها، وكم من الكتب تحوي مكتبات آبائهم في منازلهم. واستمع ستيفن إليهم في عجب؛ فواحدٌ منهم — بولاند — كان بطيء الفهم، وآخر— ناش — كسول الفصل. وبعد شيء من الحديث عن مؤلفيهم المفضلين، أعلن ناش أن «الكابتن ماريات» هو أعظم الكتب.

فقال هيرون: هراء، اسأل ديدالوس ... مَن هو أعظم كاتب يا ديدالوس؟

ولمس ستيفن نبرةَ السخرية في السؤال، وقال: تعني من بين كُتَّاب النثر؟

– أجل.

– أعتقد أنه نيومان.

فسأل بولاند: أهو الكاردينال نيومان؟

فردَّ ستيفن: أجل.

وازدادت البسمةُ اتساعًا على وجه ناش المليء بالنمش، حين تحوَّل إلى ستيفن وهو يقول: وهل تحب الكاردينال نيومان يا ديدالوس؟

وقال هيرون لرفيقَيه الآخرَين موضحًا: أوه ... يقول الكثيرون إن نيومان يمتلك ناصيةَ أفضل أسلوب نثري، وبالطبع فهو ليس بشاعر.

وسأل بولاند: ومَن هو أحسن شاعر يا هيرون؟

وردَّ هيرون: اللورد تينسون بالطبع.

فقال ناش: آه ... أجل، اللورد تيسنون، لدينا ديوان أشعاره في مجلد واحد بالمنزل.

وعند ذلك نَسِي ستيفن اليمينَ الصامتة التي كان يُرددها، وانفجر قائلًا: تينسون شاعر! ما هو إلا مجردُ ناظمِ قوافٍ.

فقال هيرون: ما هذا؟ الجميع يعرفون أن تينسون هو أعظم شاعر.

فردَّ ستيفن: بايرون طبعًا.

واشترك الرفاق الثلاثة في ضحكة ازدراء بدأها هيرون.

وسأل ستيفن: علامَ تضحكون؟

فقال هيرون: منك. بايرون أعظم شاعر! إنه شاعر الجهال ليس إلا.

وقال بولاند: لا بد وأنه شاعرٌ لطيفٌ.

فقال ستيفن وهو يتحول إليه في جرأة: عليك أن تُغلق فمك. إن كل ما تعرفونه عن الشعر ما تكتبونه على الألواح في الفناء وتعاقبونه من أجله.

وفي الحقيقة، كان قد قيل إن بولاند قد كتب على ألواح الفناء الفقرة التالية، عن أحد زملاءِ صفِّه كان معتادًا على العودة إلى المنزل على حصان صغير:

بينما كان تايسون يركب قاصدًا أورشليم،
سقط وأصاب بطنَه الألمُ المقيم.

وقد أفحمَت المرافقين هذه الوخزة، ولكن هيرون استمر في كلامه:

– وعلى كل حال، كان بايرون هرطاقًا وخليعًا كذلك.

وصاح ستيفن بحرارة: لا أهمية عندي لما كان عليه.

وقال ناش: ألَا يهمُّك إذا كان هرطاقًا أم لا؟

فصاح ستيفن: وماذا تعلم أنت عن هذا الموضوع؟ إنك لم تقرأ في حياتك سطرًا من الشعر عدا الترجمات، وكذلك بولاند.

فقال بولاند: إنني أعرف أن بايرون كان رجلًا سيئًا.

وصاح هيرون: إليك، أمسكا هذا الهرطاق.

وفي لحظة كان ستيفن سجينًا.

وواصل هيرون كلامه: لقد أزعجك تيت ذلك اليوم بشأن الهرطقة التي كانت في مقالك.

فقال بولاند: سأقول له غدًا.

فقال ستيفن: هل ستقول له حقًّا؟ ستخاف أن تفتح فمك.

– أخاف؟

– نعم تخاف على حياتك.

فقال هيرون وهو يلطم ساقَي ستيفن بعصاه: «احترم نفسك.»

وكانت إشارة الهجوم، فقيَّد ناش ذراعَيه من الخلف بينما أمسك بولاند ساقًا من سيقان نبات القرنبيط طويلة كانت ملقاةً في قناة المجاري. وقاوم ستيفن، وركل بقدميه خلال ضربات العصا ولطمات الساق المعقودة، حتى ارتكز على سور من الأسلاك الشائكة.

– اعترف أن بايرون لم يكن طيبًا.

– كلا.

– اعترف.

– كلا.

– اعترف.

– كلا، كلا.

وأخيرًا بعد عدة دفعات، خلص بنفسه حرًّا.

وتوجَّه معذِّبوه ناحيةَ طريق جونز ضاحكين يسخرون منه، بينما تعثَّر هو وقد أعمَته دموعه، مُلوِّحًا بقبضتَيه في جنون وهو ينشج باكيًا.

وبينما هو لا يزال يُردد صيغة «الاعتراف» خلال انهماك سامعيه في الضحك، وبينما كانت مناظر هذه الأحدوثة المريرة لا تزال تترى في حدة وسرعة على ذهنه، تساءل لِمَ لا يحمل أي ضغينة لهؤلاء الذين عذبوه. لم ينسَ أبدًا ذرَّة من جُبْنهم وقسوتهم، غير أن ذكرى ذلك المشهد لم تَعُد تبعث فيه أي غضب. وعلى ذلك، تبدَّت له أوصاف الحب والكُرْه العميقَين التي قرأ عنها في الكتب غير حقيقية. وحتى في تلك الليلة التي تلمَّس فيها الطريق إلى بيته متعثرًا عبر طريق «جونز»، شعر أن هناك قوة تنزع عنه بسهولة ذلك الغضب الذي نسج فيه خيوطه فجأة، مثلما تُنزع القشرة عن الثمرة اللينة الناضجة.

وظل واقفًا مع رفيقَيه عند نهاية المبنى الملحق يستمعون في كسلٍ إلى حديثهم أو إلى انفجارات التصفيق في المدرج. وكانت هي تجلس هناك مع الآخرين وربما تنتظر ظهوره. وحاول أن يستعيد منظرَها ولكنه لم يستطع. لم يستطع سوى أن يتذكَّر أنها ارتدَت وشاحًا حول رأسها كالقلنسوة، وأن عينَيها السوداوَين قد دعتَاه وأوهنتَا من عزمه. وتساءل هل تفكر فيه كما يفكر فيها. وفي الظلمة، في غفلةٍ عن الاثنين الآخرين، أراح أطراف أصابع يده على راحة يده الأخرى في خفة وهو لا يكاد يلمسُها. غير أن ضغطَ أصابعها كان أخفَّ وأكثر انتظامًا. وفجأة، تخلَّلت ذكرى لمساتها عقلَه وجسده كالموجة الخفيفة.

وأقبل صبيٌّ يجري نحوهم في المبنى الملحق. كان مضطربًا لاهثَ الأنفاس.

صاح: آه يا ديدالوس، إن دويل في مأزق عظيم بسببك. عليك أن تذهب فورًا وترتديَ ملابس التمثيل. يحسن بك أن تُسرع.

فقال هارون للرسول بالتفاتةٍ متعالية: سيأتي حالًا، حين يريد ذلك.

فالتفت الصبيُّ إلى هيرون وردَّد: ولكن دويل في مأزق عظيم.

فردَّ هيرون: هل لك أن تُخبرَ دويل مع عظيم تحياتي أنني أصبُّ اللعناتِ عليك.

فقال ستيفن الذي لم يكن يهتمُّ كثيرًا بمسائل الكرامة هذه: حسنًا، إنَّ عليَّ أن أذهب الآن.

فقال هيرون: لو كنتُ مكانك لما ذهبت، عليَّ اللعنة لو كنتُ أذهب. ليست هذه بالطريقة التي يجب أن يستدعيَ بها طلبةَ الصفوف العليا. في مأزقٍ ... حقًّا، أعتقد أنه يكفيه أن تُشارك في تمثيليَّته القديمة السخيفة.

ولم تُغرِ ستيفن روحُ الزمالة المشاغبة التي لاحظها مؤخرًا في غريمه بالخروج على ما تعوَّده من الطاعة الهادئة. ولم يَثِق في هرج هذه الزمالة ومرجِها وتشكَّك في إخلاصها، تلك الزمالة التي تبدَّت له إرهاصًا مؤسفًا لطَور الرجولة. وكانت مسألة الكرامة التي أُثيرت هنا — ككل المسائل المشابهة — تافهة بالنسبة له. وبينما كان ذهنه يتابع خيالاته الخفية، ويتحول في ترددٍ عن هذه المتابعة، سمع من حوله أصواتَ أبيه وأساتذته يحثُّونه على أن يكون جنتلمانًا فوق كل شيء، ويحثونه على أن يكون كاثوليكيًّا طيِّبًا فوق كل شيء. وبدَت هذه الأصوات جوفاء في أُذُنَيه الآن. وحين افتتحَت صالة الرياضة سَمِع صوتًا آخر يحثُّه أن يكون قويًّا، ورجلًا مكتمل الصحة، وحين بدأ الإحساس بحركة اليقظة القومية في المدرسة أمره صوتٌ آخرُ أن يكون مخلصًا لبلده ويساعد على رفعِ راية لغتها وتقاليدها. وكما تنبَّأ هو؛ ففي مثل هذا العالم الدنيوي، يمكن أن يأمرَه صوتٌ دنيويٌّ أن يساهم بعمله على الارتفاع بحالة والده المنهارة. وفي الوقت نفسه، يحثُّه صوتُ رفاق المدرسة أن يكون فتى دمثًا، يحمي الآخرين من اللوم أو يتوسط من أجلهم، ويبذل جهده للحصول على إجازات للمدرسة. وقد أدى طنينُ كلِّ هذه الأصوات الجوفاء به إلى أن يتوقف في ترددٍ عن متابعةِ هذه النداءات. كان يُنصت لها فترة ما كان يسعد إلا حين يكون قصيًّا عنها، بعيدًا عن متناولها، وحيدًا أو في صحبة رفاقه الوهميِّين.

وفي غرفة الملابس، وجد جزويتيًّا سمينًا نديَّ الوجه مع رجلٍ متقدمٍ في السن، يرتدي ملابس زرقاء رثة، غارقين في العمل بعلبة من الطلاء والطباشير. وكان الأولاد الذين طُليت وجوههم بالمساحيق يسيرون هنا وهناك، أو يقفون ساكنين في حرج، يتلمَّسون وجوههم بطريقة حذرة بأطراف أصابعهم المسترقة. وفي وسط حجرة الملابس، وقف جزويتيٌّ شابٌّ — وكان في زيارةٍ للمدرسة آنذاك — وهو يهزُّ نفسه في إيقاع منتظم على أطراف أصابع قدميه حتى الكعبين وبالعكس، وبينما انعقدَت يداه نحو الأمام داخل جيوبه الجانبية. وكان رأسه الصغير متوَّجًا بخُصلاتٍ حمراءَ لامعةٍ من الشَّعر، ووجهه الحليق يتوافق مع رقة ثوبه الكهنوتي الناصعة وحذائه اللامع.

وبينما كان ستيفن يرقب هيئته المهتزة ويحاول أن يقرأ ما ترمز له ابتسامةُ القس الساخرة في نفسه، طاف بذاكرته قولٌ سَمِعه من والده قبل أن يُرسلوا به إلى كلونجوز، يذكر أنه يمكن تمييز الجزويتي من طراز ملابسه. واعتقد في الوقت نفسه أنه يرى مشابهةً بين عقلية والده وعقلية هذا القس الباسم الحسن الملبس، وأحسَّ أن في ذلك تدنيسًا لحرمة

وظيفة القس أو لحجرة الملابس ذاتها، التي انتهى سكونُها الآن وضجَّت بالحديث وبالمزاح، وعَبِق هواؤها بروائح الدهن وغاز المشاعل.

وبينما كان الكهل يرسم التجاعيد على جبهته، ويُضيف الألوان السوداء والزرقاء على فكَّيه، أنصت ستيفن في شرود إلى صوت الشاب الجزويتي السمين، وكان يطلب منه أن يتكلم ويُخرج المقاطع في وضوح. وكان يسمع الفرقة تلعب لحنَ «زنبقة كيلارني»، وأدرك أن الستار سوف يرتفع بعد لحظات قليلة. ولم يشعر برهبة المسرح ولكنه شعر بالمهانة من الدور الذي كان عليه أن يلعبه، ودفع ذكر بعض سطوره بالدم فجأةً إلى وجنتَيه الملطختَين بالمساحيق، ورأى عينَيها الجادَّتَين المغريتَين ترقبانِه من بين النظارة. وأزاحَت صورتُهما شكوكَه على الفور، وخلفتا إرادته وقد تماسكت. وبدا كما لو أن طبيعةً أخرى غير طبيعته قد أعارَته نفسها، وأثر حماس الشباب من حوله في خشيته المتقلبة وغيرها. وبدا في لحظة واحدة نادرة كما لو اشتمله مظهرُ الطفولة الحقيقي. وبينما كان يقف وراء الكواليس مع غيره من الممثلين، شارك في المرح الذي ساد الجميع، حيث رفع قسَّان قويَّان الستارَ بعد أن قامَا بانحناءات واهتزازات عنفية.

وما هي إلا لحظات قليلة حتى وجد نفسه فوق خشبة المسرح وسط الأضواء الزاهية والديكورات المعتمة، يمثِّل أمام فراغ من وجوه عديدة، وأدهشه أن يرى التمثيلية التي كانت في البروفات شيئًا متفككًا لا حياة فيه، قد اتخذت فجأةً حياةً خاصةً بها، وبدَت الآن كما لو أنها تمثِّل نفسها بنفسها، وما هو ورفاقه سوى مساعدين لها بأدوارهم. وحين أسدل الستار على المنظر الأخير سمع الفراغ يضجُّ بالتصفيق، ورأى من خلال شقِّ الكواليس الجسم البسيط، الذي مثَّل أمامه وهو يتشوه بطريقة سحرية، وفراغ الوجوه يتكسر في جميع الأنحاء وينشطر إلى جماعات لها ما يشغلها.

وغادر خشبة المسرح بسرعة وخلَّص نفسه من ملابس التمثيل، وعبَرَ الكنيسة الصغيرة إلى حديقة المدرسة، والآن وقد انتهت التمثيلية تصرخ أعصابُه طلبًا لمخاطرة أخرى، وأسرع في طريقه كأنما ليلحق بها. كانت أبواب المسرح قد فُتحت وخرج النظارة منها. وفي الممرات، كان يتخيل مرسى السفن عليها، وقد علقَت بعض القناديل في نسمة الليل، تهتزُّ شعلتها في وجوه. واعتلى درج الحديقة في عجلة حريصًا على ألَّا تفلتَ منه إحدى الضحايا، وشقَّ طريقَه خلال زحام الردهة، واجتاز الجزويتيَّين اللذين وقفا يرقبان الخروج، وينحنيان ويشدَّان على أيدي الزوار. وتقدَّم إلى الأمام في عصبية متظاهرًا بالعجلة، وهو لا يكاد يشعر بالبسمات والتطلعات واللمزات، التي يُثيرها منظرُ رأسه المغطَّى بالبودرة في طريقه.

وحين خرج إلى السلَّم وجد أسرته بانتظاره عند أول مصباح. ولاحظ في لمحةٍ أن وجهَ كلِّ فرد فيهم كان مألوفًا لديه. وجرى على الدرج في غضب وقال لوالده بسرعة: عليَّ أن أُنجزَ مهمةً في شارع جورج، وسوف أعود للبيت بعدكم.

وجرى عبر الطريق دون أن ينتظر سؤال والده، وبدأ يهبط التلَّ في سرعة قاتلة، كان لا يكاد يعرف أين يسير. كانت الكبرياء والأمل والرغبة تُرسل بضباب البخور المثير للأعشاب المسحوقة إلى فؤاده أمام بصيرة عقله. حثَّ خطاه يهبط التل وسط ضجة الأبخرة التي تصاعدت فجأة، أبخرة الكبرياء الجريحة والأمل المحطوم والرغبة الباطلة. تصاعدَت سابحةً أمامه، أمام عينَيه الجزعتين في دخان كثيف مثير. ومرَّت أمامه إلى أن صفا الهواء وبرد مرةً ثانيةً في النهاية.

وظل ستارٌ يحجب عينَيه، ولكنهما لم يعودَا يحترقان، ومنحَت قوةٌ ما الراحةَ لخطواته، قوة شبيهة بتلك التي كانت دومًا تنفض عنه ثياب الغضب والضيق. وتوقَّف ساكنًا وتطلَّع إلى رواق مبنى المشرحة المظلم، ومنه إلى الدرب المظلم المرصوف في الجانب. وقرأ كلمة «مسدود» على جدار الدرب، وتنفَّس الهواء الثقيل العطن في بطء. وفكر: هذه بقايا الجياد والقش العطب، إنها رائحةٌ طيبة أتنفَّسها، وستُهدئ من قلبي، إن قلبي هادئ تمامًا الآن، سأعود أدراجي.

جلس ستيفن مرةً أخرى إلى جوار والده في ركن عربة قطار في «كنجز بروج». كان مسافرًا مع والده في قطار المساء إلى «كورك». وحين زفر القطار دخانه وهو يغادر المطحة تذكَّر دهشتَه الصبيانية منذ سنين خلت، وكل واقعة من وقائع أول أيامه في «كلونجوز»، ولكنه لم يشعر بأي دهشة الآن. ورأى الأرض المعتمة تنزلق أمامه، وأعمدة التغلراف الصامتة تمرُّ في سرعةٍ أمام نافذته كل أربع ثوانٍ، والمحطات الصغيرة المضيئة يُديرها قليلٌ من الحراس الصامتين، ويُلقي بها القطار من ورائه وهي تلمع لحظةً في الظلمة مثل حباتٍ مشتعلةٍ يُلقيها أحدُ المتسابقين خلفه.

واستمع في فتورٍ إلى حكايات والده عن «كورك» وعن مراتع شبابه فيها، يتخلَّلها تنهدات أو جرعات من القنينة التي يحملها في جيبه، كلما ظهرت في القصة صورةُ أحد أصدقائه الذين ماتوا، أو حينما يتذكَّر فجأةً الغرضَ من زيارته الحالية للمدينة، واستمع ستيفن ولكنه لم يشعر بأي مشاركة وجدانية. كانت صور الموتى جميعًا غريبةً لديه ما عدا صورة العم تشارلس، وهي صورة كادت تَذْوِي من الذاكرة في المدة الأخيرة، وعلى الرغم

من ذلك عرف أن أملاك والده ستُباع في المزاد، وشعر بالدنيا تُكذِّب أحلامه في خشونة حين تُجرِّده هو أيضًا مما يمتلكه.

واستسلم للنعاس عند «ماري بوره». وحين استيقظ كان القطار قد خرج من «مالو»، وقد نام والده متمددًا على المقعد الآخر. كان نور الفجر البارد يرقد على البلدة، على الحقول الخالية من الناس وعلى الأكواخ المغلقة، وفتَنَ النومُ المرعب عقلَه، وهو يراقب البلدة الصامتة أو يُنصت من وقت إلى آخر لزفرات والده العميقة أو حركات نومه الفجائية!

وغمره جوارُ النائمين غير المرئيِّين بخشية غريبة، كما لو كان بإمكانهم إيذاؤه، وصلَّى لكي يطلع النهار سريعًا. وبدأ صلاته التي لم يُوجهها إلى الله أو إلى أحد القديسين برعدة؛ إذ زحفت نسمة الصباح الباردة من خلال صدع باب المركبة إلى قدميه، وأنهاها بسلسلة من الكلمات الحمقاء ابتدعها لتُوافق إيقاع القطار الملح. وفي صمتٍ كانت أعمدة البرق «تُمسك بالوحدة» لأنغام الموسيقى الراكضة المنتظمة كلَّ أربع ثوانٍ. وخففت هذه الموسيقى العنيفة من خشيته، وإذ انحنى مستندًا على إفريز النافذة، ترك جفونه تنغلق ثانيةً، ودخلوا إلى «كورك» في غمضة عين، بينما كان الصباح لمَّا يزل في مطلعه، وأتم ستيفن نومَه في إحدى غُرَف النوم بفندق فيكتوريا. وكان ضوء الشمس الدافئ اللامع يتدفق من خلال النافذة، وكان باستطاعته سماع ضجة المرور. كان والده يقف أمام التسريحة، يتفحص شعره ووجهه وشاربه بعناية شديدة، ويمدُّ رقبته عبر قارورة الماء ويسحبها ثانيةً من الجانب حتى يتمكن من رؤيةٍ أفضل. وبينما هو يفعل ذلك كان يغنِّي لنفسه في رقةٍ وبلكنةٍ وتعبيرٍ غريبَين:

الشباب والبله،
يدفع الشباب للزواج؛
ولذلك لن أبقى هنا
بعد الآن يا حبيبتي،
وما لا يمكن علاجه طبعًا،
لا بد من بتره طبعًا؛
ولهذا سأرحل
إلى أمريكا.
حبيبتي جميلة،
حبيبتي جميلة؛

كالحمرة الجيدة،
حين تكون جديدة،
ولكن، حين تكون عتيقة،
وحين تكون باردة،
فإنها تذوي وتموت؛
مثل ندى الجبال.

وقد ساعد الإحساسُ بالمدينة الدافئة المشمسة في الخارج، والارتجافات الحانية التي كان صوتُ أبيه يُوشي بها الهواء الغريب الهانئ، ساعد على تبديد سُحُب مزاج الليل الكئيب من عقل ستيفن. ونهض بسرعةٍ ليرتديَ ملابسه، وقال حين انتهت الأغنية: هذه الأغنية أحسن أغانيك الأخرى من نوع «تعالوا جميعًا».

فسأل مستر ديدالوس: أتظن ذلك؟

فقال ستيفن: إني أحبها.

فقال مستر ديدالوس وهو يعقص أطراف شاربه: إنها نشيدٌ قديمٌ لطيفٌ. آه، ولكن كان ينبغي عليك أن تسمع «ميك لاسي» وهو يغنِّيها. «ميك لاسي» المسكين! كانت له حيلٌ صغيرة وأنغامٌ رقيقة يُوشيها بها، لا أتمكن أنا من أدائها. كان هو الفتى الذي يصلح لأداء إحدى أغاني «تعالوا جميعًا» إن كنت تحب ذلك.

وأمر مستر ديدالوس بأطباق الطعام للإفطار، واستفهم خلال الأكل من النادل بدقةٍ عن الأخبار المحلية. وحين كان يذكر اسمًا من الأسماء، كان يحدث في كلامهما نوعٌ من الخلط؛ إذ كان النادل يقصد به الشخص الذي يحمل الاسم حاليًّا، بينما يقصد مستر ديدالوس أبا هذا الشخص أو ربما جده.

قال مستر ديدالوس: حسنًا، آمل ألَّا يكونوا قد غيروا مكان مدرسة الملكة؛ لأنني أريد أن أريَها لصغيري هذا.

وكانت الأشجار مزهرة على طول طريق «ماردايك»، ودخلَا إلى المدرسة، وقادهما البواب الثرثار عبر زاويتها الرباعية، ولكن كان يُوقف مسيرتهما على الفسيفساء ردٌّ من البواب بعد كل دستة من الخطوات.

– آه ... ماذا تقول؟ وهل مات «بوتل بيلي» المسكين؟

– أجل يا سيدي، مات يا سيدي.

وخلال هذه التوقفات، كان ستيفن يقف في حرج خلف الرجلين، متعبًا من هذا الموضوع، ينتظر في قلقٍ أن يبدأ السير ثانيةً، وفي الوقت الذي عبروا فيه الزاوية الرباعية، كان قلقه قد تحوَّل إلى حمَّى، وعجب كيف أن والده الذي عرَفه رجلًا مدققًا فطنًا قد خدعَته وسائل البواب الوضيعة، كما أصبحت اللهجة الجنوبية الحية، التي عملت على تسليته طول الصباح تُضايق سمْعَه الآن.

ودخلوا إلى مدرج التشريح حيث جال مستر ديدالوس — يساعده البواب — بحثًا عن حروف اسمه الأولى على المدرجات. وبقيَ ستيفن في الخلفية، وقد أحزنه أكثر ما أحزنه ظلمة المدرج وسكونه، وما حمله من مظهر الدراسة المضنية الجامدة. وقرأ كلمة «جنين» منقوشة عدة مرات على الخشب الأسود الملطخ بأحد المدرجات. وأيقظ الرمز المفاجئ دماءه، وبدا كما لو أنه يشعر بطلبة المدرسة الغائبين من حوله، وهو يجفل من صحبتهم. وبعثت الكلمة المنقوشة على المدرج أمامه رؤية كاملة عن حياتهم، رؤية عجزت كلمات والده أن تبعثها فيه. كان طالبٌ عريض المنكبين ذو شارب ينقش حروف الكلمة في جدٍّ بمديةٍ، بينما وقف طلبةٌ آخرون أو جلسوا بالقرب منه يضحكون من عمله. ولكز واحدٌ منهم مرفقه فالتفت الطالب الكبير نحوه عابسًا، كان يرتدي ملابس فضفاضة وحذاء ذا رقبة لوَّحته الشمس.

ونودي اسم ستيفن، وجرى هابطًا سُلَّم المدرج، حتى يبعد ما وسعه من هذه الرؤية، يرمق الحروف الأولى من اسم والده عن كثَب، ويُخفي وجهَه المتوهج.

ولكن الكلمة والرؤية قفزتا أمام عينَيه، وهو يسير عائدًا عبر الزاوية الرباعية وتجاه بوابة المدرسة. وصُدم إذ وجد في العالم الخارجي أثرًا مما كان قد اعتبره حتى ذلك الوقت مرضًا جامحًا فرديًّا يختصُّ به تفكيره، وتدافعَت أحلامُ نهاره المروعة على ذاكرته، أثارت هذه الكلمات المجردة تلك الأحلام أمامه فجأةً في عنفٍ مرةً أخرى، وفتح لها الباب في الحال، وسمح لها أن تجتاحَ تفكيره وتحطَّ منه، وهو يتعجب دائمًا من أين أتت هذه الأحلام، من أيِّ كهفٍ من الصور المروعة. وكان يبدو دائمًا حين تغمره هذه الأحلام ضعيفًا ذليلًا مع الآخرين، وقلقًا سقيمًا مع نفسه.

وصاح مستر ديدالوس: آه يا إلهي ... هذه هي البقالة بالتأكيد. طالما سمعتني أتحدَّث عن البقالة، أليس كذلك يا ستيفن، طالما ذهبنا إلى هناك بعد أن نُوقع أسماءنا، جماعة منا: هاري بيرد وجاك مونتن الصغير وبوبي دياس، وميك لاسي الذي حدثتُك عنه هذا الصباح وجوي كوربت، وجوني كيفرز المسكين الصغير طيب القلب من «تانتيل».

واهتزَّت أوراق الأشجار على طول طريق ماردايك وهمسَت في ضوء الشمس. ومرَّت جماعة من لاعبي الكريكت، رجالٌ رشيقون في ملابس فانلة وبيلزر، ويحمل واحدٌ منهم الحقيبة الداخلية الخضراء الطويلة. وفي أحد الشوارع الجانبية الهادئة، كانت تقف فرقة ألمانية من خمسة عازفين يرتدون يونيفورمًا كالحًا، ويعزفون بآلاتهم النحاسية الهادئة أمام نظارة مكونة من بعض الأعراب وصبيان المحلات الكسالى. وكانت خادمةٌ في غطاء رأس أبيض وميدعة[٨] بيضاء تُروي أصصَ النباتات في إحدى الشرفات، وكانت تلتمع كلوحٍ من حجر الجير تحت الوهج الدافئ. وجاءه صوت بيانو من إحدى النوافذ المفتوحة، يرتفع طبقة إثر طبقة حتى أعلى الطبقات الموسيقية.

وسار ستيفن إلى جوار والده، يستمع إلى قصص سبق له الاستماع إليها، ويستمع مرةً أخرى لأسماء المعربدين ممن كانوا ندماء والده، ثم تفرقوا أو ماتوا. وتصاعد سقمٌ واهٍ إلى فؤاده، واستدعى لذاكرته موقفه المبهم في بلفدير، ولدًا حرًّا، قائدًا يخاف من سلطته ذاتها، مزهوًّا، حسَّاسًا، متشككًا، يصارع قذارة حياته ومتاعب ذهنه. وتطلَّعت إليه الحروف المنقوشة على خشب المدرج الأسود الملطخ، ساخرةً من ضعفه الجسماني وحماساته العديمة الجدوى، باعثةً احتقاره لنفسه على قصفه القذر الجنوبي. وازداد لعابُ حلقه مرارةً ودنسًا عند الازدراء، وصَعِد السقمُ الواهن إلى عقله، فأغلق عينَيه لحظةً ومضى في سيره في الظلمة.

وكان ما يزال يسمع صوت والده:

– حين تخرج إلى الدنيا يا ستيفن، كما سيحدث حتمًا يومًا من الأيام، تذكَّر مهما فعلت ألَّا تختلط إلا بالمهذبين، لقد استمتعتُ بحياتي حين كنت في مثل سنِّك، اختلطتُ برفاقٍ مهذبين دمثين. وكان كلُّ واحد منَّا يستطيع القيام بشيء ما، فواحدٌ له صوتٌ جميلٌ، وآخر ممثلٌ جيدٌ، والثالث باستطاعته أداء أغنية هزلية طيبة، وآخر مجذفٌ ماهرٌ أو لاعبٌ ماهرٌ بالكرة والمضرب، وغيره يقصُّ قصصًا جميلةً، وهكذا … لم نُضِع دقيقةً واحدةً من عمرنا، واستمتعنا بوقتنا وعرفنا الحياة جيدًا. ولم يُسِئ ذلك إلينا بأي حال، ولكنا كنَّا جميعًا من الرجال المهذبين يا ستيفن، أو على الأقل — أعتقد ذلك — وأيرلنديين طيبين شرفاء أيضًا. هذا هو نوع الرفاق الذي أريدك أن ترتبط بهم، رفاق من النوع السليم. إني أتحدث إليك

[٨] مِيدَعة: ثوب غير ذي كمَّين، ثوب مُتبدل.

كصديق يا ستيفن، فأنت ممن يؤمنون بأن الابن يجب أن يخاف أباه، كلَّا، كلَّا، إني أعاملك كما عاملني جدُّك حين كنت ولدًا صغيرًا. لن أنسى أبدًا اليوم الذي ضبطني فيه وأنا أدخن. كنت أقف يومًا عند طرف «الشارع الجنوبي» مع بعض رفاقي من الشباب، وكنَّا واثقين أننا من الكبار؛ لأننا نرشق الغَلايين في زوايا أفواهنا. وفجأة مر الوالد، ولم يَقُل حرفًا، بل إنه لم يتوقف عن السير. وفي اليوم التالي، وكان يوم أحد، خرجنا معًا للنزهة، وحين كنا عائدين للمنازل، أخرج علبة السجائر وقال: على فكرة يا سيمون، لم أكن أعرف أنك تدخن، أو شيئًا من هذا القبيل، وحاولت بالطبع أن أتحمل الموقف بقدر ما أستطيع، وقال: إذا كنت تبغي تدخينًا طيبًا عليك بهذا السيجار، لقد أهدانيه أحد الضباط الأمريكيِّين الليلة الماضية في «كوينز تاون».

وسمع ستيفن صوت والده يتكسر في ضحكة كانت بالإجهاش أشبه.

– لقد كان أوسمَ رجال كورك في هذا الوقت، بحق الإله. كانت النساء يتوقفنَ لينظرنَ إليه في الطرقات.

وأنصت إلى إجهاشة والده تمرُّ في ضجةٍ عبر حلقه، وفتح عينَيه بدافعٍ عصبيٍّ، وأحال شعاع الشمس الذي تكسَّر فجأة على عينَيه السماء والسحب إلى عالمٍ وهميٍّ من كُتَلٍ مظلمةٍ ذات فواصل على هيئة بحيرات من الضوء الوردي المعتم، وكان عقله ذاته سقيمًا غير ذي حول، ولم يكن يكاد يستطيع أن يفسر حروف لوحة إعلانات المحال التجارية. كان يبدو كما لو كان قد وضع نفسه بعيدًا عن نطاق الواقعية بطريقة حياته الشاذة. ولم يكن من شيء يؤثر عليه في العالم الواقعي، أو يبادله الحديث إلا إذا استمع فيه لصدى الصيحات الحانقة التي تتردد داخل نفسه. لم يكن بإمكانه الاستجابة لأيِّ داعٍ أرضيٍّ أو بشريٍّ، كان أبكمَ لا يستجيب لدواعي الصيف أو مباهج الصحبة، متعبًا مثبطًا من صوت أبيه. لم يكن يكاد يتعرف على أفكاره في أفكاره ذاتها، وأخذ يُردِّد لنفسه في بطءٍ: أنا ستيفن ديدالوس، أسير إلى جوار والدي واسمه سيمون ديدالوس، نحن في كورك بأيرلندا، وكورك مدينة، وحجرتنا في فندق فيكتوريا، فيكتوريا وستيفن وسيمون. سيمون وستيفن وفيكتوريا أسماء.

وفجأة! أخذت ذكريات طفولته تعتم، وحاول أن يبعث بعضًا من لحظاتها الصبوحة، ولكنه لم يستطع، لم يستعِدْ سوى أسماء … دانتي، بارنل، كلين، كلونجوز، صبيٌّ صغيرٌ، تُدرس له الجغرافيا سيدةٌ عجوزٌ تحتفظ بفرشاتين في دولابها، ثم أرسلوا به من البيت إلى المدرسة، وقام بأول تناول مقدس له وأكل حلوى العرقسوس من قبعة الكريكت، وشاهد

ضوء النيران وهو يقفز ويتراقص على جدار غرفة النوم الصغيرة بالمستشفى، وحلم أنه مات. والمدير يتلو القداس وهو يرتدي غفارةً سوداءَ وذهبيةً، ودفنه في مقبرة الطائفة الصغيرة، بجانب طريق الجير الرئيسي، ولكنه لم يَمُت آنذاك، بارنل مات، لم يَقُم أي قداس للميت في الكنيسة الصغيرة ولا طقوس، لم يَمُت، بل ذُرِّي كالغشاوة في الشمس. كان قد أضاع أو تاه بعيدًا عن الوجود، فهو ليس بعدُ موجودًا، ما أغرب التفكر بأنه قد غاب عن الوجود بهذه الطريقة، ليس بالموت بل بالذوي في الشمس أو بالضياع والنسيان في مكان ما من الكون. كان من الغريب رؤية جسده الصغير يظهر ثانيةً لحظة، صبيٌّ صغيرٌ في بذلة رمادية ذات زنار، يداه في جيوبه الجانبية وسراويله مثبتة عند ركبتَيه بشرائط مرنة.

وفي مساء اليوم الذي بِيعت فيه ممتلكات والده، تَبِعه ستيفن في دعة، يتجولان في أنحاء المدينة من حانة إلى حانة، وكان المستر ديدالوس يقصُّ الحكاية نفسها على بائعي السوق والبارمانات وخادمات البار، والمتسولين الذين كانوا يلحُّون في طلب صدقة، بأنه من أهالي «كورك» القدماء، وأنه حاول وهو في دبلن التخلص من اللهجة الكوركية مدة ثلاثين عامًا، وأن الغلام الذي بجانبه هو ولده الأكبر الذي ليس إلا وغدًا من أوغاد دبلن.

وكانا قد انطلقَا في الصباح من مقهى «نيوكومب»، حيث ارتطم كأس المستر ديدالوس في ضجةٍ بالطبق، وحاول ستيفن أن يُخفيَ الدلائل المشينة التي تُظهر إغراق والده في الشراب في الليلة الماضية، بنقل مقعده وبالسعال. وتتابعت مظاهر الهوان، من ابتسامات بائعي السوق الزائفة ووثبات وغمزات فتيات الحانة اللاتي كان يغازلهن الأب، إلى تحيات أصدقاء الأب وكلماتهم المشجعة. أخبروه أن به سماتٍ كثيرةً من جده، ووافق مستر ديدالوس قائلًا إنه مثالٌ كريهٌ، واكتشفوا آثار اللهجة الكوركية في حديثه، وجعلوه يعترف بأن نهر «لي» أكثر جمالًا من نهر «لايفي»، وأراد أحدهم أن يختبر معلوماته في اللاتينية، فجعله يُترجم فقراتٍ قصيرةً من «ديلكتوس»، وسأله إن كان صحيحًا أن تقول:

Tempora mutatur et mutamur in illis.

أو

Tempora mutatur et nos mutamur in illis.[٩]

وأوقع آخر الاضطراب فيه، وكان رجلًا عجوزًا خفيف الحركة يدعوه المستر ديدالوس «جوني كاشمان»، بأن سأله أيهما أجمل، فتيات دبلن أم فتيات كورك.

[٩] «زماننا متغيرٌ ومتقلبٌ في طروادة»، والعبرة هنا في وضع كلمة nos في الجملة ومكانها.

فقال مستر ديدالوس: دَعْه وشأنه، إنه ليس من هذا الطراز. إنه ولدٌ متزنٌ مفكر، لا يُشغل رأسه بهذا الهراء.

فقال العجوز القميء: إذن فهو ليس ابن والده.

فقال المستر ديدالوس وهو يبتسم في انشراح: لست أدري على أية حال.

وقال العجوز القميء لستيفن: كان والدك مغازلًا جريئًا في كورك في زمانه، أتعلم ذلك؟

وغض ستيفن من بصره متأملًا أرضية الحانة المرصوفة التي دخلا إليها.

فقال مستر ديدالوس: لا تحشُ رأسه بهذه الأفكار، دَعْه لخالقه.

فقال العجوز القميء: «لن أحشوَ أية أفكار في رأسه بالتأكيد، إنني في سنِّ والده»، ثم قال لستيفن: وأنا جدٌّ أيضًا، أتعلم ذلك؟

فقال ستيفن: حقًّا؟

فقال العجوز القميء: أجل بحق الإله، فلديَّ حفيدان يتواثبان هناك في «صنداي ول»، والآن ... كم تظنني أبلغ من العمر؟ إني أتذكر منظرَ جدِّك في معطفه الأحمر وهو خارجٌ إلى الصيد، كان ذلك قبل مولدك.

فقال مستر ديدالوس: أجل، بل قبل التفكير في ذلك.

فردَّد العجوز القميء: لقد رأيته بحق الإله، وأكثر من ذلك، بإمكاني أن أتذكر جدك الأكبر، جون ستيفن ديدالوس العجوز، وكان يأكل الحديد والنار، يا لَها من ذكريات بالنسبة لك.

فقال واحدٌ آخر من الجماعة: يرجع ذلك إلى ثلاثة أو أربعة أجيال، آه يا «جوني كاسمان» ... لا بد أنك تناهز المائة.

فقال العجوز القميء: حسنًا، سأُخبرك بالحقيقة، إنني لم أتجاوز السابعة والعشرين من عمري.

فقال المستر ديدالوس: يُحسب عمرنا على قدر إحساساتنا، ولكن ... أفرغ ما بيدك حتى نُؤتَى بغيره. هيه يا تيم أو يا توم، أو كيفما يكون اسمك، علينا بنفس الشراب ثانيةً، بحق الإله، لا أشعر أنا نفسي بأنني أتعدَّى الثامنة عشرة. هذا هو ابني لا يتجاوز عمرُه نصفَ سنوات عمري، ومع ذلك فأنا أحسن منه حالًا طوال أيام الأسبوع.

فقال السيد الذي تحدث سابقًا: خفِّف الوطء الآن يا ديدالوس، أظن أنه قد حان الوقت الذي تتراجع فيه إلى الصف الخلفي.

فأكد مستر ديدالوس: كلَّا بحق الإله، سوف أتحدَّاه في أداء لحن تينور أو في قفز حواجز خمسة، أو في الجري وراء كلاب الصيد في الريف، كما كنت أفعل منذ ثلاثين عامًا مع «كيري بوي» أحسن مَن يفعل ذلك.

فقال العجوز القميء وهو يدقُّ على جبهته، ويرفع كأسه ليُفرغها حتى الثمالة: ولكنه سيقهرك في هذه.

فقال المستر ديدالوس: حسنًا، أتمنى أن يكون رجلًا طيبًا في حياته مثل والده، هذا كل ما يمكنني قوله.

فقال العجوز القميء: إن كان كذلك فسيكون طيبًا.

فقال المستر ديدالوس: نشكر الرب يا جوني أننا عشنا طوال هذه المدة، ولم نرتكب سوى أهون الضرر.

فقال العجوز القميء: ولكن لنا كثيرًا من الطيبات يا سيمون، نشكر الرب أننا عشنا طوال هذه المدة وفعلنا الكثير من الطيبات.

ورأى ستيفن الكئوس الثلاثة ترتفع من على الخوان؛ ليشرب والده ورفيقاه نخبَ ماضيهم. كانت هوة من المصير أو من الطباع تفصله عنهم.

كان عقله يبدو أكبر من عقلهم، يسطع في برودٍ فوق خلافاتهم ومسراتهم وأحزانهم، مثلما يسطع قمرٌ على أرضٍ أصغر منه، لم تَثُر فيه الحياة أو الشباب مثلما ثَارا فيهم من قبل. لم يعرف أبدًا مسرة صحبة الآخرين، ولا قوة العافية الرجولية العنيفة ولا الاحترام البنوي. لم يَثُر في روحه إلا شهوة باردة قاسية مجردة عن الحب. كانت طفولته قد ماتت أو هي فقدت، وماتت أو فقدت معها قابليته للمسرات الصغيرة. وكان يجنح وسط الحياة مثل قشرة القمر الجدباء.

أأنت شاحبٌ من الإرهاق؟
من التصعيد في السماء والتطلع إلى الأرض.
في جولاتك المنفردة ...؟

وردَّد لنفسه سطورًا من هذه الشذرة لشيلي، وأشعره تراوحُها بين الضعف الإنساني الحزين ودورات النشاط غير الإنساني الواسع المدى — بالرعدة، ونسيَ أحزانه البشرية الخاصة الواهنة.

انتظرت والدة ستيفن مع أخيه وأحد أولاد عمه في ركنٍ من أركان «بلاس فوستر» الهادئ، في حين صَعِد ستيفن ووالده الدرج وسارَا عبر البواكي حين كان حرَّاس «هايلاند» يسيرون في عرضٍ عسكريٍّ، وحين دخلا إلى الصالة الكبرى ووقفا أمام الخزينة، أخرج ستيفن الشيكات التي حُررت على محافظ بنك أيرلندا بمبلغ ٣٣ جنيهًا، وهو الجائزة التي حصل عليها عن معرضه ومقالاته، وسلَّمه الصرَّاف هذا المبلغ على هيئة أوراق مالية وعملات على التوالي، وأودعها جيبه في هدوء مصطنع، وتحمل مصافحة الصرَّاف الودود الذي جاذب والده أطراف الحديث، والذي تمنَّى له حياةً ناجحة في المستقبل. كان متبرمًا من حديثهما، ولم يستطع أن يُبقيَ قدمَيه ساكنتين، وانشغل الصرَّاف عن خدمة الآخرين بقوله إن الزمن متغير، وليس هناك من شيء يماثل توفير أفضل تعليم ممكن للابن مهما تكلَّف من أموال، وسار المستر ديدالوس في الردهة متريثًا، يُحدِّق فيما حوله وفي السقف، وأخبر ستيفن الذي كان يستحثُّه بأنهما يقفان الآن في مجلس العموم ببرلمان أيرلندا القديم.

قال في ورع: ليساعدنا الله! آه حين يفكر المرء في رجالات تلك الأيام يا ستيفن. هيلي هتشنسون وفلود وهنري جراتان وتشارلس كندال بش، ثم وصلنا الآن إلى الأرستقراط الذين جلبهم لنا الحظ، القادة الحاليِّين للشعب الأيرلندي في وطنه وفي خارج وطنه، بحق الإله، إنهم لا يستحقون أن يُمنحوا مدفنًا مساحته عشرة أكرات لهم جميعًا. كلَّا يا ستيفن، أيها الشاب العجوز، إني آسفٌ إذ أقول إن من عندنا الآن أغبياء، مثل الأغنية التي تقول: عندما خرجت مرتاضًا صباح أحد أيام مايو الجميلة، في شهر يوليو الجميل المرح.

كانت ريح أكتوبرية لاذعة تهبُّ حول البنك، وكان للأشخاص الثلاثة الذين يقفون عند نهاية الممر المليء بالطين خدودٌ خاملة وأعينٌ دامعة.

ونظر ستيفن إلى أمه التي تشتمل أردية خفيفة، وتذكَّر أنه رأى منذ أيامٍ قليلةٍ دِثارًا ثمنُه عشرون جنيهًا في فترينات محلات «بارناردو».

قال مستر ديدالوس: حسنًا، انتهينا من هذا.

قال ستيفن: يحسن بنا أن نذهب للغداء، أين؟

قال مستر ديدالوس: الغداء؟ أظن ذلك! ماذا؟

قالت مسز ديدالوس: إلى أيِّ محلٍّ ليس غالي الأسعار.

– في «أندردون»؟

– أجل ... أي مكان هادئ هناك.

قال ستيفن بسرعة: هيَّا بنا، لا تهمُّ مسألة الغلاء هذه.

وسار أمامهم في خطوات قصيرة عصبية، مبتسمًا، وبذلوا جهدهم حتى يُلاحقوا خطاه، باسمين أيضًا من لهفته.

قال والده: على رِسْلِك، مثل الأولاد الطيبين، لست إلا في أول طريق الكسب، أليس كذلك؟

وسالت أموال الجائزة من بين أصابع ستيفن في فترةٍ لهوٍ سريعة، كانت تُحمل إليهم لفافات كبيرة من المأكولات والكماليات والحلوى المجففة. وكان يشتري كل يوم دفتر مواصلات لأسرته، ويقود كل ليلة جماعة من ثلاثة أشخاص أو أربعة إلى المسرح لمشاهدة مسرحية «إنجومار» أو «سيدة ليون». وكان يحمل في جيوب معطفه ألواحًا من شيكولاتة «فينا» لأجل ضيوفه، في حين يكتظُّ جيب بنطلونه بكميات من العملات الفضية والنحاسية. واشترى الهدايا لكل شخص، وملأ غرفته بالزخارف، وخطط كثيرًا من المشروعات، وأعاد ترتيب كتبه هنا وهناك فوق رفوفها، وعكف على جميع أنواع قوائم الأسعار، وأقام نوعًا من الدويلة تضم أفراد أسرته، حيث توجد وظيفة لكل شخصٍ يؤديها، وافتتح قرضًا في البنك لأسرته، وفرض القروض على المستدينين الراغبين، حتى يستمتع بكتابة الوصولات وحساب الأرباح على المبالغ المقترضة. ولَمَّا لم يَعُد بإمكانه أداء تلك الأعمال، صار يتجول في المدينة هنا وهناك في العربة العامة.

ثم انتهى فصل المرح، وتشقق وعاء الأزهار ذو الطلاء الأحمر، بينما ظلت ألواح الخشب التي تُغطي جدران غرفته في كسائها الناقص وطلائها السقيم.

وعاد أهل بيته إلى حياتهم الطبيعية، لم تَعُد أمام والدته بعد ذلك فرصة لتأنيبه على تبذيره، وعاد هو أيضًا إلى حياته السابقة في المدرسة. وتحطمت مشروعاته الجديدة كلها، وسقطت الدويلة، وانتهى قرض البنك وأغلق خزائنَه وحساباتِه على خسارةٍ معقولة، وبطلت قواعد الحياة الجديدة التي نسجها حول نفسه.

ما أغفل ما كانت آماله! لقد حاول أن يُشيد سدًّا من النظام والرقة في وجه تيار الحياة السقيمة التي تحوطه، وأن يمنع ترداد هذه التيارات القوي في نفسه، عن طريق قواعد للسلوك واهتماماتٍ نشطة وعلاقاتٍ بنوية جديدة، عبثًا … لقد غمرت المياه حواجزه من الخارج ومن الداخل، وبدأت تياراتها تتدافع مرةً أخرى فوق السد المحطوم.

ورأى أيضًا بوضوح أن وحدته الذاتية عبث. لم يقترب خطوةً واحدة نحو حياة مَن نشد الاقتراب منهم، ولا تخطَّى الحقدَ والخجل القلقَين اللذين فرَّقاه عن أمه وأخيه وأخته. لم يكن يكاد يشعر أنه من نفس دمائهم، بل يقف منهم في قربى كفالة غامضة، ابنٌ بالتبني وأخ بالتبني.

وتحوَّل إلى تهدئة لهفات قلبه المستعرة التي تخيل كلَّ شيء عداها باطلًا غريبًا. ولم يعبأ بارتكابه الخطيئة الكبرى، ولم يبالِ بأن حياته قد أصبحت نسيجًا من الهروب والزيف، ولم يكن هناك من شيء مقدس بعد الرغبة الوحشية داخله، والتي تدعوه لتحقيق الأعمال التي يحلم بها في يقظته. كان يتحمل في لامبالاة تفاصيلَ مغامراته السرية المخجلة، حين ينتشي لتدنيسه في صبرٍ كلَّ ما يجذب انتباهه من صور. وكان يتحرك في النهار وفي الليل بين صور مشبوهة للعالم الخارجي. وربما تأتي إليه بالليل من خلال انعطافات ظلمة النوم، صورة كانت تبدَّت له في النهار برؤية رصينة، وقد غيَّر المكرُ الشهواني سحنتها، ولمعَت عيناها في سرورٍ بهيميٍّ، غير أن النهار كان يُؤلمه بذكريات مغامراته الخليعة الخافتة، وبإحساسٍ حادٍّ مهينٍ بالتعدي.

وعاود تجوالاته، وقادَته أمسيات الخريف المسدلة من شارع إلى شارع، مثلما قادَته منذ سنوات على طول طرق «بلاك روك» الهادئة. ولكن لم يبعث فيه منظر الحدائق الأمامية المنسقة ولا أنوار النوافذ العطوفة أيَّ أثر رقيق في نفسه الآن، غير أن طيف «مرسيدس» كان يخترق خلفية ذاكرته في بعض الأوقات عند هدوء رغباته، حين كان يخلي الانغماس المدمر مكانه للفتور اللطيف، ورأى مرةً أخرى المنزل الصغير الأبيض وحديقة الورد على الطريق المفضي إلى الجبال، وتذكَّر حركة الإباء الحزينة ذات الكبرياء التي سيقوم بها هناك، واقفًا وإياها في الحديقة التي يُضيئها القمر بعد سنوات من الغربة والمخاطرة. وكانت خطب «كلود ملنوت» الرقيقة تتصاعد إلى شفتَيه في مثل هذه اللحظات وتُخفف من قلقه، ويلمسه نذيرٌ رقيقٌ بالموعد الذي كان ينتظره حينئذ، وبالمقابلة المقدسة التي كان يتخيلها عند ذاك، والتي سيخلع عن نفسه عندها الضعف والوجل والسذاجة، برغم الحقيقة الرهيبة التي تقف بين آماله حينذاك وآماله الآن.

ومرَّت هذه اللحظات، واندلعَت نيران الشهوة المدمرة ثانيةً، وهجرت سطور الشعر شفتَيه، واندفعت الصرخات المبهمة والكلمات البهيمية المكبوتة من عقله، لتشقَّ طريقًا لنفسها. كانت دماؤه في ثورة، وكان يتجول هنا وهناك في الطرق المظلمة القذرة، مخترقًا أغوار الحواري والأزقة ببصره، منصتًا في لهفةٍ لأيِّ صوتٍ كان يزأر داخل نفسه كالوحش الضاري العاوي. كان يبغي أن يُخطئَ مع واحدةٍ من جنسه، أن يُجبر مخلوقًا آخر أن يُخطئَ معه، وأن ينتشيَ وإياها في الخطيئة. وشعر بوجود مظلم يتحرك فوقه في إذعان في الظلمة، ووجود دقيق يهدر كالفيضان، يملأ جوانحه تمامًا. وحاصر هديره أُذُنَيه، كهدير جمهرة نائمة، بينما اخترقَت تياراته الدقيقة كيانه. وتقلَّصت يداه وانضمَّت أسنانه حين

عانى ألمَ الاختراق. ومدَّ ذراعَيه في الطريق لتقبضَا بسرعة على الشكل الهش المنهار الذي حاوره وأثاره، وانطلقَت من بين شفتيَه الصرخةُ التي خنقها هذه المدة الطويلة في حلقه. انطلقَت منه نُواحًا يائسًا من جحيم المعاناة، وماتت في نُواحِ الاستعطاف الثائر، صرخة هجر مجحف، صرخة هي صدى لكتابة بذيئة كان قد قرأها على جدار دورة مياه راشح. وجال في متاهات الطرق الضيقة القذرة، وكان يسمع تفجُّرَ الأصوات الجشَّاء ومجادلات المغنين السكارى وفأفآتهم من الحواري الدنسة. ومضى في السير غير مستاء، يتساءل عمَّا إذا كان قد ضلَّ طريقَه إلى حيِّ الدعارة. وكانت نسوةٌ وفتيات يعبرنَ الطريق من منزل إلى منزل، في ملابس طويلة زاهية. كنَّ على مهلٍ من أمرهن ومعطرات. وغمرَته الرعدة وخفَت الضوءُ من عينَيه، وقامت نيران المصابيح الصفراء أمام ناظره المتعب، أمام السماء الغبشاء وهي تحترق كأنما هي أمام الهيكل المقدس. وتجمَّعت جماعاتٌ من الناس أمام الأبواب وفي الردهات المضاءة، وقد ارتدت من الملابس ما يناسب طقسًا معينًا، كان في عالم آخر، لقد استفاق من سُبات قرون.

ووقف ساكنًا في منتصف الطريق، وقلبُه يجلجل بين ضلوعه، ووضعت امرأة شابة ترتدي فستانًا طويلًا أحمر يدَها على ذراعه لتستوقفه، وحملقَت إلى وجهه وقالت في مرح: «مساء الخير يا عزيزي ويلي.»

وكانت حجرتها دافئةً مضيئة. ورقدَت عروسٌ خشبية ضخمة على المقعد بجوار الفراش وقد انفرج ساقاها. وحاول أن يتكلف الكلام حتى يبدوَ مستريحًا وهو يراقبها إذ تنضو عنها ثوبها، ويلاحظ حركات رأسها المعطر الواعية ذات الكبرياء.

وجاءت إليه وهو واقفٌ وسط الحجرة، واحتضنَته في بهجة ورصانة، وضمَّته ذراعاها المستديرتان إليها في ثبات. وإذ رأى وجهها مرفوعًا نحوه في هدوءٍ جديٍّ، وشعر بخفقات صدرها الدافئة الهادئة، انفجر في بكاءات هستيرية، والتمعَت دموعُ فرح وراحة في عينَيه الفرحتَين، وانفرجَت شفتاه رغم أنهما لم تنطقا.

ومرَّت بيدها الرنانة خلال شعره، وهي تدعوه بالوغد الصغير.

قالت: أعطني قُبلة.

ولم تطاوعه شفتاه الانحناء لتقبيلها، كان يريد أن تُمسك به في قوة بين ذراعَيها، أن تُهدهده في بطء، في بطء.

شعر بنفسه فجأة بين ذراعَيها، وقد أصبح قويًّا غيرَ وجلٍ وواثقًا من نفسه، ولكنَّ شفتَيه لم تُطاوعاه الانحناء لتقبيلها.

وأحنَت رأسَه بحركة مفاجئة ووصلَت شفتَيها بشفتَيه، وقرأ معنى حركاتها في عينَيها الصريحتين المرفوعتين إلى أعلى. كان ذلك فوق احتماله، وأغلق عينَيه وقد سلَّم نفسه إليها جسدًا وعقلًا، غيرَ واعٍ لشيء في الدنيا سوى ضغطِ شفتَيها الرقيقتَين المنفرجتين الداكنتين. كانتا تضغطان على ذهنه كما تضغطان على شفتَيه، كأنما هما أداة كلام مبهم، وشعر بينهما بضغطٍ غامضٍ وَجِل، أشد ظلمةً من غشية الخطيئة، أشد رقةً من الصوت أو العبير.

الفصل الثالث

زحفَت عتمةُ ديسمبر الخاطفة متعثرة في هذرٍ بعد اليوم الكئيب، وشعر ستيفن إذ هو يتطلع من وراء إطار نافذة الفصل الكئيب بجوفه يتشوق إلى الطعام، وأمَّل أن يكون هناك «يخنة» في الغذاء، من الكرنب والجزر والبطاطس المهروسة وقِطَع لحم الخنزير السمينة، ويُغرق كل هذا في صلصة بها كثيرٌ من الفلفل ومغشاة بالدقيق، وأشار عليه جوفه بأن يُفرغ هذه الخلطة في معدته.

ستكون ليلةً كئيبة غامضة، وستُضاء المصابيح الصفراء هنا وهناك في حي العاهرات القذر بعد هبوط الليل المبكر. ويسير في خطٍّ ملتوٍ في هذا الطريق أو ذاك، ويقترب دائمًا أكثر فأكثر في رجفة خوف وفرح، حتى تقودَه قدماه فجأةً إلى أحد الجوانب المظلمة. وتكون العاهرات في بداية خروجهن من المنازل للاستعداد لليل، يتثاءَبن في كسلٍ بعد النوم ويسوِّين دبابيس الشعر في خُصلاتهن، ويمرُّ بينهن في هدوء، ينتظر لفتةً مفاجئة من رغبته، أو نداءً مفاجئًا من أجسادهن العطرة اللدنة إلى روحه التوَّاقة للخطيئة.

وإذ هو يطوف في سيره بحثًا عن هذا النداء، تتنبَّه وسائل الحس عنده في دقة إلى كل ما يجرحها أو يخجلها وقد أعمَتها الرغبة، فترى عيناه دائرةَ الجعة السوداء على سطحِ مائدةٍ بلا مفرش أو صورة جنديَّين في وقفة انتباه، أو إعلان مزخرف، وتسمع أذناه لغوَ التحيات المدوي.

– هالو برتي، أما قررتَ شيئًا؟

– أهذه أنتِ أيتها الحمامة؟

– رقم عشرة، هناك نيللي في خدمتك.

– مساء الخير يا زوجي، ألَا تأتي لحظة؟

واتسعَت المعادلة الرياضية التي دوَّنها في دفتر مُسَوَّداته لتتخذ هيئةَ ذيل طاووس متمدد يشتمل على عيون ونجوم. وحين أُزيلت العيون والنجوم من مؤشراته، أخذ الذيل ينطوي على نفسه ثانيةً، وأضحَت المؤشرات التي تظهر وتختفي عيونًا تنفتح وتنغلق، والعيون التي تنتفح وتنغلق أضحَت نجومًا تُولد ونجومًا تنطفئ. وحملت الدورة الرحيبة للحياة النجمية عقله المرهق خارجًا إلى الحافة ثم داخلًا إلى المركز، يرافق ذلك موسيقى قصية تصحبه خارجًا وداخلًا، أي موسيقى؟ واقتربت الموسيقى وتذكَّر كلماتها، كلمات شذرة قصيدة الشاعر شيللي عن القمر الذي يتجول وحيدًا شاحبًا من الإرهاق. وبدأت النجوم تتساقط محطومة وغشَت الفضاءَ سحابةٌ من الغبار النجمي.

وسقط النور السقيم في وهن أكثر على الصفحة؛ حيث بدأت معادلة جبرية أخرى تكشف عن نفسها في بطءٍ وتبسط ذيلها العريض. كانت هي روحه قد خرجت لملاقاة التجربة، تكشف نفسها في كل خطيئة، تبسط منارة أنجمها المتوهجة ثم تنكمش على نفسها مرةً أخرى، تَخْفت في بطءٍ ثم تُطفئ أنوارها ونيرانها. لقد انطفأت تمامًا، وملأ السديم الظلام البارد.

وسادَت روحَه لا مبالاة هادئة. عند أول خطيئة له انبعثَت فيه موجة من الحيوية، وخاف أن يشوِّه الإفراطُ جسده أو روحه، ولكن حملَته بدلًا من ذلك موجة الحيوية على صدرها خارج ذاته وأعادَته إليها ثانيةً عند انحسارها. ولم يتشوَّه شيء من جسده أو روحه بل قام سلامٌ خفيٌّ بينهما، وكان السديم الذي انطفأت حميَّتُه عنده عرفانًا باردًا لا مباليًا بالنفس. كان قد ارتكب الكبرى عدة مرات، وأدرك أنه بينما يخاطر بحلول اللعنة الأبدية عليه لأول خطيئة اقترفها، فإنه يضاعف ذنبه وعقابه بكل خطيئة يقوم بها بعد ذلك. ولم تُفلح أيامه ولا أعماله أو أفكاره في التكفير عنه، فقد كفَّت ينابيع السماحة المقدسة عن إنعاش روحه. وكان كل ما يستطيع أن يأمل فيه أن يربح لنفسه قدرًا من السماحة الحقة بصدقةٍ يجود بها على شحاذٍ يفرُّ من دعواته. كانت تقواه قد ذهبت أدراج الرياح، ماذا تُجديه صلاته حين يُدرك أن روحه تشتهي دمارها؟ ومنعه الخوف من بذل صلاة واحدة لله في المساء، رغم إدراكه أن بوسع الله أن يقبض روحه أثناء نومه ويقذف بها إلى أغوار الجحيم قبل أن يضرع في طلب الرحمة، وأوحَت إليه سورة خطيئته وخوفه من الله خوفًا خاليًا من الحب بأن معصيته أجلُّ من أن يكفِّر عنها كلها أو بعضها، عن طريق ولاءٍ زائفٍ للذي يرى كلَّ شيء والذي وَسِع علمُه كلَّ شيء.

– «حسنًا «إينس» أنا أُعلن أن لك رأسًا، ولكن عصاي لها رأس كذلك. أتريد أن تقول إنك لا تستطيع أن تُخبرني ما هو الجذر الرياضي الأصم؟»

وأيقظ الردُّ العاثر قبسَ ازدرائه لزملائه. لم يكن يشعر بأي عارٍ أو وجلٍ أمام الآخرين، وكان ينظر في صبيحة أيام الآحاد ببرود؛ إذ يعبر باب الكنيسة إلى المصلين الذين يقفون عاري الرءوس في صفوف أربعة أمام الردهة، يحضرون القداس معنويًّا بينما هم لا يستطيعون شهوده أو سماعه. وصدَّه ورعُهم الخائر ورائحة زيت الشعر الرخيص السقيم الذي يدهنون به رءوسهم عن المذبح الذي يصلُّون أمامه. وسقط في حبائل مداهنة الآخرين، فقد كان يشك في براءتهم ويتملقها في سهولة.

وعلَّق على جدار غرفة نومه قائمةً وضَّاءة، هي شهادة اختياره مشرفًا لجمعية «العذراء المقدسة ماري» في المدرسة. وحين كانت الجمعية تلتقي في الكنيسة الصغيرة لتلاوة القداس الصغير، كان مكانه يقع في المركع ذي الطنافس على يمين المذبح، حيث يقود منه جناح الأولاد خلال الردود. ولم يُؤلمه زيفُ موقفه، ولو حدث في بعض الأوقات أن خالجه شعورٌ بأن ينهض من مكان الشرف الذي يجلس فيه، ليعترف أمام الجميع بعدم أحقيته لذلك المكان ويغادر الكنيسة، كانت تجعله يُحجم عن ذلك نظرة واحدة إلى وجوه من حوله. وكانت استعارات سفر «المزامير» النبوئية تُهدئ من كبريائه العقيمة. وأسَرَت أمجاد العذراء روحه، الزيت والمر واللبان التي ترمز كلها لنسبها الملكي، ثم شعارها: النبات الذي يُزهر متأخرًا، والشجرة التي تُزهر متأخرة، ويرمزان للنمو التدريجي عبر العصور لشعائرها الدينية بين بني الإنسان. وحين جاءه الدور لقراءة الدرس عند نهاية القداس، قرأه في صوت مقنع، مهدهدًا ضميره على موسيقاه:

Qusi cedrus exaltata sum in Libanon et quasi cupressus in monte Sion. Quasi palma exaltata sum in Gades et quasi plantation rosae in Jericho. Quasi uliva speciosa in campis et quasi platanus exaltata sum juxtga aquam in plateis. Sicut cinnamomun et balsamum aromatizans odorem dedi et quasi myrrha electa dedi suavitatem odoris.[١]

[١] كأنما كانت أشجار الشربين تُزهر في لبنان، وكأنما الأرز يزدهر في جبل صهيون. كأنما أشجار التمر تُزهر في «قادس» والنباتات المزهرة في «أريحا»، وكأنما أشجار الزيتون تملأ المروج من أفضل أنواعها، وكأنما كانت أشجار الصفار تزدهر بجانب المياه في الطرقات، كأنما كانت أشجار «القِرفة» والبلسم المعطرين تفوح بالعبير، وكأنما كانت أشجار المر المختارة تُطلق عبيرها الخافت. سفر الجامعة، الفصل ٢٤، الآيات ١٧–٢٠.

كانت خطيئته التي حجبَته عن مرأى الإله قد قادَته إلى مقربة من ملاذ الخاطئين، وبدَت عينا العذراء كما لو كانتا ترقبانه في عطف ليِّن، ولم تكن قداستها تبعث أيَّ هوان في نفس الخاطئ الذي يتقرب إليها، ولا النور الغريب الذي يشعُّ في وهنٍ على جسدها الهش، وإن كان عليه أن يهجر الخطيئة والتوبة يومًا، فلن يدفعَه إلى ذلك سوى أن يُصبح فارسًا، آه لو تتحول نحوها روحُه لتدخل نعيمها في خجل بعد رعونة شهوته الجسدية التي أنهكت نفسها، إلى تلك التي شعارها نجم الصباح، المشرق المنغم، الذي يحكي عن السماء ويبعث في النفس السلام. كان يحدث ذلك حين تهمهم الشفاه باسمها في رفق، الشفاه التي لا تزال تحوم عليها الكلمات المشينة القذرة ومذاق القبلات الفاجرة.

كان ذلك غريبًا، وحاول أن يفكر كيف يحدث، ولكن العتمة التي كانت تتزايد في الفصل غطَّت أفكاره، ودقَّ الجرس، وأشار المدرس إلى المسائل الهندسية المقررة للدرس القادم وخرج. وأخذ «هيرون» يغني دون تنغيم:

«صديقي الحميم بومبادوس.»

وعاد «إينيس» الذي كان قد ذهب إلى الفناء يقول: لقد حضر فرَّاش الإدارة يسأل عن المدير.

وحكَّ يدَيه ولدٌ طويل خلف ستيفن وقال: هذا من حظنا، ولنا أن نمرح طوال هذه الساعة، فلن يأتيَ إلينا إلا بعد منتصف الثانية، وعندها تسأله بعض الأسئلة عن الوعظ يا ديدالوس.

واستمع ستيفن إلى ما يجري حوله من حديثٍ وهو يميل إلى الخلف، ويجري خطوطًا كيفما اتفق على المسودة التي أمامه. وكان «هيرون» يقطع الحديث من وقتٍ لآخر بقوله: «اصمت، اصمت، لا تكن كالطبل الأجوف.»

وكان غريبًا أيضًا أن يجد لذةً في الحفاظ على قواعد الكنيسة الصارمة إلى مداها، وفي اختراق حُجُبِها الصامتة ثم لا يحدث إلا أن يزيد ما يسمعه وما يشعر به من إدانته. وكانت الجملة التي قالها القديس جيمس، إن مَن يخطئ في واحدة فقد أخطأ في الكل، تبدو له قبلًا جملة فارغة، إلى أن بدأ يتلمس في الظلام الوضعَ الذي أصبح فيه، فقد انبعث من بذور الشهوة الشريرة كلُّ الخطايا الرئيسية الأخرى: الزهو بالنفس، وازدراء الآخرين، الإسراف في إنفاق المال على المسرات المحرمة وحسد مَن لا يستطيع مجاراة خطاياهم، واغتياب الصالحين، والاستمتاع الشَّرِه بالطعام، والغضب السقيم المحدج، حين كان يعكف على أشواقه، ومستنقع القذارة الروحية والجسدية الذي سقط فيه كيانُه كلُّه.

وحينما كان جالسًا في مقعده يُحملق في هدوء إلى وجه المدير الأريب العاتي، كان عقله يهرب هنا وهناك من الأسئلة العجيبة التي كانت تعرض له. لو أن رجلًا سرق جنيهًا في شبابه واستخدمه في جمع ثروة عريضة، فكم يكون عليه أن يُعيد، الجنيه الذي سرقه فقط أم الجنيه مضافًا إليه الربح المركب المتجمع عن المدة المنقضية، أم عليه أن يُعيد كلَّ ثروته؟ وإذا أراق أحدهم الماءَ المقدس المعدَّ لتعميد طفل ما قبل تلاوة كلمات التعميد، فهل يصح عماد الطفل؟ هل يصح التعميد بالماء المعدني؟ كيف يتفق أن آية تَعِد الفقراء بجنة السماء بينما تَعِد آية ثانية الودعاء بأنهم سيرثون الأرض؟ لماذا كان القربان المقدس مبنيًّا على صنفَي الخبز والنبيذ ما دام يسوع المسيح يكون حاضرًا جسدًا ودمًا، روحًا وألوهية في الخبز منفصلًا وفي النبيذ منفصلًا؟ وهل تتضمَّن كسرةٌ صغيرة من الخبز المقدس كلَّ جسد ودم يسوع أم جزءًا فقط من الجسد ومن الدم؟ وإذا حال النبيذُ إلى خلٍّ وتحلَّل القربان إلى عفن بعد أن يكونا قد تقدَّسا، فهل يوجد فيهما يسوع المسيح بعد ذلك كلِّه كإلهٍ وبشرٍ؟

– ها هو، لقد حضر؟

كان أحد التلاميذ قد رأى من مكانه بالقرب من النافذة المدير وهو قادمٌ من الإدارة. وفتح الجميع كُتُبَ الوعظ وانحنت كلُّ الرءوس عليها في صمت. ودخل المدير واتخذ مكانه فوق المنصة، وحثَّت ستيفن ركلة خفيفة من الولد الطويل الذي يجلس خلفه لكي يسأل سؤالًا صعبًا، ولكن المدير لم يطلب كتاب الوعظ ليستمع إلى الدرس منه، بل عقد يدَيه فوق الدرج وقال: ستبدأ الخلوة[٢] عند أصيل الأربعاء تكريمًا للقديس «فرانسيس إكسافير»، الذي نحتفل بعيده يوم السبت، وستستمر الخلوة من يوم الأربعاء حتى يوم الجمعة، وسيُخصص أصيل الجمعة لسماع الاعترافات بعد صلاة المسابح، فإن كان أيٌّ منكم قد تعوَّد على الاعتراف لقسٍّ معينٍ فالأفضل له ألَّا يغيِّرَه، وسيقام القداس في التاسعة تمامًا من صباح الأحد، ويتم التناول المقدس للمدرسة كلها. أما السبت فسيكون إجازة، وبما أن يومَي السبت والأحد سيكونان إجازة، فقد يظن بعض الأولاد أن الإثنين إجازة، فحاذِروا أن تقعوا في هذه الغلطة. أعتقد أنك «يا لويس» ربما تقع في هذه الغلطة.

– أنا يا سيدي؟ لماذا يا سيدي؟

---

[٢] الخلوة: انسحاب مؤقت لأداء بعض الطقوس والتدريبات الدينية.

وبعثَت ابتسامةُ المدير الكالحة موجةً قصيرة من المرح في فصل الأولاد. وبدأ قلب ستيفن ينثني ويَذبُل في بطءٍ من الخوف مثل الزهرة التي تموت.

وواصل المدير حديثه في رزانة: أعتقد أنكم تعرفون كلكم قصة حياة القديس «فرانسيس إكسافير» راعي مدرستكم، لقد انحدر من أسرة إسبانية قديمة ذائعةِ الصيت، وتذكرون أنه كان واحدًا من أوائل مَن تَبِعوا القديس «إغناطيوس»، لقد تقابلا في باريس حيث كان «فرانسيس إكسافير» يعمل أستاذًا للفلسفة بجامعتها، وتشرَّب هذا النبيل الشاب المثقف اللامع أفكار مؤسسنا المجيد قلبًا وروحًا، وتعرفون أن القديس «إغناطيوس» قد أرسله بناءً على طلبه للتبشير بين الهنود، وتنقَّل من بلد إلى بلد في الشرق، من أفريقيا إلى الهند، ومن الهند إلى اليابان، لتعميد الناس. ويقال إنه أتمَّ تعميدَ عشرة آلاف وثنيٍّ في شهر واحد. ويقال إن ذراعه اليمنى قد أصبحت عاجزةً من طول ما رفعها فوق رءوس مَن كان يُعمِّدهم، ورغب عندئذٍ في السفر إلى الصين لضمِّ مزيدٍ من الأرواح إلى الله، ولكنه مات من الحمَّى في جزيرة «سانشيان». كان قديسًا عظيمًا، القديس «فرانسيس إكسافير» خادم الإله العظيم.

وتوقَّف المدير، ثم واصل كلامه وهو يهزُّ يدَيه المعقودتَين أمامه:

– كان إيمانه يهز الجبال، يضم عشرة آلاف روح إلى الله في شهر واحد! إنه قائدٌ حقٌّ، يصدق على شعار جماعتنا: «إلى مجد الله العظيم». قديسٌ له قوة عظمى في السماء، تذكَّروا: قوة تتشفع لنا في أحزاننا، قوة تُنيلنا كل ما نضرع من أجله إن كان صالحًا لروحنا، وفوق كل شيء، قوة تُمكِّن لنا مسرة التوبة إن نحن أخطأنا. قديسٌ عظيمٌ، القديس «فرانسيس إكسافير» صائد الأرواح العظيم.

وتوقَّف عن هزِّ يدَيه المعقودتَين، وأسندهما إلى جبينه ثم أخذ ينظر ذات اليمين وذات اليسار في دقةٍ إلى سامعيه من وراء عينَيه السوداوَين الصارمتَين، وفي الصمت الذي ساد المكان أحالت نارهما السوداء العتمة إلى وهجٍ أصحم. وذوَى فؤاد ستيفن كزهرة الصحراء حين تهبُّ عليها رياح السموم من بعيد.

– «تذكَّروا آخرتكم دائمًا فلا تقعوا في الخطيئة».

– يا صغاري الأعزاء إخوتي في الدين، هذه الكلمات من كتاب الجامعة، الفصل السابع، الآية الأربعون، باسم الأب والابن والروح القدس، آمين.

جلس ستيفن في الصف الأخير من الكنيسة الصغيرة، وجلس الأب أرنال إلى مائدة على يسار المذبح، وقد اشتمل بعباءة ثقيلة على كتفَيه، وكان وجهه مشدودًا، وقد ترك الربو

آثارًا في صوته. وأعادت صورة وجه أستاذه العجوز الذي انبعثت في ذهنه بطريقة غريبة حياتَه في كلونجوز إلى تفكيره: الملاعب الفسيحة التي تموج بالأولاد، حفرة الملعب، المقبرة الصغيرة على طريق الأشجار، حيث حلم أنه دُفن، ظلال النيران على جدار المستشفى حيث رقد مريضًا، ووجه الأخ ميشيل الأسيف. وعادت روحه عند استعادة هذه الذكريات روح طفل مرةً أخرى.

– لقد اجتمعنا هنا اليوم يا أعزائي الصغار إخوتي في الدين، لنمضيَ فترةً قصيرة بعيدًا عن ضوضاء العالم الخارجي، لكي نحتفل ونكرِّم واحدًا من أعظم القديسين، رسول الهنود، وهو أيضًا القديس الراعي لمدرستكم، القديس «فرانسيس إكسافير». لقد اجتمع تلاميذ هذه المدرسة عامًا بعد عام، منذ زمنٍ أطول من أن يتذكَّرَه أيٌّ منكم أو أتذكَّرَه أنا، اجتمعوا في هذه الكنيسة نفسها ليقوموا بالخلوة السنوية قبل يوم عيد راعيكم القديس فرانسيس. وقد مرَّ الزمن وأحدثَ تغييراتِه، ومَن منكم يستطيع ألَّا يتذكَّرَ التغيرات التي حدثت في السنوات القليلة الماضية؟ ربما يكون كثيرٌ من الأولاد الذين جلسوا في هذه المقاعد الأمامية منذ سنواتٍ مضَت في بلادٍ بعيدةٍ الآن، في المداريات اللاذعة الحرارة، أو مثقلين بواجبات عملهم أو في المعاهد اللاهوتية، أو يرحلون عبر البحار التي لا تحدُّها حدود، أو ربما يكون ربهم العظيم قد استدعاهم لحياة أخرى وأعفاهم من مشقة الحياة الدنيا. ومع مرور السنين التي تجلب معها كثيرًا من التغيير إلى الأفضل أو إلى الأسوأ، ما زال طلبة هذه المدرسة يُكرِّمون ذكرى قديسهم العظيم، ويقومون كل عام بخلوتهم السنوية في الأيام التي تسبق يوم العيد الذي خصَّصته أمُّنا المقدسة الكنيسة، لحفظ اسم وصيت واحد من أعظم أبناء إسبانيا الكاثوليكية عبر العصور.

– والآن، ما معنى هذه الكلمة: الخلوة، ولماذا يعتبرها الجميع أفضل وسيلة لأي شخصٍ يريد أن يعيش حياةً مسيحية حقة أمام الله وأمام الناس؟ الخلوة، يا أعزائي الصغار، تعني الانسحاب فترةً من مشاغل الحياة، مشاغل هذه الدنيا الدائبة العمل من أجل فحص حال ضمائرنا، وللتفكر في أسرار الدين المقدس ولنفهم سبب وجودنا في هذه الدنيا فهمًا أفضل. وإنني أنوي في خلال هذه الأيام القليلة أن أعرض أمامكم بعض الأفكار فيما يختص بالأشياء الأربعة المتعلقة بآخرتنا. وهذه الأشياء كما تعلمون من دروس الوعظ هي: الموت، والحساب، والنار والجنة. وسنحاول أن نفهمها أشدَّ الفهم خلال هذه الأيام القليلة، حتى يمكنَنا أن نستمدَّ من فهمنا إياها منفعةً دائمةً لنفوسنا. وتذكَّروا يا أولادي الأعزاء أن الله قد خلقنا في هذه الدنيا لغرض واحد، ولغرض واحد فقط، هو تنفيذ إرادته المقدسة ولإنقاذ أرواحنا الخالدة، وكل ما عدا ذلك لا قيمة له، لا حاجة بنا سوى إلى شيء

واحد: خلاص الروح. ماذا يُجدي الإنسان لو كسب الدنيا جميعًا وخسر روحه الخالدة؟ آه ... صدِّقوني يا أولادي الأعزاء ليس هناك ما يعوِّض المرء في هذه الدنيا البائسة عن مثل هذه الخسارة.

– وعلى هذا سأسألكم يا أولادي الأعزاء أن تطردوا من أذهانكم خلال هذه الأيام القليلة كلَّ الأفكار الدنيوية، سواء عن الدروس أو عن اللهو أو المطامح، وأن تُركزوا انتباهَكم كلَّه في الحالة التي عليها نفوسكم. وليست بي حاجة إلى تذكيركم بأنه على كلِّ شخصٍ منكم أن يحافظ على السلوك الهادئ الورع، وأن يبتعد عن أيِّ لهوٍ غير لائقٍ خلال أيام الخلوة. وعلى الأولاد الكبار أن يراقبوا الحفاظ على هذه العادات، وإني أتطلع بصفة خاصة إلى عريفي وأعضاء جماعة السيدة المباركة وجماعة الملائكة المقدسين؛ لكي يكونوا قدوةً حسنة لزملائهم الطلبة.

– فلنحاول إذن بهذه الخلوة تكريمًا للقديس فرانسيس بكل قلوبنا وبكل عقولنا، وستحلُّ بركة الله على دروسكم طوال العام. ولكن عليكم فوق كل شيء أن تجعلوا من هذه الخلوة شيئًا يمكنكم أن ترجعوا إليه في السنوات المقبلة، حين تكونون بعيدين عن هذه المدرسة في وسطٍ مختلفٍ تمامًا، شيئًا ترجعون إليه في غبطة وعرفان، وتشكرون الله أن منحكم هذه الفرصة لوضع اللبنة الأولى لحياة مسيحية ورعة كريمة، وإذا كان هناك — كما قد يحدث — أيُّ شخص مسكين في أيٍّ من هذه الفصول في هذه اللحظات، قد أفقده الحظُّ العاثر عطفَ الإله القدسي، وسقط في أحضان الخطيئة البشعة، فإني أصلِّي وأثق غاية الثقة في أن تكون هذه الخلوة نقطةَ تحوُّل في حياة هذا الشخص، أصلِّي لله متشفعًا بفضائل خادمه «فرانسيس إكسافير»، لكي يقود هذا الشخص إلى درب التوبة الخالصة، وأن يكون التناول المقدس في يوم القديس فرانسيس من هذه السنة عهدًا أبديًّا بين الله وهذا الشخص على التوبة، فلتكن هذه الخلوة خلوةً مشهودة لَمن عدل ولمن ظلم وللقديس والخاطئ على السواء.

– ساعدوني يا إخوتي الصغار الأعزاء في الدين، ساعدوني بإنصاتكم الورع، بتكريسكم أنفسكم وبسلوككم. اطردوا من أذهانكم كلَّ الأفكار الدنيوية ولا تفكروا إلا في آخرتكم، الموت والحساب، والنار والجنة. قالت الحكمة الجامعة: مَن يتذكر هذه الأشياء فلن يُخطئ إلى الأبد. مَن يتذكر آخرته فسيعمل ويفكر واضعًا إياها نصبَ عينَيه، وسيعيش حياةً طيبة ويموت ميتةً طيبة، مؤمنًا ومدركًا أنه إن كان قد ضحى بالكثير في هذه الحياة الأرضية، فإنه سُيعطى أضعافًا مضاعفة في الحياة الأخرى، في المملكة الأبدية، وهي نعمة أرجوها لكل واحدٍ منكم يا أعزائي الصغار، باسم الآب والابن والروح القدس، آمين.

وحين كان عائدًا إلى منزله برفقة أصحابه صامتين، كان يبدو وكأنما يحوط عقلَه ضبابٌ كثيف، وانتظر في حالة من الخدر العقلي لهذا الضباب أن ينقشع ويُظهر ما كان يُخفيه. وتناول طعام الغداء بشهيةٍ كدرة. وحين انتهى الغداء وبقيَت الأطباق خاليةً إلا من بقايا الدهن على المائدة، قام وتوجَّه إلى النافذة، مزيلًا الزبد الكثيف من فمه بلسانه ولاعقًا إياه من فوق شفتيه. وهكذا انحدر إلى درك الحيوان الذي يلعق أولاده بعد الأكل. هذه هي النهاية إذن. وبدأ خيطٌ رفيع من الخوف يخترق ضباب عقله، وضغط وجهه على حافة النافذة ونظر خارجًا إلى الطريق المظلم، وعبرت أشباحٌ هنا وهناك خلال الضوء السقيم، وهذه هي الحياة، وضغطت الحروف التي تكوِّن اسمَ دبلن على عقل، يتجاذب أحدهما الآخر هنا وهناك في غلظة بإلحاح بطيء خشن. كانت روحه تتضخم وتتخثر إلى كتلة من الدهن، وتنغمس أكثر فأكثر بخوفها السقيم في ظلمة كئيبة متوحدة، بينما يقف جسده مجردًا عن الحركة وعن الشرف، ينظر من عينين مظلمتين، عاجزًا، قلقًا، آدميًّا، إلى إلهٍ سقيمٍ يتطلع إليه.

وجلب اليوم التالي معه الموت والحساب، فهزَّ روحه في بطء من يأسها الساكن. وتحوَّل خيط الخوف الرفيع إلى رعب اجتاح روحه، حين نفث صوت الواعظ الحاد الموت فيها، وعانى من ألمه. وشعر برعدة الموت تلمس أطرافه ثم تزحف نحو قلبه، وغشاوة الموت تحجب عينَيه، ومراكز الذهن البراقة تنطفئ واحدةً إثر أخرى كالمصابيح، وقطرات العرق الأخيرة، تنضح على الجلد، وعجز الأعضاء التي تموت، ثم بوهن أكثر حتى يصبح على حافة الكف عن الخفقان، والتنفس، التنفس الضعيف، الروع الآدمية الضعيفة العاجزة، تجهش وتزفر، تُقرقر، وتضج في حلق الإنسان. لا مفر! لا مفر! إنه يموت، هو نفسه، جسده الذي استسلم له يموت. أنزلوه إلى القبر، ودقُّوه في صندوق خشبي، الجثة، احملوها خارج المنزل على أكتاف مَن استأجرتموه لذلك، إلى القبر، لتتعفن، ليتغذَّى عليها الدود الزاحف وتلتهمها الفئران الجارية ذات البطون السمينة.

– «ثم تحاسب روح الخاطئ إذ يكون الأصدقاء ما يزالون يقفون دامعي العينين بجوار السرير، وفي آخر لحظة من لحظات الوعي، تمرُّ أحداث الحياة الأرضية كلها أمام رؤيا الروح. وقبل أن يكون لديها وقتٌ للتأمل، يموت الجسد وتقف الروح في رعب أمام الحساب، ويتحول الله الذي كان دائمًا رحيمًا إلى إله عادل. لقد صبر طويلًا، يساند الروح الخاطئة مفسحًا لها الوقت للتوبة وتاركًا إياها فترةً من الزمن». ولكن هذا الزمن مضى، الزمن هو أن تخطئ وأن تتمتع، الزمن هو السخرية من الله ومن تحذيرات كنيسته

المقدسة، الزمن هو تحدِّي جلالته ومخالفة أوامره، أن تخدع إخوانك، وأن ترتكب خطيئة إثر خطيئة، وأن تُخفيَ فسادك عن أعين الآخرين. ولكن هذا الزمن انقضى، وجاء الآن دور الله، ولن يخدعَه أحدٌ أو يمكر به، فتخرج كلُّ خطيئة حينئذٍ من مكمنها، تخرج أكثر هذه الخطايا تمردًا ضد إرادة الله، وأكثرها تدنيسًا لطبيعتنا الفاسدة الضعيفة، كما تظهر أقل نقيصة وأعظم المنكرات. ماذا يُجدي المرء عندئذٍ أن يكون إمبراطورًا أو قائدًا عظيمًا أو مخترعًا مدهشًا أو أعلم العالمين؟ كلُّهم سواء أمام حساب الله، فهو يكافئ الطيبين ويعاقب المسيئين. تكفي لحظةٌ واحدة لمحاسبة روح الإنسان، لحظة واحدة مفردة بعد موت الجسد وتُوضع الروح في الميزان، وينتهي الحساب الفردي وتمرُّ الروح إلى مقر السعادة أو إلى سجن المطهر أو يُقذف بها صارخةً إلى غياهب الجحيم.

ولا يقتصر الأمر على هذا، فلا بد أن تُثبَت عدالة الله أمام بني الإنسان؛ فبعد الحساب الفردي، هناك الحساب العام، لقد جاء يوم الدينونة، جاء يوم القيامة وسقطت نجوم السماء على الأرض كالتِّين الذي تُلقي به الشجرة التي هزَّتها الرياح. وأصبحت الشمس، نور الله العظيم، مثل وَبَرِ الخيش. واصطبغ القمر بلون الدماء، وطُويت السماء كاللفافة، وظهر كبير الملائكة ميخائيل، أمير أهل السماء، مجيدًا مرعبًا، في السماء، وقد وضع قدمًا على البحر وقدمًا على اليابسة، ونفخ في النفير مُعلنًا انقضاء الزمن.

وملأت الكون نداءاتُ كبير الملائكة الثلاثة. الزمن الآني، والزمن الماضي، ولكن ليس هناك زمن مستقبل. وتهرع أرواحُ البشرية جميعًا عند النداء الأخير إلى وادي «يهوشافات»، غنيُّها وفقيرها، سيدها ومسودها، حكيمها وساذجها، طيِّبُها وسيِّئها. وتجتمع في هذا اليوم الأعلى روحُ كلِّ إنسان موجود، وأرواحُ كلِّ مَن سيُولدون إلى هذا اليوم، جميع أبناء وبنات آدم، واهًا … لقد أتى يوم الحساب الأعلى! لم يَعُد حَمَل الله المحتقر، لم يَعُد يسوع الناصرة الوديع، لم يَعُد رجلَ الأحزان، لم يَعُد الراعي الطيب، بل يأتي الآن فوق السحاب، في قوته وصولجانه، تحفُّ به تسع جوقات مترنمة من الملائكة، ملائكة ورؤساء ملائكة، إمارات، قوى وفضائل، عروش وسيادات، شيروبيم وصيرافيم، الله القادر على كل شيء، الله الخالد.

ويتكلم، ويسمعون صوته في أقصى بقاع الفضاء، وفي الهاوية التي لا قرار لها، القاضي الأعلى، حيث لا نقضَ لحكمه ولا يُستطاع له من نقض. ويدعو الطيبين إلى جانبه، طالبًا منهم الدخول إلى مملكة النعيم وخلودها التي أعدَّها لهم. ويُبعد المسيئين عنه، ويصيح بهم في جلالته التي أساءوا إليها: «ارحلوا عني أيها المعلونون، إلى النار الأبدية التي أُعدَّت للشيطان وأتباعه.» آه، يا لَه من عذاب للخطاة التعساء حينئذٍ! ويفترق الصديق عن

صديقه، والأبناء عن الآباء، والأزواج عن زوجاتهم. ويبسط الخاطئ المسكين ذراعَيه نحو مَن يعزهم قلبه في الحياة الدنيا، نحو من سبقت له السخرية من تقواهم وورعهم، نحو مَن حاولوا إرشاده إلى الطريق القويم، إلى أخ رحيم، إلى أخت حبيبة، إلى الأم والأب اللذين أحبَّاه كثيرًا. ولكن سبَق السيفُ العَذَل، ويتحول العادل عن الأرواح التعسة الملعونة التي تظهر الآن أمام أعين الجميع في طبيعتها الكريهة الشريرة. آه أيها المنافقون، آه أيتها القبور البيضاء، آه يا مَن تقدِّمون للدنيا وجهًا هادئًا باسمًا، بينما داخلية نفوسكم مستنقع كريه للخطيئة، ماذا سيكون خطبكم في هذا اليوم العصيب؟

وسوف يأتي هذا اليوم، سيأتي … لا بد أن يأتي، يوم الممات ويوم الحساب. كُتب على الإنسان أن يموت ثم يُحاسَب، الموت يقين، وميعاد الموت وطريقته ليست يقينية، عن طريق المرض الطويل أو عن طريق حادثة مفاجئة، يأتي ابن الله في الساعة التي لا نتوقعها منه، لا بد أن تكون مستعدًّا إذن في أية لحظة، فأنت ترى أنك قد تموت في أي لحظة، الموت نهايتنا جميعًا، الموت والحساب، اللذان جلبهما إلى الدنيا خطيئة أبوَينا الأوَّلَين، هما الباب الذي يُغلق وجودنا الأرضي، الباب الذي يُفتح إلى المجهول والمستور، بابٌ لا بد لكل روح أن تعبرَه، وحيدة، لا عون لها إلا أفعالها الطيبة، دون صديقٍ أو أخٍ أو أبٍ أو معلِّمٍ يساندها، وحيدة ترتجف. فلنضع هذه الفكرة نصبَ أعيننا على الدوام فلا نستطيع أن نُخطئ، والموت الذي يبعث الفزع في نفس الخاطئ يكون لحظةَ نعيم لمن سار في الطريق السليم، محافظًا على الواجبات التي يفرضها عليه مكانه في الحياة، حافظًا لصلواته في الصباح وفي المساء، يؤدي شعائر التناول المقدس بين آنٍ وآخر، ويقوم بالأعمال الطيبة الرحيمة، ولا يبعث الموت الفزع في نفس الكاثوليكي التقي المؤمن، أو الشخص العادل. ألم يستدعِ الكاتب الإنجليزي العظيم «أريسون» وهو على فراش الموت الشاب الفاسد «إيرل أوف ورويك» ليُريَه كيف يقابل المسيحي نهايته؟ المسيحي التقي المؤمن وحده، هو وحده الذي يستطيع أن يقول من قلبه:

«أيها اللحد، أين انتصارك؟
أيها الموت، أين وخزتك؟»

كل كلمة كانت له. كان غضب الله موجَّهًا إلى خطيئته البشعة الخفية. لقد عملت سكين الواعظ في قرارة ضميره المكشوف، وشعر الآن بروحه تتقرح من الخطيئة. أجل، الواعظ على حق، لقد جاء دور الله، لقد ربضت روحه في قذارتها كالوحش في عرينه، ولكن نداءات

نفيرِ الملاك دفعَته خارج ظلمة الخطيئة إلى النور، وحطَّمَت كلمات القضاء التي صاح بها الملاك هدوءَه الكاذب في لحظة، وهبَّت رياح اليوم الأخير خلال عقله، وفرَّت خطاياه عاهرات خياله ذوات العيون الماسيَّة أمام العاصفة، تصيح كالجرذان الفزعة التي تحتمي بعرفة الفرس.

ووصلَت إلى أُذُنَيه المحترقتَين ضحكةٌ ناعمة لفتاة إذ هو يعبُر الميدان في طريقه إلى البيت، وأثَّر الصوت البهيج الواهن في فؤاده أكثر من نداء النفير، وتحوَّل جانبًا دون أن يقوى على رفع بصره، وحدَّق في ظلال العشب المتشابك إذ هو سائر. وطفح العار على فؤاده المصطك وغمر كيانه كلَّه، وظهرت أمامه صورة «إمَّا»، واندفع طوفان العار مرةً أخرى من فؤاده تحت تأثير عينَيها، آه لو علمت كيف استعبدها عقلُه أو كيف مزَّقت شهوتُه البهيمية براءَتها وداست عليها! أهذا هو غرام الشباب؟ أهذه هي الفروسية؟ أهذا هو الشعر؟ وعفنت تفاصيل خلاعته القذرة تحت أنفه: مجموعة الصور التي غطاها السواد والتي خبَّأها في ماسورة المدفأة، وطالما رقد في أحضان عارها أو خلاعتها المدلَّة يُخطئ بالفكر والعمل، وأحلامه الشاذة التي تزدحم بمخلوقاتٍ شبيهةٍ بالقردة وبعاهرات لهن عيون تلتمع كالجواهر، والخطابات الطويلة القذرة التي كتبها في نشوة الاعتراف المذنب، وحملها أيامًا وأيامًا ليُلقيَ بها بعد ذلك تحت ستار الليل في ركنِ حقلٍ بين الحشائش، أو تحت عتبة أحد الأبواب أو في تجويف سور، حيث يمكن أن تعثرَ عليها إحدى الفتيات أثناء تريُّضِها وتقرأَها خفية، مجنون! مجنون! هل يمكن أن يكون قد فعل هذه الأشياء حقًّا؟ وانبجس العرق البارد على جبهته حين تكثَّفت الذكريات القذرة في عقله.

وحين زال عنه ألمُ العار حاول أن ينتشل روحَه عن عجزها الكريه، كان الله والعذراء المباركة بعيدين جدًّا عنه. كان الله جدَّ عظيم وصارمًا، وكانت العذراء المباركة جدَّ طاهرة وقدسية. وتخيَّل أنه يقف بجوار «إمَّا» في أرض فسيحة، ثم ينحني في خشوع والدموع تُبلل عينَيه ويُقبِّل مرفق ردنها.

وقفَا معًا تحت سماء المساء المتألقة الحنون، وسحابةٌ تتجه إلى الغرب وسط بحر السماء الأخضر الشاحب، في الأرض الفسيحة، طفلان أذنبَا، وقد أساء خطؤهما بشدة إلى عظمة الله رغم أنه خطأ طفلين، ولكنها لم تستأ، تلك التي لا يضارع جمالُها أيَّ جمال أرضي، يُبهر الناظرين، ولكنها مثل نجم الصباح الذي هو شعارها، مشرق ومنغم. لم تكن العينان التي حوَّلَتهما نحوه تبدو فيهما الإساءة أو اللوم، وضمَّت أيديَهما وقالت مخاطبةً فؤاديهما: تصافحَا يا ستيفن و«إمَّا». إنه مساءٌ جميل الآن في السماء. لقد أذنبتما، ولكنكما

طفلاي على الدوام، إنه قلبٌ يحبُّ قلبًا آخر. تصافحَا يا طفليَّ العزيزَين، وستكونان سعيدَين معًا وسيحب قلب الواحد منكما الآخر.

غَمَرَ الضوءُ القرمزي السقيم الذي تسرَّب من الأعراش المسدلة الكنيسةَ الصغيرة. ومن الشق الصغير الذي يفصل العرش الأخير وإطار النافذة، انبعث نورٌ واهن كالرمح ولمس نحاس الشمعدانات المزخرف فوق المذبح، والذي كان يلتمع كعدة الملائكة في المعركة.

كان المطر ينهمر على الكنيسة، وعلى الحديقة وعلى المدرسة. ستُمطر إلى الأبد في هدوء، وترتفع المياه بوصةً بوصة، وتغطِّي الحشائش والأعشاب، وتغطِّي الأشجار والمنازل، وتغطِّي الشواهد وقمم الجبال. وتستحيل كلُّ مظاهر الحياة هشيمًا: الطيور والإنسان، والأفيال، الخنازير والأطفال، في هدوءٍ، وتُصبح أجسامًا تطفو في هدوء وسط نثار العالم وحطامه، وسيستمر هطول الأمطار أربعين يومًا وأربعين ليلةً حتى تغطي المياه وجه الأرض.

هذا ممكن، لمَ لا؟

– «وسَّعت الهاوية نفسها وفغرَت فاها بلا حد»، يا أعزائي الصغار، إخوتي في الدين، هذه الكلمات مأخوذة من سفر «أشعيا»، الإصحاح الخامس، الآية الرابعة عشرة، باسم الأب والابن والروح القدس، آمين.

وتناول الواعظ ساعةً بغير سلسلة من جيب ردائه الكهنوتي، وفحص قرصَها في صمتٍ ووضعها في صمتٍ أمامه على المائدة، وبدأ يتحدث في نبرة هادئة.

– كان آدم وحواء، يا أولادي الأعزاء، أبوَينا الأولَين كما تعرفون، وتذكرون أن الله خلقكم حتى تمتلئ المقاعد التي خلت في السماء بسقوط لوسيفر وملائكته المتمردين. وكان لوسيفر على نحو ما يُقَصُّ علينا «ابنَ الصباح»، ملاك مضيء قوي، ومع ذلك فقد سقط، سقط وسقط معه ثلث أهل السماء، سقط وقُذف به وبملائكته المتمردين في جهنم، وماذا كانت خطيئته؟ هذا ما لا نستطيع الجزم به. ويقول علماء اللاهوت إنها خطيئة التكبر، الفكرة الخاطئة التي ارتكبها لحظة واحدة: «نوم سيرفيام»، لن أخدم، لقد أساء إلى جلالة الله في لحظة فكر دامت لحظة، وطرده الله خارج السماء إلى جهنم إلى الأبد.

– خلق الله آدم وحواء إذن ووضعهما في عدن، في سهل دمشق، هذه الحديقة الجميلة المتألقة بنور الشمس والألوان، وتزخر بالنباتات الفاخرة، ومنحَتها الأرض المثمرة خيراتها. وكانت الحيوانات والطيور خُدَّامَهما المطيعين، ولم يعرفَا العلل التي تتعرض لها أبدانُنا ولا الأمراض ولا الفقر ولا الموت، وكان لهما كل ما كان في وسع الله العظيم الكريم أن

يُقدِّمَه لهما. ولكن الله فرض عليهما شرطًا وحيدًا: طاعة كلمته، فلم يكن لهما أن يأكلا من ثمار الشجرة المحرمة.

ولكن هيهات يا أولادي الصغار الأعزاء، فقد سقطَا هما أيضًا؛ فقد جاءهما الشيطان الذي كان يومًا ملاكًا متألقًا وابنًا للصباح ثم تحوَّل إلى شيطان مريد، جاءهما على شكل حية، أمكر الحيوانات طرًّا، لقد حسدهما، فلم يكن وهو العظيم الذي سقط ليحتمل أن يمتلك الإنسان الذي صُنع من صلصال الإرث الذي أفقدَته خطيئته إياه إلى الأبد. جاء إلى المرأة، الأضعف شأنًا من الاثنين، وصبَّ من بلاغته في أُذُنَيها سمًّا، واعدًا إياها — وآهًا لكفران هذا الوعد! — أنها إذا أكلت هي وآدم من الثمار المحرمة فسيصبحان كالآلهة، بل سيصبحان كالله نفسه. واستسلمت حواء لأحابيل كبير المخادعين، فأكلت التفاحة وأعطَتها كذلك لآدم الذي لم يكن له من الشجاعة الأخلاقية ما يمكنه من مقاومتها. وأدى لسان الشيطان السام مفعولَه، وسقطَا.

– ثم سُمع صوت الله في تلك الحديقة مناديًا الإنسان الذي خلقه ليناقشَه الحساب. وظهر ميخائيل أمير أهل السماء وفي يده سيف من اللهب أمام المذنبين وطردهما من عدن إلى الدنيا، دنيا المرض والتعب، دنيا القسوة والخيبة، دنيا العمل والمشقَّات، ليكسبا عيشهما بعرق جبينهما، وكم كان الله رحيمًا بعد كل ذلك! لقد أشفق على أبوَينا المسكينَين المحتقرَين، ووعد بأن يُرسل لهما من السماء في الوقت الضروري واحدًا، يشفع لهما ويجعلهما ابنَي الله مرةً أخرى ووريثَي مملكة السماء. وهذا الواحد، شفيع الإنسان الذي سقط، سيكون الابن الوحيد الذي يُنجيه الله، الشخص الثاني في الثالوث المقدس، الكلمة الخالدة.

– وجاء، ولدَته عذراء طاهرة، ماري الأم العذراء. وُلد في حظيرة أبقار رثة في «يهودا». وعاش ثلاثين سنة نجارًا متواضعًا حتى حانَت ساعة رسالته، وخرج ساعتَها وقد أفعمه حبُّ الإنسانية ودعا الناس لسماع البشارة الجديدة.

– وهل أنصتوا له؟ أجل أنصتوا ولكن لم يستمعوا لندائه، وأمسكوه كالمجرمين، وسخروا منه كالحمقى، وباعوه ليشتروا لصًّا محكومًا عليه بالموت، وجلدوه خمسة آلاف سوط، وتوَّجوه بتاجٍ من الأشواك، وساقوه في الطرقات وسط غوغاء اليهود وجنود الرومان، ونزعوا عنه ملابسه وعلَّقوه في المشنقة، وضربوا جانبه بالحراب، وتدفَّقت المياه والدماء من جسد ربنا المثخن بالجراح.

– وحتى في هذا الوقت، في ساعة الألم العلوي هذه، شعر شفيعنا الرحيم بالشفقة على بني الإنسان، حتى في هذا المكان، على تلِّ الجلجلة، أسس الكنيسة الكاثوليكية المقدسة

التي جاء الوعد بأن طاقات جهنم لن تقوى عليها، أسَّسها على صخور العصور، ومنحها من روحه الكريمة ومن المقدسات والتضحيات، ووعد بأنه إذا أطاع الناس كلمة الكنيسة سيُفتح لهم باب الحياة الأبدية، ولكن إذا سدروا في غيِّهم بعد كل ما فُعل من أجلهم، فلن يبقى لهم سوى أبدية العذاب: الجحيم.

ووهَنَ صوتُ الواعظ، وصمت، وشبَّك راحتَيه لحظةً ثم فرَّقهما واستأنف كلامه: والآن، فلنحاول أن نتصور لحظة حسب قدرتنا طبيعة مقر الملعونين الذي أعدَّته عدالة الرب المستاء لعقاب الخاطئين. الجحيم سجنٌ ضيقٌ مظلمٌ كريه الرائحة، مقر المردة والأرواح الضائعة، مليء بالنيران والدخان، وقد قصد الله ضيق هذا السجن خصيصًا لمعاقبة مَن رفض أن تحدَّه قوانينه، وفي سجون الدنيا، يكون للأسير المسكين بعضُ حرية الحركة على الأقل، حتى لو كان ذلك بين جدران زنزانته الأربع أو في فناء السجن، ولكن ليس كذلك الحال في الجحيم، فهناك يتكوَّم المساجين بعضهم فوق بعض في سجنهم الرهيب بفعل عدد الملعونين الضخم، ويقال إن سُمْك جدران هذا السجن يبلغ أربعة آلاف ميل، وتبلغ درجة تقييد الملعونين وعجزهم شدة أن القديس المبارك «آنسلم» ذكر في كتابه عن المشابهات أنهم لا يستطيعون حتى أن يُبعدوا عنهم دودة تقرض عيونهم.

وهم يرقدون في ظلام يحوطهم من كل جانب، فتذكَّروا أن نيران الجحيم ليس لها نور، فكما فقدت نيران النير البابلي حرارتَها ولم تفقد ضوءَها بأمرٍ من الله، كذلك تتَّقد نيران الجحيم إلى الأبد في ظلام بينما تحتفظ بشدة سعيرها بأمرٍ من الله، فتكون عاصفة لا نهاية لها من الظلمة، لهيب مظلم، ودخان كبريت محترق مظلم، وتتراكم في وسطه الأجساد واحدًا فوق الآخر دون فرجة هواء، ومن بين الرزايا التي ابتُليت بها قديمًا أراضي الفراعنة لم يكن هناك أفظع من الظلمة، فماذا نُسمِّي إذن ظلمة الجحيم التي لا تدوم ثلاثة أيام فقط بل إلى الأبد.

وتزيد الرائحة الفظيعة هذا السجن الضيق المظلم بشاعةً، فكما يُحكى لنا، سوف تنصرف كلُّ قاذورات العالم، كل نفايات الدنيا وقمامتها إلى هذا المكان، كما تنصرف إلى بالوعة ضخمة قذرة، وذلك حين يطهر العالم حريق اليوم الأخير الهائل، كذلك يملأ الكبريت الذي يحترق هناك في كميات هائلة الجحيم برائحته التي لا تُطاق، بينما تزفر أجساد الملعونين رائحة وبائية تكفي زفرة منها — كما يقول القديس «بون أفنتير» — لكي تنتقل العدوى إلى العالمِ كلِّه، وهواء دنيانا ذاته — هذا العنصر النقي — يصير إذا انحبس فترةً لا تطيقه الصدور، فتصوروا إذن كيف يكون كدر هواء الجحيم، وتصوروا جثة كدرة

متعفنة قد بقيت مدةً تتحلَّل في القبر حتى أصبحت مثل كتلة هلامية من العفونة السائلة، تصوروا مثل هذه الجثة وقد أصبحت فريسةً للنيران، وقد شوَّهها لهبُ الكبريت المحترق ويُرسل تحللها المغثي الكريه دخانًا خانقًا كثيفًا. ثم تصوروا بعد ذلك هذه الرائحة النتنة الكريهة، وقد تضاعفت ملايين وملايين المرات من ملايين وملايين الجثث العفنة المكومة فوق بعضها البعض في الظلمة المبخرة، فطرٌ بشريٌّ ضخمٌ متعفنٌ، تصوَّروا كلَّ هذا تكُنْ لكم فكرة عن رائحة الجحيم.

– ولكن هذا النتن رغم بشاعته ليس أعظم ما يتعرض له الملعونون من عذاب جسماني، «فعذاب النار هو أعظم العذابات التي استعبد بها أيُّ طاغية إخوانه من البشر». ضع إصبعك لحظةً في لهب شمعة، فتشعر بألم النار، غير أن نيران أرضنا قد خلقها الله لنفع الإنسان، لتحفظ عليه شعلة الحياة وتُعينه في الصناعات النافعة، بينما لنيران الجحيم صفة مختلفة، وقد خلقها الله لتعذيب وعقاب الخاطئ الذي لا يتوب، وكذلك تلتهم نيران دنيانا مادتها على حسب قابلية هذه المادة للاشتعال، حتى إن المهارة البشرية قد نجحت في ابتكار مستحضرات كيميائية لمنع أثرها أو تخفيفه. ولكن مادة الكبريت الذي يلتهب به الجحيم صُممت خصيصًا لتظل مشتعلة إلى الأبد في شدة لا تُماثلها شدة. وفوق ذلك، فإن نيران أرضنا تُدمر الشيء الذي تحرقه، حتى إنه كلما كانت شدتُها أكبرَ كانت مدة استعمالها أقصر، ولكن لنيران الجحيم صفة تجعلها تُبقي على ما تحرق، وبالرغم من أنها تشتعل بقوة لا تُصدَّق، فهي تشتعل إلى الأبد.

– وكذلك فإن مدى نيراننا الأرضية محدودٌ دائمًا، مهما كانت درجة قوتها أو انتشارها، ولكن بحيرة نيران الجحيم لا حدود لها، لا شواطئ لها، ولا يُعرف لها قرار. وقد جاء في الألواح أن الشيطان ذاته حين سأله أحد الجنود، اضطر إلى أن يعترف أنه إذا أُلقي جبل بأكمله في هوَّة الجحيم المشتعل، فسوف يحترق في لحظة مثل قطعة الشمع، ولن تحرق هذه النيران الفظيعة أجساد الملعونين من ظاهرها فقط، بل ستكون كلُّ روح ضالة جحيمًا لنفسها، وتتلظَّى شريانات حياتها بالنيران المتقدة فيها. آه، ما أفظع نصيب هذه المخلوقات البائسة. الدماء تتقلَّى وتغلي في العروق والمخ يغلي في الجمجمة، وتتوهج القلوب في الصدور وتنفجر، وتستحيل الأمعاء كتلة ملتهبة كاللباب المحترق، وتتوهج العيون الرقيقة كالكرات المنصهرة.

– ورغم ما قلتُه عن قوة هذه النار وصفاتها واتساعها، فهي لا تعتبر شيئًا حين تُقاس إلى درجة عنفها، درجة من العنف تتناسب مع طبيعتها كأداةٍ اختارَتها الحكمة

الإلهية للعقاب البدني والروحي على السواء. إنها نارٌ تستمد عنفها من غضب الله مباشرة، ولا تعمل من تلقاء نفسها بل كأداة للانتقام الإلهي. وكما يُطهر ماء العماد الروح بينما هو يطهر الجسد، كذلك تُعذب نيرانُ العقاب الروح إذ هي تُعذب الجسد. وهي تعذيبُ كلِّ عضو من أعضاء الحس في الجسد وكل ملكات الروح، فالعيون يغمرها ظلامٌ دامسٌ لا يُنفذ إليه، وتَزْكُم الروائحُ الكريهة الأنوف، وتصطخب الآذانُ بالصيحات والصراخ واللعنات، والذوق بالمذاق الكريه والوسخ النجس والقاذورات الخانقة التي لا مسميات لها، واللمس بالمناخس والمسامير الملتهبة وألسنة اللهب القاسية. ومن خلال العذاب الذي تتعرض له وسائل الإحساس، تتعذب الروح الخالدة إلى الأبد في ذات جوهرها وسط الفراسخ والفراسخ من النيران المشتعلة، التي تلهبها في هوَّة الجحيم جلالة الإله القادر المستاء، وتُهدهدها زفرات غضب الله العظيم إلى مزيد من الديمومة والشدة.

– وأخيرًا تصوروا زيادة عذاب هذا السجن الجهنمي عن طريق المعلونين أنفسهم. ففي دنيانا هذه، تكون الصحبة الشريرة ضارة، حتى إن النبات بسليقته يبتعد عن صحبةِ كلِّ ما هو ميت منه أو ضار للبقية، وفي الجحيم تنعكس كلُّ القوانين، ولا تكون هناك فكرة عن الأسرة أو الوطن أو عن الصلات أو العلاقات، ويُعوِّل الملعونون ويصرخون في وجه بعضهم البعض، ويزيد من عذابهم وحنَقِهم وجودُهم إلى جوار أناس يتعذبون ويحنقون مثلهم تمامًا. ولا وجود هناك لأيِّ إحساس إنساني. وتملأ صرخات المعذبين الخطاة الهوَّة السحيقة حتى أقصى أركانها، وتفعم أفواه الملعونين بالكفر ضد الله وبالكراهية تجاه زملائهم المعذَّبين وباللعنات ضد الأرواح التي شاركَتهم خطيئتهم. وكانت العادة في الأزمنة القديمة عقاب قاتل أبيه، وهو الرجل الذي يرفع يده القاتلة في وجه أبيه، إنزاله إلى أعماق البحر في جوال ومعه ديك وقرد وحية، وكانت وجهة منظر المشرِّعين الذين صاغوا هذا القانون الذي يبدو قانونًا قاسيًا في أيامنا هذه، هي عقاب المجرم بصحبته للحيوانات المؤذية الكريهة، ولكن ما قيمة أثر هاته الحيوانات الخرساء بالقياس إلى أثر اللعنات، التي تنهال من شفاه الملعونين المحترقة وحلوقهم المقعية في الجحيم، حين يتعرفون في إخوان شقائهم هؤلاء الذين ساعدوهم وعاونوهم على الخطيئة، هؤلاء الذين بذرت كلماتُهم البذور الأولى للأفكار الشريرة والحياة الشريرة في أذهانهم، هؤلاء الذين قادَتهم اقتراحاتهم الطامعة إلى مدارج الخطيئة، هؤلاء الذين أغرَتهم عيونهم واجتذبَتهم عن مسارح الفضيلة، ويتحولون نحو هؤلاء الشركاء، زاجرين ولاعنين إياهم، ولكنهم يائسون عاجزون، فقد فات أوان التوبة.

– وتصوروا أخيرًا العذاب الرهيب الذي ستُلاقيه الأرواح الملعونة، مَن أغرى غيره ومَن استسلم للإغراء على السواء، على يدي أصحاب الشيطان، وسيعذِّب هؤلاء الشياطين الملعونون بطريقتين: بالصحبة وباللوم. وتقصر أفكارنا عن إدراك فظاعة هؤلاء الشياطين. ولقد رأت القديسة كاترين السيناوية شيطانًا ذات مرةً، وكتبت بعد ذلك تقول إنها تفضِّل أن تسير طوال حياتها على طرقٍ من الفحم المشتعل، على أن تنظر مرةً أخرى لمدة لحظة واحدة إلى مثل هذا الوحش المرعب. لقد أصبح هؤلاء الشياطين الذين كانوا في يوم من الأيام ملائكة جميلي الطلعة، على قبحٍ وبشاعةٍ تُعادلان درجة جمالهم القديم، وهم يسخرون ويهزءون من الأرواح الضالة التي جروها إلى مدارج الهلاك. وهذه الشياطين الكريهة هي أصوات الضمير في الجحيم، لماذا أخطأت؟ لماذا استمعت إلى إغراءات أصدقائك؟ لماذا تحوَّلت عن سُبُلِك الورعة وأعمالك الطيبة؟ لماذا لم تتجنب دواعي الخطيئة؟ لماذا لم تترك هذه الصحبة الشريرة؟ لماذا لم تهجر هذه العادة الداعرة، هذه العادة القذرة؟ لماذا لم تستمع إلى نصائح مَن تعترف له؟ وحتى بعد أن سقطت للمرة الأولى أو الثانية أو الثالثة أو الرابعة للمرة المائة، لماذا لم تَتُب عن وسائلك الشريرة وتتحول إلى الله الذي ينتظر توبتك ليغفر لك خطاياك؟ والآن لقد فات أوان التوبة. هناك الزمن الآتي والزمن الماضي، ولكن ليس هناك زمن مستقبل! الزمن معناه الخطيئة خفية، الانغماس في الحمأة، الزهو، اشتهاء المحرمات، الاستسلام لدوافع الطبيعة الدنيا في الإنسان، الحياة مثل الحيوانات، بل أسوأ منها؛ لأنها مجرد بهائم وليس لها من الحجَى ما تعقل به؛ هناك زمنٌ ماضٍ، ولكن لن يكون هناك زمن مستقبل أبدًا. لقد تحدث الله إليك عن طريق كثير من الأصوات ولكنك لم تستمع، لم تكن لتسحقَ هذا الزهو وهذا الغضب من قلبك، لم تكن لتُعيد ما أخذته عن غير حق، لم تكن لتطيع أوامر كنيستك المقدسة ولا تحافظ على واجباتك الدينية، لم تكن تهجر رفاقك الخبيثين، ولم تكن لتترك تلك المغريات الخطرة. هكذا تكون لغة هؤلاء المعذبين الشياطين، كلمات زجر وتعنيف، كلمات كراهية واشمئزاز، أجل، اشمئزاز؛ لأن الشياطين أنفسهم حين أخطئوا فقد أخطئوا خطيئة تتناسب مع طبيعتهم الملائكية، تمرد الفكر، وحتى هم، هؤلاء الشياطين الكريهون يتحوَّلون ازدراءً وثورةً عن التأمل في هاته الخطايا التي تجلُّ عن الوصف، والتي ينتهك الإنسان الحقير معبد الروح القدس بارتكابها، منتهكًا ومدنسًا نفسه.

– آه يا صغاري الأعزاء، إخوتي في الدين، فليكن من نصيبِ كلٍّ منا ألَّا نستمع إلى هذا الزجر. أقول فليكن من نصيبنا، إني أصلِّي بحرارةٍ إلى الله حتى لا يكونَ أيُّ روح

فرد من الموجودين في هذه الكنيسة اليوم ضمن المخلوقات البائسة، التي سيدعوها القاضي الأعظم إلى الرحيل من أمام عينَيه إلى الأبد، وحتى لا يسمعَ أيٌّ واحد منا عبارةَ النبيذ الرهيبة تُجلجل في أُذُنَيه: «ارحلوا عني أيها الملعونون، إلى النار الأبدية التي أُعدَّت للشيطان وأتباعه!»

وسار ستيفن من مكانه في الكنيسة وساقاه ترتجفان وفروة رأسه ترتعد كما لو مسَّتها أصابع الجان. وارتقى الدَّرج وسار في الممر بين الجدران التي عُلقت عليها المعاطف وواقيات المطر كالمجرم المشنوق دون رأس، تقطر، ودون شكل. وكان يخشى عند كل خطوة أن يكون قد مات، وأن تكون روحه قد انتزعَت من غمد الجسد، وأنه يثبُ رأسًا في الفضاء.

لم يكن باستطاعته أن يثبِّت ساقَيه على الأرض. وجلس في تثاقلٍ إلى دُرجه، وفتح أحدَ كُتُبه بطريقة عشوائية وعكف عليه. كانت كل كلمة موجهة إليه، وهذا حق. الله عظيم، له أن يدعوه إليه الآن، يدعوه إذ هو يجلس إلى قِمَطره قبل أن يُتاح له وقت يتنبَّه فيه إلى الدعوة. لقد دعاه الله، أجل؟ ماذا؟ أجل؟ واقشعر بدنُه حين شعر باقتراب ألسنة اللهب النهمة. وجَمُد حين شعر دورة الهواء الخانق من حوله، لقد مات. أجل، لقد حوسب، واجتاحت بدنَه موجةٌ من النيران، واحدة ثم موجة أخرى. وبدأ مخُّه يتوهج، وأخرى، وأخذ مخُّه يئزُّ ويجيش داخل الجمجمة المتشققة، وانبجس اللهبُ من جمجمته مثل نبات «النورة»، يصرخ في شيء يُشابه أصوات: الجحيم! الجحيم! الجحيم! الجحيم!

وتحدَّثت أصوات بقربِه:

– إلى الجحيم.

– أعتقد أنه قد دفع بكل ذلك إلى رءوسكم.

– ويا لَه من دفع! لقد سبَّب لنا جميعًا خوفًا عظيمًا.

– هذا ما تستحقون، حتى تعملوا.

وانحنى إلى الخلف في قِمَطره في ضعف. لم يَمُت، لقد أمهله الله رغم ذلك. كان لم يزَل في عالم المدرسة المألوف. وكان مستر «تيت» و«فنسنت هيرون» يقفان أمام النافذة يتحدثان ويمزحان ويتطلعان إلى المطر الكئيب في الخارج، وهما يهزَّان رأسَيهما:

– أتمنى أن يصفوَ الجو، فقد عزمتُ على القيام برحلة على الدراجات مع بعض الرفاق إلى «مالاهايد»، ولكن ستكون الطرق مليئة بالأمطار.

– قد يصفو الجو يا سيدي.

وهدهدَت الأصوات التي يعرفها جيدًا من روحه، الكلمات المألوفة، وهدوء الفصل: حين تصمت الأصوات ويملأ السكون صوت الماشية الرقيق، وهي ترعى الكلأ حين يأكل الأولاد الآخرون طعامهم في هدوء.

ما زالت أمامه فرصة، آه يا مريم، يا ملاذ الخاطئين، تشفَّعي له! آه أيتها العذراء الطاهرة، أنقذيه من وهدة الموت!

وبدأ درس الإنجليزية بامتحانٍ في التاريخ. ومرَّت الشخوص الملكية، والمحظيات والمتآمرون والأساقفة مثل الأشباح الخرساء خلف نقاب أسمائها. ماتوا جميعًا، وحوسبوا جميعًا. ما نفع الإنسان لو كسب الدنيا جميعًا وخسر روحه؟ لقد فَهِم أخيرًا، وانبسطَت حوله الحياة الإنسانية، وأدَّى السلام حيث يعمل الناس مثل النمل في أخوة، بينما ينام موتاهم على التلال الهادئة، ومسَّه مرفق ذراع زميله وتأثَّر فؤاده، وحين تكلَّم ليرد على سؤال المدرِّس، سمع روحه مغمغمةً بهدوء الندامة والانسحاق.

وغاصَت روحه إلى أعماق الهدوء، لا تحتمل بعد ذلك معاناة آلام الخوف، وترسل صلاةً واهنة إذ هي تغوص. أجل، ما زالت أمامه مهلة، بإمكانه أن يتوب في أعماق قلبه ويغفر الله له، ثم يرى الأعلون في السماء ماذا سيفعل للتعويض عن ماضيه، حياة كاملة، كل ساعة من ساعات هذه الحياة، ما عليكم سوى الانتظار.

– كلها يا إلهي، كلها، كلها!

وأتى رسولٌ إلى الباب ليُعلن أن الاعتراف جاهزٌ الآن في الكنيسة. وغادر أربعة أولاد الغرفة، كما سمع آخرين يهبطون إلى الردهة. وأحاطت قلبَه برودةٌ راعدة، ليست في قوتها أكثر من ريح خفيفة، غير أنه بدا كما لو أنه وضع أُذُنَه على عضلة قلبه، إذ هو يُنصت ويتألَّم في سكون، فيشعر بهذه البرودة قريبة واهنة، ويُنصت إلى رفيف القلب.

لا مفر، لا بد أن يعترف، أن ينطق بما فعله وبما فكَّر فيه في كلمات، خطيئة إثر خطيئة. كيف؟ كيف؟

– أيها الأب، إني ...

واخترقَت الفكرةُ جسدَه الرقيق كالنصل البارد اللامع: الاعتراف. ولكن لن يكون ذلك أبدًا في كنيسة المدرسة الصغيرة. سوف يعترف بكل شيء، كل خطيئة اقترفها أو جالَت في خاطره، بإخلاص، ولكن لن يكون ذلك بين رفاق مدرسته، سوف يهمس بعاره بعيدًا عنهم في أحد الأماكن المظلمة. وتضرع إلى الله في خشوع ألَّا يغضب منه؛ لأنه لم يجرؤ على الاعتراف في كنيسة المدرسة. وفي هوان روحي تام طلب في صمتٍ مغفرةَ القلوب الصبيَّة التي تحوطه.

ومرَّ الوقت.

وجلس ثانيةً في الصف الأول من الكنيسة الصغيرة. وكان نور النهار قد بدأ يَذبُل في الخارج. وإذ كان الضوء يتسرب من خلال الأعراش الحمراء السقيمة، بدا كما لو كانت شمس اليوم الأخير تغرب، وقد تجمَّعت الأرواح كلها ليوم الحساب.

– «إنني قد نُبذت بعيدًا عن عينَيك.» كلماتٌ مأخوذة يا صغاري الأعزاء إخوتي في الدين، من كتاب المزامير، الإصحاح الثلاثون، الآية الثالثة والعشرون، باسم الآب والابن والروح القدس، آمين.

وبدأ الواعظ يتحدث في لهجة هادئة ودود. كان وجهه عطوفًا وقد عقد أصابعَ كلِّ يدٍ من يدَيه في لطف، وقد شكَّلت وحدةُ أطرافها هيئةَ القفص الواهن.

– حاولنا هذا الصباح في تأملاتنا عن الجحيم أن نُقيمَ ما يدعوه راعينا المقدس في كتابه عن التمرينات الروحية: تركيب المكان. أي إننا قد حاولنا أن نتصور في مخيلاتنا بوسائل الحس العقلية الصفة المادية لهذا المكان المخيف، والعذابات الجسمانية التي يتحملها ساكنو الجحيم جميعًا. أما هذا المساء فسوف نتأمل قليلًا طبيعة العذابات الروحية للجحيم.

– تذكروا أن الخطيئة منكرٌ ذو حدَّين، فهو خضوع حقير لنوازعِ طبيعتنا الفاسدة نحو الغرائز الدنيا، لكلِّ ما هو فظٌّ حيوانيٌّ، وهي أيضًا تحول عما تُشير به علينا طبيعتُنا العليا، تحول عن كلِّ ما هو طاهر مقدس، تحول عن الله المقدس ذاته؛ ولهذا السبب تُعاقب الخطيئة العظمى في الجحيم بطريقتين مختلفتين، طريقة جسمانية وطريقة روحية.

وأعظم كل هذه الآلام الروحية آلام الخسران الشديدة القوة، حتى إنها في الحقيقة في حدِّ ذاتها أعظم من العذابات الأخرى مجتمعة. يقول القديس توماس، نطاسي الكنيسة العظيم، النطاسي الملائكي كما يُدعى، إن أشد اللعنات سوءًا توجد هنا، في تجريد حجَى الإنسان كليةً من النور الإلهي، وفي تحول عواطفه في عنادٍ عن كمال الله. وتذكروا أن الله كيانٌ كاملٌ كمالًا مطلقًا، وعليه تكون خسارة هذا الكيان خسارةً مؤلمةً ألمًا مطلقًا. وليس لنا في هذه الحياة من فكرة واضحة عما ستكون عليه مثل هذه الخسارة، ولكن سيُدرك الملعونون في الجحيم إدراكًا كاملًا ما خسروه بسبب خطاياهم، وأن خسارتهم إياه خسرانٌ بائنٌ لا رجوع فيه، مما يزيد من عذابهم.

ففي ذات لحظة الموت، تنكسر أغلال الجسد فتاتًا وتطير الروح على الفور إلى الله، كما لو تطير إلى مركز وجودها. تذكَّروا يا أولادي الأعزاء الصغار أن أرواحنا تتوق إلى جوار الله. لقد أتينا من الله، ونحيا بالله، ونخص الله، إننا مِلكه، ملكه ملكية مطلقة. الله يحب

كل روح حبًّا إلهيًّا، وكل روح إنسانية تحيا في هذا الحب. وكيف يكون الأمر غير هذا؟ كل نسمة نستنشقها، كل فكرة تعبر أذهاننا، وكل لحظة من لحظات الحياة تصدر عن كمال الله الذي لا ينفد. ولئن كان يؤلم الأم أن تفترق عن وليدها، والرجل أن يبتعد عن مدفأته وعن بيته، والصديق أن يفترق عن صديقه، إذن تصوروا آلام الروح المسكين وأشجانه وهو يتأمل بعيدًا عن حضرة الخالق الكامل كمالًا ساميًا، المحب الذي دعا تلك الروح من الوجود إلى العدم وأعانها على الحياة وأحبَّها حبًّا لا يمكن إدراكه. وحين تفترق تلك الروح إلى الأبد عن كمالها العظيم، عن الله، وتشعر بآلام هذا الفراق، وتُدرك تمامًا أن الحال لن يتبدل، يكون هذا أعظم عذاب يمكن أن تتحمله الروح المخلوقة، «باينا دامني»، ألم الخسران.

أما الألم الثاني الذي سوف يعذب أرواح الملعونين في الجحيم فهو ألمُ الضمير، فكما تتكاثر الديدان في الأجسام الميتة عن طريق التعفن، كذلك سوف تتعذب أرواح الخاسرين عذابًا مستمرًّا من عفن الخطيئة، ووخز الضمير، دودة الوخز المثلثة كما دعاها البابا إينوسنت الثالث، ستكون أول وخزة تخزها هذه الدودة القاسية هي ذكرى المسرات السابقة. آه! يا لَها من ذكرى مروعة في وسط اللهب الذي يدمر كلَّ شيء، سيتذكر الملك الجبار بلاطه، ويتذكر العالِم الخبيث مكتباتِه ووسائلَ بحثه واطلاعه، ويتذكَّر المغرم بالمسرات الفنية تماثيلَه الرخامية وصِوَره وغيرها من الذخائر الفنية، ويتذكر مَن كان يبتهج بمسرات الطعام موائدَه الحافلة والأطباق ذات الذوق الجميل والأنبذة المختارة، وسيتذكر البخيل أكداسَ ذهبه، والسارق ثروتَه غير المشروعة، والقتلة الغضبَى المنتقمون القساة الأعمالَ العنيفة الدموية التي عاشوا فيها فسادًا، ويتذكر الملوثون الزناة ما أبهجهم من مسرات قذرة لا تُوصف. سوف يتذكر الجميع كل هذا، وسوف يزدرون أنفسهم ويزدرون خطاياهم، فكم ستبدو هذه المسرات سافلة في عين الأرواح، التي حُكم عليها بالعناء في نيران الجحيم دهورًا ودهورًا. كم سيهتاجون وينفثون أحزانهم حين يُدركون أنهم خسروا سعادة السماء من أجل نفاية الأرض، من أجل قطعٍ معدنية قليلة، من أجل تكريم زائف، من أجل راحة جسمانية، من أجل إثارة للأعصاب، سوف يندمون حقًّا وتكون هذه هي الوخزة الثانية لدودة الضمير، أسفٌ متأخرٌ لا يُجدي عن الخطايا التي ارتُكبت. وتصر العدالة الإلهية على أن يتركز فكرُ هؤلاء التعساء الأشقياء دومًا على الخطايا التي اقترفوها، وفوق ذلك، كما يبين القديس «أوغسطين»، سوف يبعث الله فيهم إدراكه الخاص للخطيئة، حتى تظهر لهم خطاياهم بجماعِ شرِّها البشع، كما تظهر في عين الله نفسه. سوف يشاهدون خطاياهم في أتمِّ بشاعتها ويندمون، ولكن لات ساعة ندم، فيعولون أسفًا على

الساعات الطيبة التي أهملوها فيما مضى. وهذه هي آخر وخزة من وخزات دودة الضمير وأكثرها عمقًا وقسوة. سيقول الضمير: كانت أمامك الفرصة والوقت للتوبة، ولكنك لم تَتُب، لقد أنشأك والدك نشأةً دينية، وكانت مقدسات الكنيسة وأعمالها وجلالها في عونك، وكان لديك أتباع الله يعظونك ويقودونك للهدى إذا ضللت، ويغفرون لك خطاياك مهما كانت كثرتها ومهما كان نكرها، لو أنت اعترفت وتُبْت، كلَّا، لم تفعل ذلك، بل سخرت من أتباع الدين المقدس، وأدرتَ ظهرك للاعتراف، وتمرغت أكثر فأكثر في حمأة الخطيئة. وقد استدعاك الله، وهددك، وابتهل إليك أن تعود إليه. آه، يا لَلعار ويا للشقاء! لقد ابتهل إليك حاكمُ الكون وأنت مخلوق من طين، لكي تُحبَّه وهو صانعك، ولكي تحافظ على قوانينه. كلَّا، لم تفعل، والآن لو أنك أغرقت الجحيمَ كلَّه بدموعك إن كان ما يزال باستطاعتك البكاء، لن يُكسبك هذا البحر من الندم ما قد كان بإمكانِ دمعةِ ندمٍ صادقٍ واحدة تُراق في أيام الحياة الدنيا أن تُكسبَك إياه. وتتضرع الآن من أجل لحظة من الحياة الدنيا تتوب فيها ولكن هيهات. لقد فات هذا الوقت، فات إلى الأبد.

– هكذا تكون وخزة الضمير ذات الأبعاد الثلاثة، الثعبان الذي يفري قرار فؤاد التعساء في الجحيم حتى يملأَهم بالهياج الجحيمي، فيلعنون أنفسهم لحماقتهم ويلعنون صحابهم الأشرار الذين جلبوا عليهم هذا الخراب، ويلعنون الشياطين الذين أغرَوهم في الحياة ثم سخروا منهم في الأبدية، بل إنهم يلعنون ويسبُّون الكيان الأعلى الذي ازدروا كماله واصطباره واستهانوا بهما، ولكنهم لا يستطيعون تجنُّبَ عدالته وقوته.

– والألم المثالي الذي يتعرض له الملعونون هو ألمُ الامتداد، فالإنسان في هذه الحياة الدنيا رغم ما يستطيع ارتكابه من شرور، لا يستطيع ارتكابها كلها في لحظة واحدة، فكلُّ شرٍّ يُصحح شرًّا آخر ويُبطل مفعوله كما يفعل السم في سمٍّ آخر، ولكن يحدث عكس ذلك في الجحيم، فبدلًا من أن يُبطل نوع من العذاب عذابًا آخر، يُضفي عليه قوة أشد. وكما أن الملكات الداخلية أشد كمالًا من الحواس الخارجية، كذلك فلها قابلية أكثر للمعاناة، وكما تتعرض كلُّ وسيلة من وسائل الحس بما يناسبها من العذاب، كذلك يكون حال كل ملكة من ملكات الروح، فيُعذب الخيال بالصور الفظيعة، والإحساس بتراوح من اللهفة والهياج، والعقل والحجى بظلمة داخلية أشد رعبًا من الظلمة الخارجية التي تسود هذا السجن المخيف. ورغم لا فاعلية الحقد الذي يسيطر على هذه الأرواح الشيطانية، فهو يكمن في شر الامتداد الذي لا حدود له، الديمومة غير المحدودة، حالة مخيفة من الخور لا نكاد نتحقق منها إلا إذا أدركنا نكرَ الخطيئة ومدى كراهية الله لها.

– ثم هناك ألمُ الحدة في مقابل ألمِ الامتداد رغم أنه مواكبٌ له، والجحيم هو مركز الشرور. وكما تعرفون، تشتد حدة الأشياء في مراكزها عنها في أطرافها البعيدة، وليس هناك من أضداد أو أمزاج من أي نوع لتلطِّف من آلام الجحيم أو تخفِّفها على أيِّ وجهٍ من الوجوه. كلَّا، بل إن الأشياء الطيبة في حد ذاتها تنقلب شرًّا في الجحيم، فالصحبة التي هي مصدر راحة للمعذبين في كل مكان تنقلب هناك إلى مصدر دائم للعذاب، والمعرفة التي يشتاق إليها الجميعُ كخير العقل الرئيسي تُصبح مكروهة هناك كراهية الجهل، والضوء الذي تشتهيه جميعُ المخلوقات ابتداءً من سيد الخلق إلى أصغر نبات في الغابة سوف يزدرى جد الازدراء، وتكون آلامنا في هذه الحياة الدنيا إما غير بالغة الطول أو غير بالغة العنف؛ لأنه إما أن تغلبَها الطبيعة بالتعود عليها أو تُنهيها بالاستسلام لثقلها، ولكن عذابات الجحيم لا يمكن أن يغلبها التعود؛ لأنه في الوقت الذي تكون فيه بالغة الحدة تكون في ذات الوقت ذات أشكال متغيرة باستمرار، فيستمد كلُّ ألم نارًا من الألم الآخر ويُضفي الثاني على الأول نيرانًا أشدَّ قسوةً واضطرامًا.

ولا يمكن كذلك أن تفرَّ الطبيعة من هذه العذابات الحادة المختلفة بالاستسلام لها؛ لأن الروح تزداد وتتساند في شرورها حتى يزدادَ عظمُ آلامها. امتدادٌ لا حدَّ له من العذاب، حدةٌ لا تُصدَّق من الآلام، أنواع لا نهائية من وسائل التعذيب، هذا ما تمليه الجلالة الإلهية التي أغضبها الخطاة، هذا ما تتطلبه قداسةُ السماء التي ازدراها العصاة حبًّا في مسرات الجسد الفاسد الشهوانية الحقيرة، هذا ما تُصر عليه دماء حَمَل الله البريء الذي أُريق شفاعةً للخطاة وداس عليه أسفل السافلين.

– وآخر العذابات وأعظمها في هذا المكان المخيف هو أبدية الجحيم، أبدية؟ آه، يا لها من كلمة شديدة مرعبة: أبدية! أي عقل إنساني يمكن أن يفهمَها؟ وتذكروا أنها أبدية للألم كذلك، وحتى لو لم تكن آلام الجحيم على ما هي عليه من الفظاعة لأصبحت غير محدودة نظرًا لأنه مقدرٌ لها الاستمرار إلى الأبد. ولكن في الوقت نفسه الذي تكون فيه أبدية فهي — كما تعرفون — حادةٌ حدةً لا تُحتمل وعنيفةٌ عنفًا لا يُطاق. وحتى لو قاسى المرءُ من وخزة حشرة من الحشرات طوال الأبدية، لكفى بهذا من عذاب أليم، فماذا يكون الحال إذن في معاناة عذابات الجحيم المتعددة إلى الأبد؟ إلى الأبد! إلى أبد الآبدين! ليس سنةً أو دهرًا بل إلى الأبد. حاولوا أن تتصوروا بشاعة هذا المعنى. لقد رأيتم مرارًا الرمال على الشاطئ، كم لطيفة ذراتها الدقيقة! وكم عدد من هذه الذرات الصغيرة يملأ كف الصبي الصغير في لهوه. تصوروا بعد ذلك جبلًا من هذه الرمال ارتفاعه مليون ميل، يرتفع من

الأرض إلى السماء السابعة، وعرضه مليون ميل، يمتد إلى أقصى الفضاء، وسُمْكه مليون ميل. وتصوروا أن مثل هذا العدد الهائل الذي لا يُحصى من ذرات الرمال، قد تضاعف بعدد ما هناك من أوراق على الشجر، وبعدد قطرات مياه المحيط الهائل، وبعدد ريش الطيور، وقشور الأسماك، وشعر الحيوانات، وذرات الهواء العريض المترامي، وتصوروا أن طائرًا صغيرًا يأتي عند نهاية كل مليون سنة إلى هذا الجبل، ويحمل في منقاره ذرةً دقيقةً من رماله. كم تمرُّ من ملايين فوق الملايين من القرون، قبل أن يحمل مثل هذا الطائر مجردَ قدم مربع من هذا الجبل، وكم يمرُّ أيونات فوق أيونات الدهور قبل أن يحمله كله؟ ومع هذا، ففي نهاية هذه الحقبة الزمنية الهائلة لا يمكن القول بأنه قد مرت ولا لحظة واحدة من الأبدية، ولا تكاد تكون الأبدية قد بدأت بعد مرور هذه البليونات والترليونات من السنين. فإذا ارتفع هذا الجبل مرةً أخرى بعد أن يتم نقله، وإذا عاد الطائر ثانيةً وبدأ في نقله مرةً أخرى ذرةً وراء ذرةٍ، وإذا استمرت هذه العملية بعدد النجوم في السماء والذرات في الهواء وقطرات المياه في البحار، والأوراق على الشجر والريش على الطيور، والقشور على الأسماك، والشعر على الحيوانات، فبعد كل هذا النقل والارتفاع مرات لا تُحصى ولا تُعد لهذا الجبل العريض الهائل، لا يمكن القول بأن لحظةً واحدةً من الأبدية قد مرت، بل إنه عند نهاية هذه الحقبة، بعد هذه الحقبة الأيونية التي يَحارُ فيها الفكر، لا تكاد الأبدية تكون قد بدأت بعد.

– وقد تمثَّل قديس مبارك مرةً صورةً للجحيم (وكان واحدًا من آباء الجزويت كما أعتقد)؛ فقد بدا له كأنه يقف في وسط ردهة عظيمة مظلمة، ساكنة إلا من دقات ساعة ضخمة. واستمرت الدقات بغير توقف، وبدا لهذا القديس أن صوت الدقات كان تكرارًا مستمرًّا للكلمات: أبدًا، مطلقًا، أبدًا مطلقًا، أبدًا في الجحيم، مطلقًا في الجنة، مبعد عن طلعة الله أبدًا، ولا يتمتع بالرؤية المباركة مطلقًا، تُساط بالنيران ويقرض فيك الدود وتُنخس بالحراب المشتعلة أبدًا، ولا تتحرر من هذه الآلام مطلقًا، يكون ضميرك مثقلًا والذكرى مؤلمة والعقل مفعمًا بالظلمة واليأس أبدًا، ولا تستطيع من كل هذا فرارًا مطلقًا، تسبُّ وتلعن أبدًا الشياطين الكريهة التي تشهد شقاء مَن وقعوا في حبائلها في شهوة شيطانية، ولا تشهد أردية الأرواح المباركة البراقة مطلقًا، تصيح أبدًا من هوَّة النيران متضرعًا من أجل لحظةٍ واحدةٍ من الراحة من هذا الألم المخيف، ولا تتلقى مطلقًا ولو لحظة واحدة عفوًا من الله، تتألم أبدًا، ولا تتمتع بشيء مطلقًا، ملعونٌ أبدًا، ولا سبيل إلى الإنقاذ مطلقًا، أبدًا، مطلقًا، أبدًا، مطلقًا، آه، يا لَه من عذاب مخيف! أبدية من الآلام اللانهائية، من العذاب الجسدي والروحي اللانهائي، دون شعاع واحد من الألم، دون لحظة راحة واحدة من الألم

الذي لا نهاية لحدَّته، من عذابٍ لا حدود لتنوعاته، من تعذيبٍ يُبقي أبدًا ما يدمِّره، من أَسًى ينقضُّ دومًا على الروح بينما هو ينهش الجسد، أبديةٌ كل لحظة فيها في حد ذاتها أبدية من العذاب. هذا هو العقاب المخيف الذي أعده الله العادل القدير لكل من مات وهو خاطئ.

– أجل، الله العادل! فالإنسان الذي يقتصر تفكيرُه على الحدود الإنسانية، يعجب من أن يخصص الله عقابًا أبديًّا ومطلقًا في نيران الجحيم، لكل من ارتكب خطيئةً كبيرة واحدة، وهو يفكر بهذه الطريقة لأن أوهام الجسد الحمقاء وظلمة الفهم الإنساني قد أعمَته، فهو لا يستطيع إدراك شر الخطيئة الكبرى البشع، وهو يفكر بهذه الطريقة لأنه عاجزٌ أن يُدرك أن الخطيئة البسيطة لها طبيعة منكرة بشعة، حتى إنه إذا كان الله القادر على كل شيء لينهي الشقاء والشر من العالم، الحروب والسرقات والجرائم والموت والقتل مقابل أن يترك خطيئةً صغيرة واحدة تمرُّ دون عقاب، خطيئةً بسيطة واحدة مثل كذبة أو نظرة غضب أو لحظة كسل مقصودة، لما كان يفعل ذلك وهو الله العظيم القدير؛ لأن الخطيئة سواء كانت في الفكر أو في العمل هي خرقٌ لناموسه، ولا يكون الله إلهًا إن لم يُعاقب خارق الناموس.

– وقد تسبَّبت خطيئةٌ واحدة، لحظة من كبرياء الفكر المتمرد، في سقوط لوسيفر وثلث أهل السماء من أمجادهم، وخطيئةٌ واحدة، لحظة حماقة غضب أخرجت آدم وحواء من عدن، وجلبت الموت والشقاء على العالم. وقد نزل ابن الله الوحيد إلى الأرض ليُصلح ما فسد من جراء هذه الخطيئة، وعاش وتألم ومات أشنع ميتة بعد أن تعلَّق ثلاث ساعات على الصليب.

– آه يا صغاري الأعزاء إخوتي في يسوع المسيح، هل نُسيء إذن إلى هذا الشفيع الطيب ونُثير غضبه؟ هل ندوس ثانيةً على الجسد الممزق المقطَّع؟ هل نبصق على هذا الوجه المليء بالألم والحب؟ هل نسخر نحن أيضًا كاليهود القساة والجنود الطغاة من هذا المخلِّص العطوف الذي وطئ من أجلنا معاصر الألم؟ كل كلمةٍ من كلمات الخطيئة جرحٌ في جنبه الرقيق. كلُّ عمل من أعمال الخطيئة شوكةٌ تخرق رأسه، كلُّ فكرة غير طاهرة يستسلم لها المرء عن قصدٍ رمحٌ حادٌّ تخترق هذا القلب المقدس الحنون، كلَّا! كلَّا، مستحيلٌ أن يفعل أي مخلوق آدمي ما يسيء إلى الجلالة المقدسة بهذا القدر، ما يستحق عليه العقاب الأبدي، ما يُعيد صلب ابن الله ويجعل منه أضحوكة.

– أضرع إلى الله أن تكون كلماتي الضعيفة قد أفادت اليوم في تأكيد القداسة في النفوس الطيبة، وفي تقوية الإيمان المزعزعة، وأن يُعيد النفس الضعيفة التي ضلَّت إلى

طريق الهداية، إن كان بينكم مثل هذه النفس. أضرع إلى الله، واضرعوا أنتم أيضًا معي، حتى نتوب عن خطايانا.

سأطلب منكم الآن، كلكم، أن تُردِّدوا ورائي نصوص العهد، راكعين هنا في هذه الكنيسة المتواضعة في حضرة الله. إنه هناك في الهيكل يشتعل حبًّا للبشرية، على استعداد لإراحة المعذبين، لا تخافوا، مهما يكن عدد خطاياكم ومهما تكن بشاعتها، فسيغفر لكم إن تبتم عنها. لا تذروا الخجل الدنيوي يُمسك بكم عن التوبة. الله هو الإله الرحيم الذي لا يرغب في الموت الأبدي للخاطئ، بل يرغب في الهداية والبقاء على قيد الحياة.

– إنه يدعوكم إليه، إنكم له، خلقكم من لا شيء. لقد أحبكم كما يحب الإله. إن ذراعَيه مفتوحتان لتقبِّلكم حتى لو كنتم قد أخطأتم في حقه. تعالَوا إليه يا أيها الخطاة المساكين، أيها الخطاة المساكين المذنبون المغرورون، الآن هو الوقت المناسب، الآن وقت التوبة.

ونهض القس، واستدار إلى المذبح ثم جثَا على عتبة الهيكل، وسط ما ساد من وجوم. وانتظر حتى جثا كلُّ مَن كان بالكنيسة، وسكتَت آخر ضجة فيها، ثم رفع رأسه وتلا نصَّ العهد، جملةً جملة في حمية. وردَّد الأولاد ما تلاه جملةً جملة، وأحنى ستيفن رأسَه وقد التصق لسانه بحلقه، وأخذ يصلِّي بمجامع فؤاده.

– يا إلهي!

– يا إلهي!

– إنني آسفٌ من قلبي.

– إنني آسفٌ من قلبي.

– لأنني قد أسأت إليك.

– لأنني قد أسأت إليك.

– وإنني أبغض خطاياي.

– وإنني أبغض خطاياي.

– فوق كل الشرور الأخرى.

– فوق كل الشرور الأخرى.

– لأنها تُغاضبك يا إلهي.

– لأنها تُغاضبك يا إلهي.

– أنت يا مَن تستحق.

– أنت يا مَن تستحق.

– كل حبي.

– كل حبي.
– وإنني أنوي مخلصًا.
– وإنني أنوي مخلصًا.
– بمعونتك المقدسة.
– بمعونتك المقدسة.
– ألَّا أُسيء إليك ثانيةً أبدًا.
– ألَّا أُسيء إليك ثانيةً أبدًا.
– وأن أصلح من حياتي …
– وأن أصلح من حياتي …

وصَعِد إلى غرفته بعد العشاء حتى يخلوَ إلى روحه، وبدَت روحُه كما لو كانت تزفر مع كل خطوة، صَعِدت روحُه مع قدمه عند كل خطوة، تزفر في صعودها خلال منطقة لزجة من الجهامة.

وتوقَّف في الرواق الذي يقود إلى الباب، ثم أمسك بالمقبض القيشاني وفتح الباب بسرعة، وانتظر في خوفٍ وروحه تنحلُّ في داخله، يصلِّي في صمتٍ حتى لا يمسَّه الموت؛ إذ هو يطأ مدخل الغرفة، وحتى لا تسيطرَ عليه الشياطين التي تسكن الظلمات. ومع ذلك بقيَ عند المدخل كما لو كان مدخل كهف مظلم، كان ممتلئًا بوجوه وعيون كلها تنتظر وتراقب. وهتف به صوتٌ غامضٌ من الظلمة.

– بالطبع كنَّا نعلم تمامًا أنه بالرغم من اكتشافها، فسيجد صعوبةً كبيرة في محاولة إغراء نفسه لتحاول تأكيد السلطة الروحية؛ ولذلك كنَّا نعلم تمامًا.

وظهرَت له وجوهٌ تُهمهم وتُراقب، ملأت همهمات الأصوات سقف الكهف. وغمر الخوف بدنه وروحه، ولكنه خطا إلى داخل الغرفة بثباتٍ وقد رفع رأسه في شجاعة، مدخل الباب، والغرفة، نفس الغرفة، نفس النافذة، وقال لنفسه في هدوء إن هذه الكلمات التي بدأت ترتفع مهمهمةً في الظلمة لا معنى لها على الإطلاق. وقال لنفسه إن الغرفة غرفته ببابها المفتوح.

وأغلق الباب، وسار بخفة إلى الفراش، وجثا بجواره وغطَّى وجهه بيدَيه. وكانت يداه باردتَين رطبتين، وآلَمَته برودةُ أطرافه. وأقضَّ مضجعَه التعبُ الجسماني والبرودة والإعياء، وأثار أفكاره. لماذا هو جاثٍ هناك كالطفل يتلو صلواته؟ لكي يخلوَ إلى روحه، ليتفحص

ضميره، لكي يُواجه خطاياه وجهًا لوجه، لكي يستعيدَ أوقاتها ووسائلها وظروفها، لكي يبكيَ عليها. ولم يستطع البكاء، ولم يستطع أن يستعيدَها إلى ذاكرته. لم يشعر إلا بضنى الروح والجسد، وشعر بكيانه كله وذكرياته وإرادته وإدراكه وجسده مخدرًا تعبًا.

كان هذا من فعل الشيطان لكي يبدد أفضل أفكاره ويُثقل ضميره. يهاجمه على أبواب الجسد الجبان الذي أفسدَته الخطيئة، وزحف إلى فراشه وغطَّى نفسه بالملاءة جيدًا وغطَّى وجهه ثانيةً بيديه، وصلى إلى الله في وجلٍ لكي يغفر له ضعفه. لقد سقط في الخطيئة. لقد أخطأ حتى أُذُنيه في حق السماء وأمام الله، حتى إنه لا يستحق أن يُدعَى ابن الله.

هل من المتصور أنه هو ستيفن ديدالوس، هو الذي فعل هذه الأشياء؟ وزفر ضميره زفرة الجواب. أجل، لقد فعلها هو، خفية، في دنس، مرةً بعد مرةٍ، وأعماه عصيانه الخاطئ، وجَرُؤَ على ارتداء مسوح القداسة أمام الهيكل المقدس ذاته، بينما روحه في الداخل كتلة حية من الفساد. كيف لم يُرْدِه الله قتيلًا؟ وأحاطت به مجموعة خطاياه تزفر حوله، وتجثم فوق أنفاسه من كل الأنحاء. وحاول أن ينساها بالصلاة، وقد جذب أطراف جسمه على بعضها وأغلق جفنَيه، ولكن وسائل الحس في روحه ظلت مفتوحة، فرأى الأماكن التي أخطأ فيها رغم أن عينَيه كانتا مغلقتَين بشدة، وسمع خطاياه رغم أن أُذُنَيه كانتا مغلقتَين بإحكام. لقد رغب بكل ما لديه من إرادة ألَّا يرى وألَّا يسمع، واجتاحَته الرغبة حتى ارتجف تحت وطأة رغبته، وحتى أغلقت وسائل الحس في روحه منافذها. أُغلقت لحظة ثم فتحت أبوابها ثانيةً، ورأى …

حقلٌ من الطفيليات والعوسج وحزمات القريض المجزوزة. وبين جزز النباتات الجامدة الكريهة الرائحة ترقد عُلَب الشاي، والدماء المتخثرة ودوائر الروث الجامدة ملقاة هنا وهناك. ويجاهد نورٌ واهنٌ من بين كل هذه القاذورات من خلال الطفيليات الشوكية الخضراء. وانبعثت في خمول رائحةٌ نتنةٌ واهنةٌ كالنور من بين علب الشاي ومن الروث العفن الجامد.

وكانت هناك مخلوقات أخرى في الحقل. واحد، ثلاثة، ستة، مخلوقات تتحرك في الحقل هنا وهناك. مخلوقات ماعزية[٣] ذات وجوه بشرية، ذات قرون وذقون خفيفة ورمادية في لون المطاط، يلتمع مكر الشر في عيونها الجامدة، وهي تتحرك هنا وهناك، وتجرُّ وراءها

[٣] كناية عن الدعر والفسق.

ذيولها الطويلة. وكان يضيء وجوهها النحيلة فتحة أفواهها ذات الغل القاسي. وكان واحدٌ منها يقبض على زنارٍ ممزقٍ من قماش الفانلة حول ضلوعه، وآخر يتشكى في رتابة وقد التصقَت لحيتُه بالطفيليات المجزوزة. وكانت الكلمات اللينة تصدر عن شِفاهها الخالية من اللعاب، وهي تحفُّ في دوائر بطيئة وتدور مقتربة أكثر فأكثر حتى لتُطبق، حتى لتُطبق، والكلمات اللينة تصدر عن شفاهها، وذيولها الطويلة الهفهافة ملطخة بالروث العفن، وتقذف بوجوهها المرعبة إلى أعلى ...

النجدة!

وقذف عنه الملاءات في جنون ليحرر وجهه ورقبته. هذا هو جحيمه، لقد أراه الله الجحيم الذي ينتظره عقابًا له على خطاياه: جحيمٌ نتنٌ، بهيمي، خبيث، جحيمٌ من الشياطين الداعرة الماعزية. من أجله! من أجله.

وقفز من الفراش والعبير البخاري ينصبُّ في حلقه، ويُثقل على أمعائه ويُثيرها، هواء! هواء السماء! وتعثَّر في خطاه نحو النافذة، يئنُّ من الإعياء ويكاد يُغشى عليه، وعند الحوض تملَّكه تشنجٌ داخلي، وتقيَّأ كثيرًا في ألمٍ وهو يُمسك جبهته الباردة في عنف.

وحين استنفدت النوبة نفسها سار بضعفٍ نحو النافذة ورفع فروازها، وجلس في ركنٍ من الكوَّة وارتكز بمرفقه على مقدمة الشباك. كان المطر قد انقطع، وكانت المدينة تنسج حول نفسها غشاءً من الهالة الصفراء من بين الأبخرة المتحركة من منطقة نور إلى منطقةِ نورٍ أخرى. كانت السماء لمَّا تزل مضيئة في وهنٍ والهواء طيب الأنفاس، كهواء الدغل الذي أدركَته شآبيبُ المطر. وعاهد قلبه عهدًا وسط الهدوء والأنوار المتألقة والأريج الهادئ.

وصلَّى:

– «لقد انتوى مرةً أن ينزل إلى الأرض في مجده السماوي ولكننا أخطأنا، فلم يستطع أن يزورنا في أمانٍ إلا في جلالة متخفية وضياء مغطًّى لأنه هو الله؛ ولهذا جاء بنفسه في ضعفٍ وليس في قوة، وأرسلك وأنت مخلوق مكانه، في عذوبة بشرية وفي تألق يلائم حالتنا، والآن فإن وجهك وهيئتك يا أمي العزيزة يحدِّثنا عن «الأزل»، ليس كالجمال الأرضي الخطر رؤياه، ولكن كنجم الصباح الذي هو شعارك، لامع منغم، يتنسم الطهر، ويحكي عن السماء ويبعث السلام، آه يا بشير النهار، آه يا هداية الحاج! ارشدينا كما أرشدتنا دائمًا. اهدينا من الليل البهيم عبر البرية الكئيبة إلى سيدنا يسوع، اهدينا إلى مستقرنا».

وأظلمت الدموعُ عينَيه، ورفع بصره إلى السماء في خضوع وبكى طهره الذي خسره.

وغادر المنزل حين أقبل المساء، وأثارت أول لمسة للهواء المظلم الرطب وضجة الباب وهو يُغلق خلفه الألم في ضميره ثانية، وكانت الصلوات والدموع قد هدهدته. اعترف! اعترف! لا يكفي هدهدةُ الضمير بالدموع والصلاة. لا بد أن يجثوَ أمام تابع الروح القدس ويعترف بخطاياه الخبيثة في صدق وندم، ولا بد أن يكون قد جثَا واعترف قبل أن يسمع ثانيةً دورة الباب على المدخل حين ينفتح لاستقباله، وقبل أن يرى المائدة وقد أُعدت للعشاء في المطبخ مرةً أخرى.

وتوقَّفت آلام الضمير، وسار إلى الأمام في خفةٍ خلال الطرق المظلمة. كان هناك صواري أعلام عديدة في هذا الطريق، وطرق كثيرة في هذه المدينة، ومدنٌ كثيرة في العالم. ولكن الأبدية لا نهاية لها. لقد وقع في الخطيئة الكبرى، بل إن الخطيئة الواحدة خطيئة كبرى، يمكن أن تحدث في لحظة واحدة.

ولكن بأي سرعة؟ بالرؤية أو التفكير بالرؤية. ترى العينان الشيء دون أن تكونا قد رغبتا أولًا في أن ترياه، ثم يحدث ذلك في لحظة، ولكن هل يعقل هذا الجزء من الجسد أم ماذا؟ الحية، أكثر الحيوانات مكرًا. لا بد أن تعقلَ ما ترغب فيه في لحظة واحدة ثم تمدَّ في رغبتها لحظة وراء لحظة، في خطيئة، فهي تشعر وتعقل وترغب. يا لَه من شيء مرعب! مَن الذي جعله هكذا، جزءًا بهيميًّا من الجسد يعقل بطريقة بهيمية ويرغب بطريقة بهيمية! أيكون ساعتها هو أم شيئًا غير إنساني تُحرِّكه روح أدنى؟ وغمر السقم روحه حين جالت بخاطره حياة خدرة ملتوية، تُغذِّي نفسها على لباب حياته الرقيق، وتمنُّ على قاذورات الشهوة. آه، لماذا كان ذلك كذلك؟ لماذا؟

وانتفض في ظلال هذه الأفكار، محقِّرًا نفسَه في خوف الله الذي خلق كلَّ شيء، وخلق كل إنسان، جنون مَن يفكر في مثل هذا؟ وانتفض في الظلمة والقبح، وصلى في صمتٍ إلى ملاكه الحارس حتى يمتشقَ حسامَه، ويطرد به الشيطان الذي يوسوس إليه.

وانقطعَت الوسوسة، وأدرك بوضوح أن روحه قد أخطأت في الفكر وفي العمل عمدًا عن طريق جسده. اعترفْ! لا بد أن يعترف بكل خطيئة. كيف يمكن أن ينطق لسانه بما فعله إلى القس؟ لا بد لا بد، أو كيف يتأتى له أن يشرح ذلك دون أن يموت من الخجل؟ أو كيف فعل مثل هذه الأشياء دون خجل! رجل مجنون! اعترف! لا بد من ذلك حتى يعود حرًّا دون خطايا مرةً أخرى! ربما يُدرك القس ذلك! آه يا إلهي العزيز!

وسار إلى الأمام في طرقٍ ضعيفةِ الإضاءة، يخشى أن يتوقف لحظةً حتى لا يبدوَ محجمًا عما ينتظره، ويخشى أن يصل إلى ما يشتاق إليه. كم هي جميلة لا بد أن تكون تلك الروح الطاهرة حين ينظر الله إليها في حب!

كانت فتيات قذرات يجلسنَ على حافة الطريق خلف سلالهن، وقد تهدَّل شعرهن الرطب فوق حواجبهن. لم يكنَّ جميلات المنظر؛ إذ يربضن بين القاذورات، ولكن الله يرى أرواحهن، وإذا كانت أرواحهن طاهرة يكنَّ مشرقات المنظر، ويحبهن الله حين يراهنَّ، وهبَّت على روحه نسمةُ هواء مدمر كئيب، ما أقسى أن يفكر كيف سقط، وما أقسى أن يشعر هذه الأرواح أحب إلى الله من روحه، وهبَّ عليه النسيم، وتخطَّاه إلى آلاف الآلاف من الأرواح الأخرى التي تسطع عليها محبة الله، شديد حينًا وقليل حينًا آخر، وأنجم بارقة آنةً وآنة أخرى معتمة. تسبح وتهوي. وخطت الأرواح البارقة أيضًا، تستقيم وتهوي. وتنضوي في زفرة متحركة. روح واحدة ضائعة، روحٌ دقيقةٌ، روحه. اهتزت شعلتها مرةً ثم انطفأت، منسية، ضائعة. النهاية، يباب أسود بارد ماحٍ.

وعاد إليه إحساسه بالمكان منحسرًا في بطءٍ في رقعة طويلة من الزمن، مظلمًا غائبًا عن الشعور، غائبًا عن الحياة، واتخذ المنظرُ القذر شكلًا من حوله، اللهجات الشعبية، مصابيح الغاز المشتعلة في الحوانيت، رائحة السمك والخمر ونشارة الخشب المبتلة والرجال والنساء يروحون ويجيئون. وكانت امرأةٌ عجوزٌ توشك على عبور الطريق وصفيحة غاز في يدها. وانحنى وسألها إن كانت هناك كنيسة قريبة.

– كنيسة يا سيدي؟ أجل يا سيدي، كنيسة شارع «تشيرش».

– «تشيرش»؟

ونقلت الصفيحة إلى يدها الأخرى وأشارت له، وبينما كانت تبسط يدها المعروقة القذرة من تحت أهداب وشاحها، انحنى أكثر نحوها وقد أحزنه صوتها وهدَّأ من خاطره.

– شكرًا لك.

– عفوًا يا سيدي.

كانت شموع المذبح المرتفع قد انطفأت! غير أن عبير البخور كان لا يزال يفوح في أسفل البناية المعتم. كان بعض عمال ملتحين ذوي وجوه ورعة يُخرجون ظلةً من باب جانبي، والقندلفت يساعدهم بإشارات وكلمات هادئة، وكان قليلٌ من المؤمنين ما زالوا يصلون في مهلٍ أمام مذبحٍ جانبيٍّ، أو يجثون في الصفوف قريبًا من أماكن الاعتراف.

واقترب في وجلٍ وجَثَا في آخر صفٍّ، حامدًا هدوء الكنيسة وسكونها وظلالها العبقة. وكان اللوح الذي جثَا عليه ضيقًا متآكلًا، وكان الجاثون بقربه من أتباع يسوع الرقيقي الحال. لقد وُلد يسوع فقيرًا كذلك وعمل في حانوت نجار يقطع عروق الخشب ويسويها، وأول ما تكلم عن مملكة الله كان للصيادين الفقراء، وقد علَّم بني الإنسان جميعًا أن يكونوا ودعاء بسيطي القلوب.

وأحنى رأسه فوق يديه، داعيًا قلبه أن يكون وديعًا بسيطًا حتى يصبح مثل الجاثين حوله، ولكي تتقبل صلاته كما تتقبل صلاتهم، ورغم أنه يصلي بجوارهم إلا أن ذلك كان صعبًا. كانت الخطيئة تملأ روحه قذارة، ولم يجرؤ على طلب الغفران في ثقةٍ بمثل ما يفعل هؤلاء الذين دعاهم يسوع إلى جانبه أول ما دعا بوسائل الله الخفية، النجارين والصيادين والفقراء البسطاء الذين يعملون في مهنٍ وضيعةٍ كقطع الخشب وتشكيل أخشاب الأشجار وإصلاح شباك الصيد في صبر.

ومرَّ شخصٌ طويلٌ من أمام الجانب الأقصى من الكنيسة، وسرَت حركةٌ بين التائبين. ونظر أمامه بسرعةٍ في آخر لحظة ولمح لحيةً طويلةً شهباءَ ورداء الكابوتشين[٤] البُنيَّ اللون، ودخل القس القبو واختفى فيه. ونهض تائبان ودخلا مكان الاعتراف من كلا الجانبَين، وانزاح الحاجز الخشبي، وأزعجت السكون همهمة خافتة. وبدأ دمه يُهمهم في عروقه، همهمةً مدنيةً خاطئة دعيت من سباتها لتسمع الحكم بموتها. وسقطَت نتفٌ صغيرة من اللهب، وسقط رمادٌ مسحوقٌ في رقة، سقط على مساكن البشر. وتحركوا، واستفاقوا من سُباتهم وقد أزعجهم الهواء الساخن.

وأُغلق الحاجز ثانيةً، وخرج التائب من جانب القبو، وجُذب الحاجز الآخر، ودخلت امرأةٌ في هدوء وخفة إلى حيث كان يجثو التائب الأول، وارتفعت الهمهمة الخافتة مرةً أخرى.

ما زال بإمكانه مغادرة الكنيسة. باستطاعته أن ينهض ويضع قدمًا أمام الأخرى، ويخرج في هدوء ثم يجري، ويجري ويجري مسرعًا خلال الطرقات المظلمة. ما زال بإمكانه أن يهرب من العار. لو أنها كانت أي جريمة مخيفة أخرى غير هذه الخطيئة بعينها! لو أنها كانت القتل! وسقطت نتفٌ صغيرةٌ ملتهبة وأحرقته في جميع الأنحاء، وأفكار مخجلة، وأفعال مخجلة. وغطَّاه العارُ كلُّه مثل الرماد الناعم المتوهج الذي يتساقط باستمرار. أيصوغ كل هذا في كلمات! لسوف تتوقف روحه عن الوجود مختنقة عاجزة.

وأُغلق الحاجز ثانيةً، وخرج تائبٌ من جانب القبو القصي، وفُتح الحاجز القريب، ودخل تائب مكان التائب الآخر الذي خرج لتوه، وطافت ضجةٌ هامسة رقيقة في غيمات متبخرة إلى خارج القبو، كانت هي المرأة: غيمات متبخرة رقيقة، بخار هامس رقيق، يهمس ويختفي.

[٤] رداء القسس الفرنسيسكان.

ودقَّ صدرُه بقبضةِ يدِه في وداعة وخفية. سوف يكون في وفاقٍ مع الآخرين، ومع الله في ستار المتكأ الخشبي. سوف يحب جاره، وسوف يحب الله الذي خلقه والذي يحبه. سوف يجثو ويصلِّي مع الآخرين ويكون سعيدًا. وسوف ينظر الله إليه وإليهم ويحبهم أجمعين. من السهل أن يكون طيبًا، إن نير الله عذبٌ وخفيف. من الأفضل ألَّا يكون المرء قد أذنب على الإطلاق، أن يكون المرء طفلًا على الدوام، فإن الله يحب الأطفال الصغار ويجعلهم يأتون إليه. الخطيئة شيءٌ مرعب محزن، ولكن الله رحيم بالخطاة المساكين الذين يتوبون توبةً صدوقًا، ما أصدق ذلك! هذه هي الطيبة حقًّا.

وأُغلق الحاجز فجأة، وخرج التائب، وحل عليه الدور، ونهض في رعب وسار تلقائيًّا إلى القبو.

لقد حانت اللحظة أخيرًا، وجثَا في الظلمة الداكنة، ورفع عينَيه إلى مشهد الصلب المعلَّق فوقه، يستطيع الله أن يرى أنه قد تاب. سوف يحكي كل خطاياه. سيكون اعترافه طويلًا طويلًا، وسيعرف كلُّ من في الكنيسة أي خاطئ كان، فليعرفوا. هذا صحيح، ولكن الله وعد أن يغفر له إن هو تاب. وهو قد تاب، وعقد يدَيه ورفعهما نحو المشهد الأبيض، يصلي بعينَيه المظلمتين، يصلي بكل جسده المرتعد، يهزُّ رأسه جيئةً وذهابًا مثل المخلوق الضائع، يصلِّي بشفاه المتقطعة الصوت:

– آسف! آسف! آسف.

وارتفع الحاجز الخشبي، وتقلَّص قلبُه داخل صدره. وظهر وجهُ قسٍّ عجوز عند الكوة، شائحًا عنه، مرتكزًا على إحدى ذراعيه، ورسم علامة الصليب وطلب من القس أن يباركَه لأنه قد أخطأ.

ثم تلا «الاعتراف» في خوف وقد أحنى رأسه، وتوقف عند عبارة «خطيئتي الشديدة النكران» لاهث الأنفاس.

– متى كان آخر اعتراف لك يا ولدي؟

– منذ فترة طويلة يا أبي.

– منذ شهر يا ولدي؟

– أكثر يا أبي.

– ثلاثة شهور يا ولدي؟

– أكثر يا أبي.

– ستة شهور؟

– ثمانية شهور يا أبي.

لقد بدأ، وسأله القس:

– وماذا تذكر منذ هذه الفترة؟

وبدأ يعترف بخطاياه: القداسات التي أهملها، والصلوات التي لم يؤدِّها، والأكاذيب.

– شيءٌ آخر يا ولدي؟

خطايا الغضب وحسد الآخرين، والشَّرَه، والغرور، والعصيان.

– شيءٌ آخر يا ولدي؟

لا مفرَّ، وتمتم: لقد ارتكبت خطيئة الإثم يا أبي.

ولم يُدر القس رأسه.

– وحدك يا ولدي؟

– و... مع الآخرين.

– مع النساء يا ولدي؟

– أجل يا أبي.

– هل كنَّ متزوجات يا ولدي.

لم يكن يعرف، وتدفقت خطاياه من فمه واحدةً وراء الأخرى، تدفقت في نقاط دنسة من روحه، منبثقة تنز مثل القرح، تيار خطيئة دنس، ونزَت آخر الخطايا في قذارة ودنس، ولم يَعُد هناك ما يقال من خطايا، ونكس رأسه، مغلوبًا على أمره.

وكان القس صامتًا، ثم سأل:

– كم عمرك يا ولدي؟

– ستة عشر عامًا يا أبي.

ومرَّر القس يدَه عدة مرات على وجهه، ثم ارتكز بجبينه على يده، ومال نحو الكوَّة وتحدث في بطءٍ، ولَّما تزَل عيناه مخفوضتَين، وكان صوته واهنًا هرمًا.

قال: إنك صغيرٌ جدًّا يا ولدي. إني أتضرع إليك أن تترك هذه الخطيئة. إنها خطيئةٌ مرعبة، فهي تقتل الجسد وتقتل الروح، وهي سببُ كثيرٍ من الجرائم والمصائب. اتركها يا ولدي بحق الرب، إنها هادرةٌ للكرامة والرجولة، لا تستطيع التكهن بما ستقودك إليه هذه العادة أو متى ستنقلب ضدك. وطالما ترتكب هذه الخطيئة يا ولدي المسكين، فلن تساوي ذرة واحدة في عين الله. صلِّ إلى أمنا ماري لمساعدتك. ولسوف تساعدك يا ولدي. صلِّ إلى ماري المباركة حين تخطر هذه الخطيئة على بالك، إني واثقٌ أنك ستفعل هذا، أليس كذلك؟

إنك نادمٌ على كل هذه الخطايا. إنني واثقٌ من ذلك، وسوف تَعِد الله الآن أنك لن تُسيء إليه بعد ذلك بهذه الخطيئة، بمساعدة نوره المقدس. سوف تَعِد هذا الوعد المقدس لله، أليس كذلك؟

– أجل يا أبي.

ونزل الصوتُ الهَرِم الواهن بردًا وسلامًا على قلبه المرتجف المتيبس. يا لَه من صوت عذب حزين!

– افعل ذلك يا ولدي المسكين، لقد أضلك الشيطان. ادفع به ثانيةً إلى الجحيم حين يُغريك بإهدار كرامة جسدك بهذه الطريقة، إنه الروح الكريه الذي يُبغض إلهنا. فلتعد الله الآن أنك ستترك هذه الخطيئة، هذه الخطيئة البائسة، البائسة.

وأحنى رأسه وقد أعمَته دموعُه ونور عطف الله، وسمع كلمات الإبراء الرصينة تُتلى، ورأى يد القس ترتفع فوقه علامة على الغفران.

– باركك الله يا ولدي، صلِّ من أجلي.

وجثَا ليتلوَ صلاةَ التوبة في ركن من الكنيسة مظلم. وصَعِدت صلواته إلى السماء من قلبه المصفَّى كالعطر الذي يفوح عاليًا من قلب وردة بيضاء.

وكانت الطرق الموحلة بهيجة. سار بخطوات واسعة إلى البيت، يشعر بطلاوة داخلية تتخلل أطرافه وتُزيل ثقلها. لقد فعلها رغم كل شيء. لقد اعترف وغفر له الله. لقد عادت روحه جميلةً مقدسةً مرةً أخرى، مقدسة وسعيدة.

جميلٌ أن يموت المرء الآن إذا أراد الله ذلك. جميلٌ أن يحيا المرء بطلاوةٍ حياةً هادئة فاضلة متزنة مع الآخرين.

وجلس بالقرب من النار في المطبخ، لا يجرؤ من فرط سعادته على الكلام، لم يعرف حتى هذه اللحظة كم من الممكن أن تكون الحياة جميلةً وهادئة، وعكست الورقة الخضراء المثبتة حول المصباح ظلًّا رقيقًا. كان هناك طبقٌ من السجق والبوذنج الأبيض على المطبقية، وبيض على الرف، معدٌّ لإفطار الصباح بعد تناول القربان المقدس في كنيسة المدرسة. بوذنج أبيض وبيض وسجق وأقداح الشاي. كم الحياة جميلة وبسيطة على كل حال! وأمامه تمتد الدنيا.

ونام في حلم، ونهض في حلم، ورأى الصباح وقد أقبل. وفي حلمٍ يقظٍ ذهب إلى مدرسته في الصباح الهادئ.

وكان الأولاد كلهم هناك، يجثون في أماكنهم، وجثَا بينهم سعيدًا خجلًا، وغطت المذبح أكوامٌ من الزهور البيضاء الفوَّاحة، وبدَت شعلات الشموع الشاحبة في ضوء النهار وبين الزهور البيضاء نقية ساكنة مثل روحه.

وجثَا أمام المذبح مع زملائه وقد أمسكوا بقماش المذبح فوق صف حي من الأيدي. كانت يداه ترتجفان، وارتجفت روحُه وهو يسمع القس يمر بقدح القربان من متناول إلى متناول آخر.

– جسد ربنا.

هل هذا ممكن؟ إنه يجثو هناك وجلًا دون خطايا، وسيستقبل لسانه القربان المقدس وسيدخل الله إلى جسده المتطهر.

– في حياة أبدية، آمين.

حياة أخرى! حياة طهارة وفضيلة وسعادة! هذا صحيح. لم يكن هذا حلمًا يمكن أن يستيقظ منه، ما مضى قد مضى.

– جسد ربنا.

لقد وصل كأس القربان إليه.

الفصل الرابع

كان يوم الأحد مخصصًا لأسرار الثالوث المقدس الرباني، والإثنين للروح القدس، والثلاثاء للملائكة الحارسين، والأربعاء للقديس يوسف، والخميس لقداس المذبح المبارك، والجمعة لآلام يسوع، والسبت للعذراء المباركة مريم.

وكان يبارك نفسه كلَّ صباح من جديد أمام صورة مقدسة أو سرٍّ من الأسرار الدينية المقدسة. ويبدأ يومه بأن يخصص في شهامة كلَّ دقيقة من تفكيره وعمله لأغراض الحبر الأعظم، بالإضافة إلى قُداس مبكر. وأنعش هواء الصباح الندي من عزمه على التقوى. وإذ كان يجثو مع قلة من المصلين عند المذبح الجانبي، يتابع همهمة القس في كتاب صلواته المحتوي على الشريط القطيفة، رفع بصره لحظةً ناحية الشكل المغطَّى الذي وضعوه في الغبشة التي تقع بين الشمعتين. وكانا العهد القديم والعهد الجديد. وتخيَّل أنه يجثو في قُداس يُقام بين المقابر.

وكرَّس حياته اليومية لمظاهر العبادة. كان يحاول عن طريق ابتهالاته وصلواته تعويضَ قرونٍ من الأيام والأربعينيات والسنين للأرواح المحتجزة في المطهر، غير أن شعوره بالانتصار الروحي لإنجاز مثل هذه الكثرة الخرافية من العقوبات الشرعية بسهولة، لم يكن ثوابًا كاملًا لحماسة صلواته، إذ إنه لم يكن ليعرف كم من العقاب المؤقت، قد أزالَته صلواتُ الراحة التي أداها للأرواح المعذبة. وخاف ألَّا يكون لدعواه إلا أثر نقطة الماء وسط نيران المطهر، التي لا تختلف عن نيران الجحيم إلا في عدم أبديتها، فدفع روحه كل يوم نحو مزيد من أعمال البذل والعطاء.

ودار كلُّ قسمٍ من أقسام يومه الذي تحكم فيه ما كان يعتبره الآن واجبات مكانه في الحياة، حول مركز من الطاقة الروحية. وبدَت حياته كما لو أنها تنسحب إلى جوار الأبدية، كل فكرة وكل كلمة وكل عمل وكل لحظة من لحظات الوعي، تهتزُّ لها السماء

في نور. وأحيانًا يكون إحساسه بمثل هذا الترجيع الفوري عظيمًا لدرجة يبدو معها أنه يحس بروحه تضغط كالأصابع في تقوى على مفاتيح آلة تسجيل المشتريات، ويرى حساب مشترياته يرتفع في السماء، ليس على هيئة أعداد بل على شكل عمود واهن من البخور أو على شكل زهرة رقيقة.

وأحالَت التسابيح التي كان يتلوها دائمًا (كان يحمل حبَّات المسبحة فارطة في جيوب سرواله، حتى يتلوَ تسابيحه حين يسير في الطرقات)، أحالَت نفسها إلى أكاليل من الزهور لها نسيجٌ غامض غير دنيوي، حتى إنها بدَت له خالية اللون خالية العبير كما هي خالية الاسم. وخصص واحدًا من أكاليله اليومية الثلاثة لأجل أنْ تقوَى روحُه في كلٍّ من الفضائل اللاهوتية الثلاث: الإيمان في الآب الذي خلقه، والأمل في الابن الذي شفع له، وحب الروح القدس الذي طهره. وكان يقدم هذه الصلاة المضاعفة ثلاثًا إلى الأشخاص الثلاثة عن طريق مريم باسم أسرارها البهيجة الأليمة والمجيدة.

وكان يصلي بالإضافة إلى ذلك في كل يومٍ من أيام الأسبوع السبعة؛ لأجل أن تهبط على روحه واحدةٌ من هبات الروح القدس السبع، وتطرد منها يومًا بعد يوم الخطايا السبع المميتات التي دنَّسَتها في الماضي. وصلى لكل هبة في اليوم المخصص لها، واثقًا أنها ستهبط عليه، رغم أنه بدا له أحيانًا من الغريب أن تكون الحكمة والإدراك والمعرفة متميزة هذا التمييز في طبيعتها الواحدة منها عن الأخرى، لدرجة أن تقدم الصلوات لكل منها على حدة. ومع ذلك فقد آمن أن هذه الصعوبة ستزول في مرحلة مقبلة من مراحل تقدُّمه الروحي، حين تنهض روحه الخاطئة من ضعفها، وقد استنارَت من الشخصية الثالثة في الثالوث المقدس. وازداد إيمانًا بذلك، في اضطراب مرتعد، بسبب الجهامة والصمت المقدسَين اللذَين يحيَا فيهما الروح القدس الخفي، ويُرمز له باليمامة والريح العظيم، والذي إنْ أخطأ أحدٌ في حقه فقد أخطأ خطأً لا غفران له، الوجود الخفي الملغز الأبدي الذي يخصص القسس له — كما يخصصون إلى الله — قداسًا مرةً كل عام، وهم يرتدون الأردية القرمزية التي تُشابه ألسنة اللهيب.

كانت الكتب الدينية التي يقرؤها تُصوِّر في غموض طبيعةَ وقرابة الشخوص الثلاثة في الثالوث المقدس، الأب يتأمل كماله المقدس من أبد الآبدين كما في المرآة، ويُنجب هذا في أبدية الابن الأبدي، والروح القدس يخرج من الأب والابن من أبد الآبدين. وكان أسهل على عقله أن يقبل هذا رغم تعذُّر إدراكه المجيد عن أن يقبل الحقيقة البسيطة التي تقول بأن الله قد أحب روحه منذ الأزل، من عصور سابقة لمولده إلى هذه الدنيا، من عصور سابقة لوجود العالم نفسه.

وقد استمع لأسماء عواطف الحب والكره ينطق بها القسيس من على المحراب والممثلون من على المسرح، ووجدها مكتوبة في رصانةٍ في الكتب. وتساءل لماذا لا تستطيع روحه أن تُكِنَّ مثل هذه العواطف لأي مدة من الزمن، أو تُرغم شفتَيه بأن تنطقَا أسماءَها عن اقتناع. وغالبًا ما يتملكه غضبٌ قصير ولكنه لم يمكنه أبدًا أن يجعل منه عاطفة مقيمة، وكان دائمًا يشعر بنفسه يمر خارج هذه العاطفة، كأن جسده يتخلص في سهولة من جلد أو من قشرة خارجية. وكان قد شعر بوجودٍ خفيٍّ دقيقٍ فوار يتخلل كيانَه ويُشعله بشهوة قصيرة جائرة. وقد عبرت تلك الشهوة أيضًا بعيدًا عن متناوله، وتركَت ذهنه هادئًا لا مباليًا. ويبدو أن هذا كان الحب الوحيد والكره الوحيد الذي تستطيع روحه الإحساس به.

ولكنه لم يستطع بعد ذلك إنكار حقيقة الحب، ما دام الله نفسه قد أحب روحه المفردة حبًّا إلهيًّا منذ الأزل. وإذ كانت روحه تثري بالمعرفة الروحية، رأى بالتدريج العالمَ كلَّه يُشكِّل تعبيرًا واحدًا رحبًا متسقًا لقوة الله وحبه. وأصبحت الحياة هبةً مقدسة، يجب على روحه أن تمدحَ واهبَها عليها وتشكره على كلِّ لحظةٍ وكل شعورٍ فيها، ولو كان مجرد رؤية ورقة واحدة من الشجر معلقة على غصنها. ولم تَعُد الدنيا بكل مادتها الصلدة وتشابكها أمام روحه إلا نظرية للقوة والحب والشمول الإلهي. كانت روحه قد وُهبت هذا الإحساس بالمعنى الإلهي في الطبيعة بطريقة كلية أكيدة؛ حتى إنه لم يكَد يتفهم لماذا يتعين عليه بأي حال أن يبقى على قيد الحياة، وعلى كل حال كان هذا جزءًا من القصد الإلهي، ولم يجرؤ على مناقشة فائدته أكثر من أي شخص آخر، وهو الذي أخطأ إلى أبعد أغوار الخطأ، وارتكب أبشع الخطايا ضد القصد الإلهي. وحملت روحُه مرةً أخرى أعباءَ التقوى والطقوس والصلوات والمقدسات والزهد، وقد أحالها ذلك الشعور بالحقيقة الواحدة الأزلية المقيتة الكاملة وديعة مَهينة. وعند ذلك، ولأول مرة منذ عكف على سرِّ الحب الأعظم تشعر في داخله حركةً دافئة، كحركة حياة أو فضيلة حديثة الميلاد للروح نفسها. وأصبحت الأيدي المرفوعة المفتوحة، والشفاه والأعين المفتوحة، كأنما صاحبها على وشك الإغماء، وكلها اتجاهات السكينة في الفن المقدس، أصبحت بالنسبة له صورةً للروح في صلاتها ذليلة غاشية أمام خالقها.

ولكن كان قد حُذر سلفًا من أخطار الإعلاء الروحي، ولم يسمح لنفسه بالارتداد حتى عن أقل مظاهر الورع أو أتفهها شأنًا. وكان يجاهد كذلك عن طريق الزهد الدائم لإزالة ماضيه الخاطئ عنه لإحراز طهارة تتهددها المخاطر. وأخضع كل وسيلة من وسائل الحس لديه لنظام صارم، وحتى يقمع إحساس البصر اتخذ قاعدةً له أن يسير في الطريق

مسبل العينين، لا يكاد يلتفت يمنةً أو يسرة ولا يلتفت خلفه أبدًا، وتجنَّبَت عيناه أن تلتقيا بأعين النساء. وكان من وقت إلى آخر يحبط عملهما بجهد مفاجئ من إرادته، كأن يرفعهما فجأة في منتصف جملة لم تكمل ويغلق الكتاب. وحتى يقمع سمعه لم يمارس أيَّ سيطرة على صوته الذي كان يضمحل آنذاك، فلم يغنِّ أو يصفر ولم يبذل أيَّ محاولة للفرار من الضجيج الذي يسبِّب له ضيقًا عصبيًّا مثل سماع شحذ السكين على المِسَن، أو جمع الرماد من على رف المائدة أو نفض الأتربة على البساط. أما قمع حاسة الشم عنده فكان أكثر صعوبة، حيث لم يجد في نفسه نفورًا فطريًّا من الروائح الكريهة، سواء كانت رائحة العالم الخارجي مثل الروث أو الزفت، أو روائح جسده هو التي عقد بينها كثيرًا من المقارنات والتجارب الغريبة. ووجد أخيرًا أن الرائحة الوحيدة التي ينفر منها إحساسُه رائحة سمكية معينة كدرة نتنة تُشبه البول الراكد، فعمل على أن يتعرض لهذه الرائحة الكريهة كلما أمكن ذلك. وأخذ يمارس عادات صارمة عند الطعام حتى يقمع حس الذوق عنده، وحافظَ بدقةٍ على أيام الصوم التي تمليها الكنيسة، واعتاد عن طريق الشرود أن يُحوِّل ذهنه عن تذوق نكهات الأطعمة المختلفة، غير أن قمع حاسة اللمس كان هو الميدان الذي حقق فيه أعظم الابتكارات جهدًا وبراعةً، فكان يتعمد ألَّا يغيِّر من وضعه الواحد أثناء النوم، ويجلس في أشد الأوضاع إزعاجًا، ويتحمل في صبرٍ كلَّ حكة وألم في جسده، ويبتعد عن كل وسائل التدفئة، ويبقى جاثيًا على ركبتَيه طوال فترة القداس، ما عدا في قُدَّاس البشارة، ويترك جانبًا من عنقه ووجهه مبللًا بالماء حتى يخزَّه الهواء بعد ذلك، كما كان يُلصق ذراعَيه إلى جنبَيه في جمودٍ كالعدَّائين، ولا يضعهما في جيوبه أو يضمهما خلف ظهره، وذلك حين لا يكون مشغولًا بالتسبيح.

ولم يَعُد يشعر بإغراء الخطيئة الكبرى. وقد أدهشه رغم ذلك أن يجدَ نفسه بعد نجاح منهاجه في التقوى المعقدة، وكبْح جماح النفس، تحت رحمة نقائص صبيانية تافهة تتملَّكه في سهولةٍ تامةٍ، ولم تكن صلواتُه وصيامه تُجديه شيئًا في قمع غضبه، حين يسمع أمَّه تتمخط أو حين يُزعجه أحدٌ إبان تعبُّدِه. وقد احتاج الأمر إلى جهدٍ هائل من إرادته حتى يتحكم في الدافع الذي يحثُّه على التنفيس عن مثل هذا الضيق والغضب. وخطرت على ذهنه صورُ انفجارات الغضب التافه، التي طالما لاحظها بين مدرِّسيه، حين كانت أفواههم تلتوي وشفاههم تنطبق ووجناتهم تتورَّد، مما كان يفتُّ في عضده حين يُقارن نفسه بهم برغم كل مجهوداته لترويض النفس. كانت محاولة توحيد حياته مع المد العام لحياة الآخرين أصعب لديه من كل صومٍ أو صلاة، وكان فشله في أداء ذلك على الوجه الذي يرتضيه

يسبِّب له إحساسًا بالجفاف الروحي في نفسه، ونمَّى في الوقت ذاته الشكوك والهواجس فيها. وعبرت روحه فترة من الإفقار بدَت له فيها المقدسات نفسها، وقد تحوَّلت إلى وسائل عقيمة. وأصبحت اعترافاته وسيلةً للفرار من نقائص الهواجس والنقائص الأخرى التي لم يَتُب منها، ولم يَعُد عليه التناول المقدس بنفس لحظات إعطاء الذات العذري الذائبة التي تُضفيها عليه التناولات الروحية التي يؤديها أحيانًا عند نهاية زيارته لسر الأسرار. وكان الكتاب الذي يستعمله في مثل هذه الزيارات كتابًا قديمًا مهملًا، كتبه القديس «ألفونسوس ليجوري»، قد غاضت حروفه وجفَّت أوراقه واصفرَّ لونها. وكانت قراءة صفحاته التي تختلط فيها صورة الترانيم بصلوات المتناول، تبدو وكأنها تبعث أمام روحه عالمًا ذابلًا من الحب المتَّقد والتجاوب العذري. وكان صوتٌ خافتٌ يبدو ملاطفًا الروح، حاكيًا لها أسماءً وأمجادًا، داعيًا إياها للنهوض والخروج كما لو إلى حفل زفافها، داعيًا إياها أن تظلَّ كالعروس من على «أمانا» ومن على جبال الفهود، وبدَت الروح كما لو تجيب في نفس الصوت الخافت وقد أسلمَت نفسها inter ubera mea commorabitum.[١]

وكانت فكرةُ الاستسلام هذه تمثِّل إغراء خطر لذهنه الآن؛ إذ يشعر بروحه تُزعجها مرةً أخرى أصواتُ الجسد الملحَّة، التي بدأت تهمهم له مرة أخرى خلال صلواته وتأملاته. ومنحه إدراكه بأنه يستطيع بعمل واحدٍ منه في لحظة تفكير واحدة أن يهدم كلَّ ما بناه، شعورًا فياضًا بالقوة. وبدا كما أنه يشعر بفيضان يتقدم في بطءٍ نحو قدمَيه العاريتَين، وهو ينتظر أول موجة غاشية وجلة ساكنة لتلمس جلده الموار. وحينئذٍ وعند اللحظة التي تكاد تلمسه هذه الموجة، وعلى شفا الاستسلام الخاطئ، يجد نفسه يقف بعيدًا عن الفيضان على صخرة جافة، وقد أنقذَته لفتةٌ من إرادته أو ابتهال مفاجئ. وحين يرى خطَّ الفيضان الفضي يمتد ثانيةً في بطء ناحية قدميه، تهزُّ روحَه إثارةٌ جديدة بالقوة والرضا، حين يرى أنه يستسلم أو يهدم ما بناه.

وحين اجتاز فيضان الإغراء مرات عديدة بهذه الطريقة، انزعج وأخذ يتساءل عمَّا إذا كان الصلاح الذي رفض أن يخسرَه لا يُستلُّ منه شيئًا فشيئًا على هذا المنوال. وأظلم وضوح يقين حصانته، وتَبِع ذلك الإظلام خوفٌ غامض بأن روحه قد سقطت دون أن يشعر. واستعاد ثانيةً بصعوبة كبيرة وعيَه القديم بحالة صلاحه؛ وذلك بأن قال لنفسه إنه قد صلَّى لله عند كل إغراء وإن الصلاح الذي صلى من أجله لا بد أن يُمنح له، بما أن

[١] «بين صدري يبيت» من نشيد الإنشاد بالعهد القديم.

الله مضطر إلى إعطائه إياه. وأظهر له تردد الإغراء وعنفه الأخير حقيقةَ ما سمعه عن اختبار القديسين. كانت الإغراءات المتكررة العنيفة برهانًا على أن قلعة الروح لم تسقط، وأن الشيطان ينتابه الهيجان حتى يُسقطها.

وحين كان يعترف بشكوكه وهواجسه، كلحظة شرود عند الصلاة أو حركة غضب يسيرة في روحه أو عناد في القول أو العمل، كان القسيس يدعوه إلى ذكرِ إحدى خطاياه التي ارتكبها في ماضي حياته قبل أن يمنحه الإبراء. وكان يذكرها في إذلال وخجل، ويتوب عنها مرةً أخرى. وكان تفكيره بأنه لن يتحرر منها كليةً مهما عاش وابتهل، ومهما اكتسب من فضائل وكمال يملؤه بالذل والخجل. وكان إحساس قلق بالذنب حاضرًا معه دائمًا، فعليه أن يعترف ويتوب مرةً أخرى ثم يبرأ مرة أخرى، دون نتيجة. ألَا يكون الاعتراف الأول المتعجل الذي انتُزع منه تحت ضغط الخوف من الجحيم غيرَ كافٍ؟ هل أعماه اهتمامُه بهلاكه الوشيك حتى إنه لم يكن مخلصًا في توبته عن خطاياه؟ ولكنه كان يعرف أن العلامة الأكيدة على صلاح اعترافه وعلى إخلاصه في توبته عن خطاياه، هي التحسن الذي طرأ على حياته، وسأل نفسه: لقد تحسَّنَت حياتي، أليس كذلك؟

وقف المدير القس في كُوَّة النافذة وقد أعطى ظهرَه للنيران، وارتكز بساعده على الستارة اللولبية البُنيَّة. وبينما كان يبتسم ويعقد حبل الستارة الأخرى، ويهزه يمنةً ويسرة، كان ستيفن يقف أمامه يتابع بعينَيه ضوءَ النهار الصيفي الطويل، إذ يهن على الأسطح أو يرقُب حركات الأصابع القسسية الماهرة البطيئة. كان وجهُ القسِّ كلُّه يغطِّيه الظل، غير أن ضوء النهار الواهن كان يتسلَّل من الخلف، ويمس أصداغ رأسه ذات التشققات والانثناءات العميقة. وأنصتَ ستيفن كذلك بأُذُنَيه إلى لهجات صوت القس وفواصله، حين كان يتحدث في وقارٍ وودٍّ في موضوعات متفرقة، عن العطلة التي انتهَت لتوِّها، ومدارس الطائفة في الخارج، وتنقلات المدرسين. واستمر الصوت الوقور الودي يواصل قصتَه في سهولة. وكان ستيفن يجد نفسه في فترات الصمت مدعوًّا إلى تجديد الحديث بأسئلة يُلقيها في احترام. كان يدري أن القصة ما هي إلا مقدمة، وانتظر عقله ما وراءها. ومنذ وصلَته الرسالة التي تدعوه إلى المدير، وعقله يجاهد في سبيل معرفة معناها. وفي الفترة الطويلة القلقة التي جلس فيها في بهوِ المدرسة ينتظر دخول المدير، كانت عيناه تتجولان من صورة وقورة إلى صورة وقورة أخرى حول الجدران، وعقله ينتقل من حدس إلى حدس آخر، حتى اتضحت له معنى هذه الدعوة أو كادت. وحينئذٍ وبينما كان يتمنى أن يعوق أي شيء خفي المدير عن الحضور، سمع دورةَ مقبض الباب وهفهفة الثوب الكهنوتي.

وكان المدير قد شرع في الحديث عن طائفتَي «الدومينيكان» و«الفرنسيسكان»، والصداقة بين القديس «توماس» والقديس «بونافنتير». وكان يقول إنه يعتقد أن الرداء الكهنوتي «الكابوتشيني» …

وردَّ وجهُ ستيفن ابتسامةَ القَس العطوفة، ورسم علامةً مبهمة خفية على شفتَيه؛ إذ لم يكن متلهفًا على التعبير عن رأيه.

وواصل المدير حديثه: أعتقد أن هناك الآن بعض الآراء بين «الكابوتشين» ذاتهم، تُنادي بإلغاء هذا الرداء واتباع مثال الآخرين من «الفرنسيسكان».

فقال ستيفن: أعتقد أنهم سيحتفظون به داخل الأديرة.

فقال المدير: آه طبعًا، فهو ملائمٌ للدير، ولكن أعتقد أنه يستحسن إلغاؤه بالنسبة للطرقات، ألَا ترى ذلك؟

– أعتقد أنه مزعج.

– بالطبع هو كذلك بالطبع. تصوَّر أنني حين كنت في بلجيكا كنت أراهم يتجولون في كل الأجواء بهذا الرداء الذي يرتفع فوق رُكَبهم، ما أشد ما كان ذلك مضحكًا! يُسمونهم في بلجيكا بـ «الفساتين».

– ماذا يسمونهم؟

– الفساتين.

– آه!

وابتسم ستيفن مرةً أخرى ردًّا على ابتسامة لم يكن يستطيع رؤيتها على وجهِ القسِّ المغطَّى بالظلال، ولا تمرُّ سوى صورته أو طَيفه بسرعة عبر ذهنه، حين تسقط اللهجة الخفيضة الدمثة في أُذُنَيه. وحملق في هدوء أمامه، إلى السماء الواهنة، وقد أسعدَته برودةُ المساء والوهج الأصفر الواهي، الذي يُخفي مسحة التوهج الذي يتَّقد على وجنتَيه.

كان ذكْرُ أسماء الأدوات والملابس التي تستعملها النساء أو المواد الرقيقة التي يستخدمنها في الماكياج، يبعث في ذهنه دائمًا عطرًا رقيقًا خاطئًا. وكان يتصور في طفولته أعنة الجياد أثناء جَرْيها خيوطًا حريريةً رقيقة، وصُدم حين لمس في «ستراد بروك» جلد أعنة الجياد الدهنية. وصُدم أيضًا حين لمس لأول مرة تحت أصابعه المرتجفة نسيج الجورب النسائي الهش، فهو لم يحتفظ في نفسه مما قرأه إلا بما يبدو له في صدى أو نبوءة لحالته التي كان فيها، فلم يجرؤ على التفكير في روح المرأة أو جسدها وهو يموج بالحياة الرقيقة إلا وسط العبارات ذات الكلمات الرقيقة أو في مواد لها رقة الورود.

ولكن العبارة التي قالها القس كانت خادعة؛ لأنه يعرف أن القس لا يمكن أن يتحدث في هذا الموضوع بخفة. وقد نطق العبارة في خفة عن قصد، وشعر بوجهه تتفحصه هاتان العينان من وراء الظلال، وأزاح جانبًا كل ما كان قد سَمِعه أو قرأه عن مهنة الجزويت في صراحة؛ لأنه ليس ناتجًا عن تجربته المباشرة. وحتى حين لم يكن يرتاح إلى بعض مدرِّسيه، كانوا يبدون له دائمًا قسسًا أذكياء جادين، ومشرفين رياضيِّين ذوي روح عالية. كان يفكر فيهم كرجال يغسلون أجسامهم في نشاط بالماء البارد، ويرتدون الكتان النظيف البارد. ولم يتلقَّ عقابًا منهم خلال كل السنوات التي عاشها بينهم في كلونجوز وبلفدير سوى ضربتين بالعصا، ورغم أنه نالهما ظلمًا فقد كان يعرف أنه كان غالبًا يُفلت من العقاب. ولم يسمع طوال هذه السنوات كلمة جافة من مدرِّسيه، وكانوا هم الذين علَّموه العقيدة المسيحية، وحثُّوه على انتهاج حياة صالحة. وكانوا هم الذين أعادوه إلى الصلاح حين سقط في أحضان الخطيئة المقيتة. كان وجودهم هو الذي أحاله وجلًا من نفسه حين كان غِرًّا في «كلونجوز»، وأحاله وجلًا من نفسه أيضًا حين كان في موقفه المبهم في «بلفدير»، وقد لازمه الإحساسُ بهذا حتى آخر عامٍ له في المدرسة، فلم يعصِ الأوامر أو يسمح مرة للرفاق الأشقياء بإغرائه بالخروج عن عاداته في الطاعة الهادئة، وحتى حين كان يشك في عبارة من عبارات المدرس، لم يكن يمضي إلى حد إعلان شكوكه، وكانت بعض أحكامهم تبدو صبيانيةً في أُذُنَيه في الأيام الأخيرة، وجعلَته يشعر بالأسف والشفقة كأنما هو يخرج في بطءٍ من عالم مألوف يسمع لغتَه لآخر مرة في حياته. وحين التفَّ جمعٌ من الصبية يومًا من الأيام حول قسٍّ تحت الظل بالقرب من كنيسة المدرسة، سمع القس يقول: أعتقد أن اللورد «ماكولي» ربما لم يرتكب أيَّ خطيئة كبرى في حياته، أعني خطيئة كبرى مقصودة.

وحينئذٍ سأل بعض الصبية القس عمَّا إذا كان «فيكتور هوجو» هو أعظم كاتب فرنسي، فردَّ القس بأن فيكتور هوجو حين تحوَّل ضد الكنيسة، لم يكتب بنصف الجودة التي كان يكتب بها حين كان كاثوليكيًّا.

وأضاف القس: «ولكن هناك كثيرًا من النقاد الفرنسيِّين العظام يعتقدون أن «فيكتور هوجو» بكل عظمته المؤكدة، لم يكن يمتلك ناصيةَ أسلوب فرنسي رصين مثل «لويس فيليو».»

وانحسرَت الشعلةُ الصغيرة التي أوقدَتها إشارةُ القس على وجنتَي ستيفن ثانيةً، وكانت عيناه ما تزالان مثبَّتتَين في هدوء على السماء التي لا لون لها، ولكنه شكًا قلقًا تطاير هنا وهناك أمام عقله. ومرَّت ذكريات مقنعة مسرعة أمامه، وتعرَّف على مناظرَ وشخوص،

ولكنه كان يشعر بأنه قد فشل في إدراكِ أيِّ ظرفٍ حيوي فيها، ورأى نفسَه يسير حول الملاعب يُراقب الألعاب الرياضية في كلونجوز، ويأكل حلوى الربسوس من قبعة ملابس الكريكت. وكان بعض الجزويت يسيرون حول إفريز الفناء برفقة سيدات. وتردَّدت أصداءُ تعبيرات معينة كانت تُستخدم في كلونجوز في كهوف قصية من ذهنه.

وكانت أُذُناه تُصغيان إلى هذه الأصداء القصية وسط سكون الردهة، حين انتبه إلى أن القسَّ يخاطبه في لهجة مختلفة.

– لقد أرسلتُ في طلبك اليوم يا ستيفن لأُحدِّثك في موضوع جد مهم.

– أجل يا سيدي.

– ألم تشعر يومًا أن لك مهنة.

وفتح ستيفن شفتَيه ليقول أجل، ولكنه كتم الكلمةَ فجأة، وانتظر القسُّ الجوابَ ثم أضاف: أعني ألم تشعر في داخلك، في روحك، برغبة في الانضمام إلى الطائفة؟ فكِّر.

فقال ستيفن: لقد فكَّرتُ في ذلك أحيانًا.

وترك القس حبلَ الستارة يسقط على أحدِ الجانبَين، وشبَّك يدَيه وأحنَى ذقنَه في رزانة عليهما وهو يتحادث مع نفسه.

وقال أخيرًا: غالبًا ما يوجد في مدرسة كهذه صبيٌّ أو ربما صبيان أو ثلاثة يدعوهم الله للحياة الدينية، ويكون مثل هذا الصبي مميزًا عن زملائه بتقواه وبالقدوة الصالحة التي يضربها للآخرين. وهم ينظرون إليه في احترام، وربما يختاره زملاؤه في الجمعية عريفًا لهم، وأنت يا ستيفن كنت هذا الصبي في هذه المدرسة، عريفًا لجمعية سيدتنا المقدسة، ربما كنت صبيَّ هذه المدرسة الذي يعتزم الله أن يدعوه إليه.

وأسرعَت نغمةُ زهو قوية تدعمها رزانةُ صوت القس من دقات قلب ستيفن استجابة لتلك الكلمات.

وقال القس: «إن استلامَ مثل هذه الدعوة يا ستيفن هو أعظم شرف يمكن أن يهبَه العليُّ القدير لإنسان؛ إذ ليس للملك أو الإمبراطور في هذه الدنيا قوةٌ تُماثل قوةَ قسِّ الله. وليس للملائكة أو كبير الملائكة في السماء ولا للقديسين ولا العذراء المباركة نفسها القوة التي لقس الله: قوة الفتح، قوة القيد في الخطيئة أو الإبراء منها، قوة الرقية، قوة طرد الأرواح الشريرة من بين مخلوقات الله التي لم تتسلط عليها، القوة والسلطة التي تجعل إله السماء العظيم يهبط أمام المذبح ليناول الخبز والنبيذ. يا لَها من قوةٍ مخيفةٍ يا ستيفن!»

وأخذَت شعلةٌ أخرى تتَّقد ثانيةً على وجنتَي ستيفن حين سَمِع في هذا الخطابِ المزهوِّ صدَى أفكاره المتعالية. كم مرةً شاهد نفسَه قسًّا يستخدم القوةَ المخيفة التي يقف لها

الملائكة والقديسيون في احترام! لقد أحبَّت روحُه أن تتأمل هذه الرغبة في خفية. لقد رأى نفسه، قسًّا شابًّا صموتًا، يدخل مكان الاعتراف، في خفةٍ، ويصعد درجات الهيكل، يُطلق البخور، يجثو، يؤدي طقوس القسس الغامضة التي تملؤه بالسرور بسبب مشابهتها للواقع وبُعْدها عنه في الوقت نفسه. كان يخلع على نفسه في هذه الحياة المعتمة التي عاشها في تأملاته الأصوات والحركات التي لاحظها في عددٍ من القسس، لقد أحنى ركبتَيه مثلما يفعل واحدٌ منهم، وهزَّ المجمرة في خفة مثل آخر، وفتح رداءه الهنوتي مثل ثالث؛ إذ هو يلتفت إلى المذبح مرةً أخرى بعد أن بارك الحاضرين. وقد أبهجه فوق كل شيء أن يتخذ مركزًا ثانويًّا في هذه المناظرة المعتمة في خيالاته، فقد كان يخشى هيبة مركز الواعظ الرئيسي؛ لأنه كان يُزعجه تصور أن تنتهيَ كلُّ هذه العظمة الغامضة بشخصه هو، أو أن يعهد إليه الطقس الديني بمثل هذ الوظيفة الواضحة النهائية. وكان يتوق إلى الوظائف المقدسة الثانوية، أن يشتمل في صدارة مساعد الشماس عند القداس، وأن يقف على مبعدةٍ من المذبح وينساه الحاضرون، مُغطًّى الكتفين بنقابٍ يحمل طبقَ العشاء الرباني بين طياته، أو يقف حين ينجز القربان شماس في ثوب دلماشي،[2] على الدرجة التي تلي الواعظ ويداه متشابكتان ووجهُه متجهٌ نحو الحاضرين، وهو يغنِّي نشيدَ Ite messa est،[3] ولو أنه تصوَّر نفسه واعظًا مرة يكون ذلك على هيئة الصور التي لديه في كتاب القداس للأطفال، في كنيسة خلَت من المصلين إلا من ملاك القربان، أمام مذبحٍ عارٍ، ويقوم عليها قندلفت لا يكاد يكبره في السن. وظهر أن إرادته لا تميل إلى الخروج لملاقاة الحقيقة إلا في أعمال قربانية غامضة أو مقدسة، وكان غياب فريضة معلومة له يُجبره أن يكون سلبيًّا نوعًا ما في عمله، سواء إذا كان يسمح بالصمت أن يغطِّيَ غضبه أو زهوه أو حتى حين يعاني من قمع قُبلة كان يشتاق إلى مَنْحها.

وأنصت الآن في سكونٍ مبجل إلى نداء القس، وأنصت كذلك في وضوحٍ أكثر عن طريق الكلمات التي سَمِعها إلى صوت يطلب منه الاقتراب، ويقدِّم له المعرفة السرية والقوة السرية، سيعرف آنذاك ماذا كانت خطيئة «سيمون ماجوس» والخطيئة في حق الروح القدس التي لا غفران لها. سيعرف الأشياء الغامضة التي تخفَى عن الآخرين، عن أولئك الذين تحمل بهم أمهاتُهم ويلدنَهم أطفالاً في هذه الدنيا. سيعرف الخطايا، لهفات الآخرين الخاطئة

[2] من «دلماشي» أو منسوبًا إليها.

[3] عبارةٌ تُقال في نهاية القداس، وهي: «يُمكنكم الانصراف فقد انتهى القداس.»

وأفكارهم الخاطئة وأفعالهم الخاطئة، يهمسونها إليه في الاعتراف تحت عار الكنيسة المظلمة، تهمسها إليه شفاه نسوة وفتيات، ولكنه يكون محصنًا عن طريق رسامته كاهنًا برفع الأيدي، ثم تعبر روحُه ثانيةً نقيةً إلى هدوء المذبح الصافي. لن تبقى لمسة خطيئة على يدَيه حين يرفع القربان ويقطمه، لن تبقى لمسحة خطيئة على شفتَيه إبَّان الصلاة لكي تُؤكلَه وتُشربَه لعنة روحه حين لا يميز جسد الله. سوف يُمسك معرفته السرية وقوته السرية، ويصبح بريئًا بلا خطايا، وسيكون قسًّا إلى الأبد على رتبة «ملكيصادق».[٤]

قال المدير: سوف أُخصِّص قُدَّاسي صباح غد لأجل أن يكشف الله القدير لك إرادتَه المقدسة. وعليك أنت يا ستيفن أن تؤديَ تاسوعًا[٥] لقديسك الحامي المقدس، الشهيد الأول المقرب إلى الله، حتى يُنيرَ الله عقلك، ولكن عليك أن تكون متأكدًا جدًّا أنك تصلح لهذه الرسالة يا ستيفن؛ لأنه إذا تبيَّن لك بعد ذلك، أنها ليست لك فسوف يكون الأمر فظيعًا. تذكَّر أنك متى أصبحت قسًّا فستبقى كذلك إلى الأبد، أنت تعلم من دروس الوعظ أن تناول السيامة[٦] المقدسة لا يمكن أن يتمَّ سوى مرة واحدة؛ لأنه يطبع على الروح علامتَه الروحية التي لا تبيد والتي لا يمكن أن تُلغى. لا بد أن تفكر جيدًا قبل ذلك وليس بعده، إنها مسألةٌ خطيرةٌ يا ستيفن لأنه يعتمد عليها خلاص روحك الخالدة، ولكننا سنصلِّي معًا.

وأمسك بباب الردهة الثقيل يفتحه ومدَّ يدَه كأنما يمدُّها إلى زميل في الحياة الروحية فعلًا، ودلف ستيفن إلى الممشى العريض بعد الدرج، وأحسَّ بنسمات هواء المساء اللطيف، ورأى عن بُعد أربعةً من الشبان يغذون الخطَى نحو كنيسة «فندلتير» وأذرعُهم متشابكة، ويهزُّون رءوسهم ويخطون على أنغام صفارة قائدهم الرشيقة، وعبرَت الموسيقى في لحظة مثلما تفعل الألحان الأولى المفاجئة دائمًا إلى أنسجة عقله الخرافي مذيبة إياها دون عناء ودون ضجة، كما تُذيب الموجة المفاجئة أبراج الرمل التي يبنيها الأطفال على الشاطئ. وابتسم للهواء العليل ورفع عينَيه إلى وجه القس، ورأى فيه انعكاسًا كئيبًا لليوم المنصرم، فجذب في بطءٍ يدَه التي ارتضَت وهنًا هذه الزمالة.

وإذ كان يهبط السلم كان الأثر الذي محَا محاورته الذاتية التعبة قناعًا كئيبًا يعكس يومًا ينحسر من عتبة المدرسة. وحينئذٍ عبرَت ظلال حياته في المدرسة على وَعْيه في رزانة، كانت حياة رزينة منظمة لا عاطفة فيها في انتظاره، حياة تخلو من المشاغل المادية.

---

[٤] اسم أحد كهنة العهد القديم.

[٥] عبادة تستمر تسعة أيام.

[٦] ترسيم الشخص قسًّا.

وتساءل كيف سيمضي أول ليلة له في الرهبنة، وبأي ضيقٍ سيصحو في أول صباح في عنبر النوم. وعادت إليه الرائحة السمجة للممرات الطويلة في كلونجوز، وسَمِع خفق المصابيح الغازية المشتعلة الرصين، وأخذ القلقُ يشعُّ على الفور من كلِّ ناحيةٍ من نواحي وجوده، وتَبِع ذلك سرعة حامية لنبضه، وأحال رنين كلمات لا معنى له أفكاره المنتظمة شذر مذر. وتمدَّدت رئتاه ثم غارتا كأنما يتنفس هواءً رطبًا دافئًا لا يحتمل، وعادَت إلى أنفاسه رائحةُ الهواء الرطب الدافئ، الذي يحوم على الحمام في كلونجوز فوق المياه الخاملة المخضرة اللون.

وبعثَت هذه الذكريات في نفسه قطرة أقوى من التعليم أو من الدين، واضطرمَت بداخله عند كلِّ اقترابٍ من هذه الحياة فطرة دقيقة معادية سلَّحَته ضد الموافقة، لقد صدَّته برودة هذه الحياة ونظامها، ورأى نفسه ينهض في برودة الصباح ويصطفُّ مع الآخرين لحضور القداس الباكر، ويحاول عبثًا استخراجَ صلواته مقاومًا غثيان معدته، ورأى نفسه يجلس مع جماعة المدرسة على الغداء، ماذا تبقَّى إذن من خجله العميق الغور، الذي يجعله يكره الأكل أو الشرب تحت سقف غريب؟ ماذا تبقَّى من كبرياء روحه الذي جعله يتصور نفسه مخلوقًا مختلفًا في كل شيء؟

ستيفن ديدالوس المحترم، ج. ي.[٧]

قفز اسمُه في هذه الحياة بحروفه أمام عينَيه، وتَبِع الاسمَ إحساسٌ عقليٌّ بوجهٍ غير محدد السمات أو بالأحرى لون وجه. وغاض اللون ثم قَوِي، مثل الوهج المتغير لقالب القرميد الشاحب، أهذا هو الوهج الأحمر الخام الذي طالما رآه على أفواه القس الحليقة في أيام الشتاء؟ كان الوجه بلا عينَين، به نزعةٌ إلى الغلظة والورع، مضطرمًا باللون الوردي الناتج عن غضب مكبوت، ألم يكن هذا طيفًا عقليًّا لوجهٍ واحدٍ من الجزويت دعاه الصبية «لانترن جوز» ودعاه آخرون «فوكسي كامبل»؟

كان يمرُّ في هذه اللحظة أمام مبنى الجزويت في شارع «جاردنر»، وتساءل في إبهام أين يا تُرى ستكون نافذته فيه إذا التحق بالطائفة. ثم تعجَّب من إبهام تساؤله، من بُعد روحه عمَّا تصور حتى الآن أنه ملاذها، عن القبضة الواهية التي تؤثر بها عليه كثيرٌ من سنوات النظام والطاعة، إذا برز له فعلٌ محدد لا ينفك يُهدِّد حريته إلى الأبد في الزمان وفي

[٧] اختصار «جمعية يسوع».

الخلود. وتردَّد في ذاكرته في كسل صوت المدير يُغريه بفخرِ الهدف الكنسي وسرِّ المنصب القسسي وقوته، ولم تكن روحُه هناك لتسمع ذلك وترحب به، وعرف الآن أن الترغيب الذي أنصت إليه قد انكمش فعلًا إلى حكاية شكلية عديمة الجدوى. لن يُدير المجمرة أمام المذبح متقلدًا وظيفةَ القس أبدًا، سيكون نصيبه أن يجتنب أيَّ أنظمة اجتماعية أو دينية، ولم تؤثر فيه حكمة المنصب القسسي أيَّ تأثير، كان مقدرًا له أن يتعلم حكمته الخاصة بعيدًا عن الآخرين، أو يتعلم حكمة الآخرين بنفسه وهو يتجول بين شِراك الدنيا.

وشِراك الدنيا هي طرق خطاياها، سوف يسقط، إنه لم يسقط بعدُ ولكنه سيسقط في صمت، في لحظةٍ واحدةٍ. عدم السقوط صعب جدًّا، صعبٌ جدًّا، وشعر بالعثرة الصامتة لروحه وهي تسقط، تسقط، كما سيحدث في لحظة قادمة، ولكنه لم يسقط بعد، ما زال غير ساقط، ولكنه على وشك السقوط.

وعَبَرَ الجسرَ المُقامَ فوق جدول «تولكا»، وأجال عينَيه لحظةً في برودٍ نحو قبر العذراء المباركة الأزرق الباهت، الذي يقوم كالطائر على ركيزة في منتصف معسكر لأكواخ الفقراء يتخذ شكل فخذ خنزير، ثم انعطف ناحية اليسار وسار في الحارة التي تؤدي إلى منزله. وهبَّت عليه عفونة القرنبيط المتعفن الحريفة من بساتين الخضراوات من الأرض المرتفعة على البحر، وابتسم إذ جال بخاطره أن هذه الفوضى، هذا السوء وهذا الارتباك الذي يسود منزل والده، وتعفُّن الخضراوات، هي التي ستربح هذا اليوم في روحه. ثم انطلقت من بين شفتَيه ضحكةٌ قصيرة حين تذكَّر صبي الزراعة الوحيدة في بساتين الخضراوات التي تُقلع خلف منزلهم، ذلك الذي لقَّبوه «بالرجل ذي القبعة». وانطلقَت ضحكةٌ ثانية من الضحكة الأولى بعد صمتٍ قصير. انطلقَت منه دون طواعية حين فكَّر كيف كان الرجل ذو القبعة يعمل، إذ كان يُقدِّر جوانب السماء وزواياها الأربع على التوالي، ثم يدفع بمنجله إلى الأرض في أسف.

وفتح باب الردهة وعبرَ الصالة الخالية إلى المطبخ. كان فريقٌ من إخوته وأخواته يجلسون حول المائدة. كان تناول الشاي قد انتهى تقريبًا، ولم يبقَ سوى آخر الشاي الثاني الذي أُضيف إليه الماء في قاع الجرار، وبرطمانات المربى الزجاجية الصغيرة التي يستخدمونها كفناجين للشاي. وانتثر على المائدة فتاتُ خبز سكري استحالَت بُنيَّة اللون بفعل الشاي الذي صُبَّ عليها. واستقرت دوائر شاي صغيرة هنا وهناك على سطح المائدة، وكانت سكينٌ ذات مقبض عاجي مكسور مغروسة في قرار فطيرة قد نُهبت.

وانبعث وهجُ النهار المحتضر الحزين الهادئ الأزرق خلال النافذة والباب المفتوح ليُغطِّيَ ويُخففَ في هدوء من فطرةٍ مفاجئةٍ من تأنيب الضمير في قلب ستيفن. كلُّ ما

حُرموه أُعطيَ له دون حساب باعتباره أكبرهم، ولكن وهج المساء الهادئ لم يُبدِ له في وجوههم أيَّ ضغينة.

وجلس بالقرب منهم إلى المائدة، وسأل أين والدته ووالده. وأجابه واحدٌ منهم: «ذهبوا يا للبحث يا عن يا منزل يا ...»

انتقالٌ آخر! كثيرًا ما سأله صبي اسمه «فالون» في بلفدير، وهو يضحك لماذا يغيِّرون مسكنهم كثيرًا؟

وأظلم جبينه بعبوس الاحتقار، إذ هو يسمع ثانيةً ضحكة السائل السخيفة.

وسأل أخاه:

– لماذا سننتقل ثانيةً إن كان لي أن أسأل هذا؟

– لأن يا صاحب يا المنزل يا سيطردنا يا خارجًا يا ...

وبدأ صوت أخيه الأصغر يغني ألحان «دائمًا في الليل» من الطرف القصي للمدفأة. واشترك الآخرون في اللحن واحدًا بعد آخر، حتى تكوَّن منهم «كورس» أصوات للغناء، سيغنون هكذا ساعاتٍ طوالًا، لحنًا وراء آخر، نشيدًا وراء نشيد، حتى يموت آخر ضوء شاحب في الأفق، حتى تأتي سحائب الليل الأولى السوداء، ويسدل الليل ستاره.

وانتظر لحظات، منصتًا، قبل أن يشترك معهم في اللحن. كان يُصغي وروحه تتألم إلى نغمة العناء خلف أصواتهم الهشة الغضة البريئة، يبدو عليهم العناء الفعلي من هذا الطريق حتى قبل أن يبدءوا رحلة الحياة.

وسَمِع كورس الأصوات في المطبخ يتردد ويتضاعف خلال ترجيعات لا نهاية لها لكورس أجيال لا نهاية لها من الأطفال، وسمع في جميع هذه الترديدات ترديدًا لنغمة العناء والألم المتعاودة. بدا العناء من الحياة على الجميع حتى قبل أن يدخلوا إليها، وتذكَّر أن نيومان قد ميز هذه النغمة أيضًا في شذرات من سطورٍ لفيرجيل تقول: «تُعبر عن هذا الألم وهذا العناء مثل صوت الطبيعة نفسها، ولكن فيها كذلك الأمل في أشياء أفضل، تتمثل في تجربة أطفالها في كل زمان».

لم يستطع الانتظار أكثر من ذلك.

من باب مقهى بايرون إلى بوابة كنيسة كلونتارف، ومن بوابة كنيسة كلونتارف إلى باب مقهى بايرون ثم العودة إلى الكنيسة، فالرجوع ثانيةً إلى المقهى، ذرع الطريق في بطء في البداية، غارسًا خطواتِه في دقة في ثنايا مربعات الطريق، ثم ضبط وقْعَها على وقْع بعض

الأشعار. مضَت ساعةٌ كاملة منذ ذهب والده مع «دان كروسباي» المعلم ليبحثَا له شيئًا خاصًّا بالجامعة. وذرع المكان ساعة كاملة، هنا وهناك منتظرًا، ولكنه لم يستطع الانتظار أكثر من ذلك.

وانطلق بغتةً نحو منطقة «بول»، يسير بسرعة لئلا تُرجعه صفارة حادة من والده. وفي لحظات قليلة كان قد عبر المنحنى عند ثكنات البوليس وأصبح في منجى.

أجل، لقد عارضَت أمُّه الفكرة، كما استنتج من صمتها العزوف. ورغم ذلك فقد وخزَته شكوكُها بحدةٍ أكثر من زهو والده، وفكَّر في برود كيف أنه رأى الإيمان الذي كان يخبو في روحه يضطرم ويقوَى في عينَيها. وتجمَّعت قوى العداء المعتمة في داخله وأظلمت عقله تجاه عدم طاعتها مثلما تفعل السحب، وحين عبرَت عبورَ السحابة، مخلفةً عقلَه هادئًا مطيعًا إياها ثانيةً، شعر بأول انشقاق هادئ في حياتهما بإبهام وبدون أسف.

الجامعة! إذن لقد عبر بعيدًا عن تحديات الحراس الذين وقفوا له كقوامين على طفولته، وحاولوا إبقاءَه بينهم حتى يكون تابعًا لهم يحقق غاياتهم، ورفعه الزهو بعدما رفعه الرضى مثل الموجات الطويلة البطيئة، قادَته العناية، التي خلق من أجلها ومع ذلك لم يرَها، إلى الفرار عن طريق خفي، وتُشير له الآن مرةً أخرى وها هي مغامرةٌ جديدة على وشك أن تنفتح أمامه. وبدا له كأنه يستمع إلى ألحان موسيقى متشنجة تقفز إلى أعلى اللحن، ثم تنخفض مقتصرةً على نغمة خفيضة، ثم تعلو إلى لحن كامل وتنخفض إلى ثلث رئيسي، مثل اللهب ذي الفروع الثلاثة، تقفز في تشنج، لهب وراء لهب، خارج غابة مظلمة. كانت مقدمة موسيقى شيطانية، لا نهاية لها ولا شكل. وإذ كانت تزداد وحشيةً وسرعة، ويقفز اللهيب خارج حدود الزمان، بدا كأنه يسمع من تحت الأغصان والحشائش أصوات مخلوقات وحشية تتسابق، وتنقر أقدامها الأرض كصوت المطر على أوراق الشجر. وداسَت أقدامُها على عقله في صخب مدمدم، أقدام فرائس وأرانب، أقدام أيول ذكور وأيول أناثي وظباء، حتى لم يَعُد يسمعها بعد ذلك، ولم يَعُد يتذكر سوى إيقاعٍ مزهوٍّ لسطورٍ من «نيومان»:

– «مَن أقدامه كمثل أقدام أناثي الأيل، ولكن تكمن تحتها الأسلحة الخالدة».

وأعادَت كبرياء تلك الصورة المعتمة إلى ذهنه هيبة المنصب الذي رفضه. لقد تأمل طويلًا خلال فترة طفولته كلها فيما اعتبره غاية حياته، وحين حانت اللحظة التي يجب عليه فيها أن يُجيبَ النداء، تحوَّل جانبًا وراء فترة ملتوية. ولقد فات الوقت الآن: لن يمسح زيت الترسيم جسده أبدًا. لقد رفض. لماذا؟

وتحوَّل ناحية البحر عن طريق «دوللي ماونت». وحين وصل إلى الجسر الخشبي الرفيع شعر بألواحه تهتزُّ بوقْع أقدام أحذية ثقيلة. كانت شرذمةٌ من القسس المسيحيِّين في طريق عودتها من منطقة «بول»، وبدأَت تعبِّر الجسر مثنى مثنى. وعلى الفور أخذ الجسر يهتزُّ ويصلصل، وعبرت به الوجوه الغليظة مثنى مثنى، وقد لطخها البحر بالألوان الصفراء أو الحمراء أو الزرقاء الداكنة. وإذ كان يجاهد أن ينظر إليهم براحة ولا مبالاة، ارتفعت إلى وجهه لطخةُ عارٍ وشفقة شخصيَّين، وحاول وقد غضب من نفسه أن يُخفيَ وجهَه عن عيونهم بالتطلع جانبًا إلى المياه الضحلة الدوارة تحت الجسر، ولكنه رأى هناك أيضًا انعكاسَ قبعاتهم الحريرية المثقلة الطرف، وياقاتهم المتواضعة التي تُشابه الشريط، وملابسهم الكنسية التي تفيض على أجسادهم.

– الأخ هيكي.

الأخ كايد.

الأخ ماك آردل.

الأخ كيوج.

ستكون تقواهم مثل أسمائهم، مثل وجوههم، مثل ملابسهم. وكان باطلًا منه أن يُخبر نفسه أنه قد يكون في قلوبهم المتواضعة الخاشعة من ثراء التدين أكثر مما كان له في يوم من الأيام، وهي هبة مقبولة مائة مرة أكثر من عباداته المنمقة. كان باطلًا منه أن يدفع نفسه أن يكون كريمًا معهم، أو أن يُقنع نفسه أنه لو أتى إلى أبوابهم عاريًا من كبريائه، مهانًا، مشتملًا في أسمال الشحاذين فسوف يكونون كرماء معه ويحبونه كما يحبون أنفسهم. وأخيرًا كان باطلًا ومريرًا منه أن يجادل ضد يقينه الفاتر بأن الدين لم يأمرنا بأن نحب جارنا كما نحب أنفسنا بنفس مقدار الحب وحدَّته، بل بأن نحبَّه كأنفسنا بالنوع نفسه.

واستخرج عبارة من كنوز ذكرياته، وردَّدها لنفسه في رفق.

– يوم سحب بحرية رقطاء.

واتسقت العبارة واليوم والمشهد مؤتلفة بعضها مع بعض مجرد كلمات.

أهي ألوانها ما تسبب الاتساق؟ وسمح لها بالتوهج ثم الانطفاء، لونًا وراء لون: الشروق ذهبي، بساتين التفاح صفراء، وخضراء، الأمواج زرقاء، نتف السحب سنجابية الوشي. كلا، ليست هذه ألوانها، إنها توازن وإيقاع هذه العبارة نفسها. إذن، هل هو يحب ارتفاع الكلمات وانخفاضها الإيقاعي أكثر من ارتباط هذه الكلمات باصطلاحات أو ألوان؟

أو هل يكون الأمر، إذ هو يشكو ضعفَ الإبصار ووجلَ النفس، أنه يستمد مسرةً أقل من انعكاس العالم الحسي المتوهج عن طريق منثور لغة عديدة الألوان ثرية الطبقات اعنها من التأمل في عالمٍ داخلي من العواطف الفردية التي تنعكس في كمال في عبارات نثرية هادئة مرنة.

وعبر الجسر المهتز إلى الأرض الثابتة ثانيةً، وبدا له في تلك اللحظة أن الهواء قد برد. وحين نظر بطرف عينه إلى المياه رأى عصفًا طائرًا يُظلم المد ويموِّجه فجأة. ومرةً أخرى أظهرت له دقة واهنة في قلبه وخفقة واهنة في حلقه، كيف يخشى جسدُه رائحة البحر الباردة تحت الإنسانية، ولم ينعطف مع ذلك إلى المروج التي تقع على يساره، بل واصلَ سيرَه إلى الأمام على طول سلسلة الصخور التي قامت في مواجهة فوهة البحر.

وأضاء شعاعٌ باهت من الشمس صفحةَ المياه الداكنة، حيث ينحصر البحر في الخليج. وعلى البعد، على طول مجرى بحر «لايفي» البطيء السريان، ملأت السماءَ نتفٌ رقيقة من السحاب، وأبعد من ذلك، كان نسيج المدينة المعتم يرقد منكبًّا على اغبرار، وكمثل منظرٍ مرسوم على قماش ثمين غامض، وقديم قِدَم متاعب البشر، بدَت لناظريه صورة مدينة المسيحية السابعة عبر الهواء غير المحدود، غير قديمة ولا تعبة ولا أقل اصطبارًا على العبودية، أكثر مما كانت في أيام البرلمان الإسكندنافي الأول.

ورفع عينَيه وقد فترَت همتُه ناحية السحب البحرية البطيئة السريان. كانت ترحل عبر فيافي السماء، جماعة من البدو يرتحلون، يضربون في أعماق أيرلندا ووجهتهم الغرب. وترقد أوروبا التي جاءوا منها هناك وراء البحر الأيرلندي، أوروبا ذات اللسان الغريب المليئة بالأودية، المحاطة بالغابات، المكتظة بالقلاع، ذات العناصر المحضة المحتشدة.

وسمع موسيقى مهوشة في داخله، شبيهة بذكريات وأسماء يكاد يكون واعيًا لها، ولكنه لم يستطع الإمساك بها ولو لحظة واحدة، ثم بدَت الموسيقى وكأنما ترتد، ترتد، ترتد، ومن كل رنة مرتدة من الموسيقى السديمية كان يسقط دائمًا لحنُ هاتف واحد طويل الترجيع، يخز غبشة الصمت كالنجم، ثانية، ثانية، ثانية! كان الصوت ينادي من وراء الدنيا.

– هاللو، ستيفانوس!

– ها هو ديدالوس!

– آو! … إه، قلت لك توقَّف عن ذلك يا «دواير»، وإلا سأُعطيك ركلةً لم تكن تحلم بها، … آو!

– أيها الرجل الطيب «تاوزر»، انفض رأسه.

– تعالَ يا ديدالوس! «بوس ستيفانو مينوس!» «بوس ستيفانو مينوس!»
– انفضْ رأسه، اجعلْه يعبُّ الشراب الآن يا «تاوزر».
النجدة! النجدة! آو!

وتعرَّف على حديثهم مجتمعين قبل أن يميِّز وجوههم، وسرَت الرعدة إلى عظامه من مجرد النظر إلى هذا الخليط من العري المبلل. والتمعت أجسادهم برطوبة البحر، بيضاء كالجثث أو مخضبة بالضوء الذهبي الشاحب أو لفحَتها الشمس. وكانت الصخرة التي يستخدمونها منطًّا، والمقامة على عُمد طبيعية وتهتز لدى قفزاتهم، وصخور المياه المنسابة المنحوتة الخشنة، التي كانوا يتسلقونها في لهوهم المزعج تلتمع بضياء رطب بارد. وكانت المناشف التي يجفِّفون بها أجسادهم مثقلة برطوبة البحر وشعرهم القاتم مبللًا بماء البحر البارد.

ووقف ساكنًا إكرامًا لنداءاتهم، وتفادى هذرهم بكلمات سهلة. كم يبدون عديمي الشخصية، «شولي» مجردًا من ياقته العريضة المفكوكة، و«إينيس» مجردًا من حزامه القرمزي ذي المشبك الثعباني، و«كونولي» مجردًا من معطفه الذي جلبه «من نورفوك» ذي الجيوب الخالية من الأهداب! كانت رؤيتهم ألمًا له، ويزيده ألمًا على ألم رؤياهم وعليهم أمارات المراهقة التي جعلت من عريِّهم المثير للشفقة غثيانًا، ربما لجئوا إلى الصحبة والصخب هربًا من الوجل الخفي في أرواحهم. وتذكَّر بعيدًا عنهم وفي صمتٍ الوجلَ الذي انتابه من لغز جسده.

– ستيفانوس ديدالوس! بوس ستيفانو مينوس! بوس ستيفانو نيفوروس!

لم يكن هذرهم جديدًا عليه، وعمل الآن على تملُّق سيطرته اللطيفة المتعالية. والآن بدا له اسمه الغريب نبوءة، كما لم يحدث من قبل. كم يبدو الهواء الدافئ الرمادي أزليًّا، ومزاجه مرنًا غير شخصاني، حتى استوَت في نظره كل العصور. وأطل عليه منذ لحظة واحدة تسبح مملكة الدنمرك القديمة، من خلال وشاح المدينة التي يلفُّها الاغبرار. والآن وعلى ذكر اسم الصانع الخرافي،[٨] بدا كأنه يسمع ضجة أمواج معتمة، ويرى جسمًا مجنحًا يطير فوق الأمواج، ويتسلق الهواء في بطء … ماذا يعني ذلك؟ أتكون حيلة فارهة تفتح

[٨] يقصد النحات والمثَّال اليوناني «ديدالوس» الذي قالت الأساطير اليونانية إنه شيَّد مبنى التيه للأمير الكريتي «مينوس»، ثم غضب عليه الأمير فسجنه هو وابنه فيه، فصنع ديدالوس له ولابنه أجنحةً وطارَا إلى صقلية.

أمامه صفحة كتاب من القرون الوسطى عن النبوءات والرموز، رجلٌ عن هيئة الصقر يطير تجاه الشمس فوق البحر، نبوءةٌ عن الغاية التي وُلد ليخدمها والتي كان يتتبعها خلال ضبابات الطفولة والشباب، رمز الفنان في مصنعه يعيد خلق المادة الأرضية الهزيلة، ويُحيلها إلى كيان جديد محلق لا يُحس ولا يفنَى؟

وارتجف فؤاده، وتلاحقت أنفاسه، وعبرَت روحٌ وحشيةٌ على أطرافه، كأنما يحلق إلى موضع الشمس. وارتجف فؤاده في نشوة وخوف، وغمرَت روحَه حالةُ استعلاء. كانت روحه تُحلق في الأجواء وراء الدنيا، وكان البدن الذي يعرفه يتطهر في زفرة، ويتخلص من الشق ويتألق ويمتزج بعنصر الروح. وأحالت نشوةٌ من الاستعلاء عينَيه متألقتَين وأنفاسه حادة، وأطرافه التي عصف بها الريح مرتجفة حادة.

– واحد! اثنين! انبته.

آه «يا كريبس»، إني أغرق!

– واحد! اثنين! ثم عند ثلاثة.

– التالي! التالي!

– واحد! آه.

– ستيفا نيفوروس.

واحترق حلقُه برغبة في الصياح عاليًا، صيحة البازي أو النسر مُحلقًا في الجو، صياح نفاذ يُعلن انتقاله إلى الرياح. كان هذا دعوة الحياة لروحه، مخالفًا للصوت السقيم الغليظ الذي يدعوه لعالم الواجبات واليأس، مخالفًا للصوت غير الإنساني الذي دعاه إلى خدمة المذبح السقيمة. لقد أنقذَته لحظة استعلاء وحشي، وشقَّت ذهنَه صيحةُ الفوز التي حبستها شفتاه.

– ستيفا نيفوروس.

ما هذه الأشياء الآن سوى الأكفان وقد نفضها البدن الميت عن نفسه، الخوف الذي اشتمله في المساء والعشي، الشك الذي كان يلفُّه من جميع نواحيه، العار الذي جلَّله من فوقه ومن تحته، أكفان، ثياب القبر؟

لقد خرجت روحُه من قبر الطفولة، وهي تنضو أكفانها. أجل! أجل! أجل! سوف يخلق في فخر من حرية روحه وقوتها، مثلما فعل الصانع العظيم الذي يحمل اسمه، شيئًا حيًّا، جديدًا، ساميًا، جميلًا، لا يُحسُّ، ولا يُنفى.

وانطلق في عصبية من عند كُتَل الحجارة، فلم يكن باستطاعته أن يُطفئ النار التي تجتاح دماءه أكثر من ذلك. وشعر بخدَّيه ملتهبَين، وحلقه يُردِّد أغنية. كانت شهوة السير

في قدمَيه تدفعه إلى الانطلاق إلى أواخر الدنيا، وبدا كما لو أن قلبَه يردِّد: سِر! سِر! سيتكاثف المساء فوق البحر، ويسقط الليل على السهول، ويلتمع الفجر أمام الهائم ويكشف لناظرَيه حقولًا وتلالًا ووجوهًا غريبة، أين؟

ونظر شمالًا نحو «هاوت». كان البحر قد انحسر عن خط حشائش البحر على الجانب الضحل من المياه، وكانت مياه المد آخذة في التزايد بسرعة على طول الشاطئ، كما لو كان هناك شطٌّ بيضاوي طويل من الرمال، يرقد دفيئًا جافًّا بين الموجات الصغيرة. وكانت تلتمع هنا وهناك جزر دفيئة من الرمال فوق المد الضحل، بينما يخوض أشخاصٌ أنصاف عرايا، ويغوصون حول الجزر وحول السد الطويل وبين تيارات الشاطئ الضحلة.

وفي لحظات كان عاريَ القدمين، وطوى جوربَيه ووضعهما في جيبه، وعلَّق على كتفه حذاءَه المطاطي بشريطه المعقود، والتقط عصًا مدببة أكلها الملح من مطروحات البحر من بين الصخور وهبط المنحنى.

كان هناك جدولٌ صغير في الشاطئ، وخاض فيه ببطء، وتعجَّب من أكوام حشائش البحر التي لا تنتهي، زمردية وسوداء وصفراء زيتونية، تتحرك تحت المجرى، تترنح وتتلفت. وكانت مياه الجدول الصغير داكنة من الحشائش العديدة، وتعكس السحب المتكاثفة. كانت السحب تسبح فوقه في سكون، وفي سكونٍ تسبح مياه البحر تحته، والهواء الرمادي الدافئ ساكن وحياة جديدة جامحة تغنِّي في عروقه.

أين فترة صبوته الآن، أين الروح التي كانت تبتعد عن مصيرها لكي تعكف في عزلة على عار جراحها في مرقدِ وحْلِها ومهربِها، ثم يُجللها في أكفان ذاوية وأكاليل تذوي عند لمسها؟ آه، أين كان؟

كان وحيدًا، كان خاليًا، سعيدًا وقريبًا من قلب الحياة الجامح. كان وحيدًا وشابًّا وعنيدًا جامح القلب، وحيدًا وسط يباب من الهواء الجامح ومياه أجاج، وجني البحر من الصدف وأشعة الشمس المشتبكة المحجبة الرمادية، وشخوص الأولاد والبنات أنصاف العرايا المرحين وأصوات الأولاد والبنات ترتفع في الهواء.

كانت فتاة تقف أمامه في مجرى الجدول، وحيدةً ساكنة، تُحملق في البحر. بدَت كما لو كانت واحدةً قد أحالها السحر إلى ما يُشابه طائر البحر الغريب الجميل. كانت ساقاها الطويلتان اللطيفتان العاريتان الرقيقتان رقيقتَين مثل ساقَي طويل البحر، وصافيتَين إلا من خيط زمردي من حشيش البحر، شكَّل نفسه على هيئة العلامة فوق اللحم. وكانت فخذاها، المستديرتان، والناعمتا الصياغة كالعاج، عاريتَين حتى العجز تقريبًا، حيث أطراف

سراويلها البيضاء تُشبه ريش الطير الناعم الأبيض، وكانت تنورتها الزرقاء ملفوفةً في جرأة حول وسطها ومعقودة خلفها على هيئة اليمامة. وكان صدرها مثل صدر الطير، رقيقًا نحيلًا، نحيلًا رقيقًا كصدر يمامة داكنة الريش، غير أن شعرها الجميل الطويل كان بنوتيًّا، ويلمس وجهها في عجب الجمال الآدمي.

كانت وحيدةً ساكنة، تُحملق في البحر. وحين أحسَّت وجوده وصلاة عينَيه، تحوَّلت عيناها إليه في معاناة هادئة من نظرته دون خجل أو خلاعة. طويلًا، عانَت من عينَيه طويلًا، ثم نحَّت عينَيها عن عينَيه في هدوء وأحنَتهما إلى الجدول الصغير، وهي تحرِّك المياه في رفق بقدمها هنا وهناك. وقطع الصمتَ ضجةُ المياه الخافتة وهي تتحرك في رفق، خفيضة وخافتة وهامسة، خافتة كأجراس النوم، هنا وهناك، هنا وهناك، وارتعد وهجٌ خافتٌ على خدَّيها.

وصاحَت روحُ ستيفن في انبثاقة فرح دنيوي: يا إله السماوات.

وتحوَّل عنها فجأةً وحثَّ خطاه نحو الشاطئ، كان خدَّاه متوهجَين، وجسدُه مشتعلًا، وكانت أطرافه ترتعد، وخطَا سائرًا سائرًا إلى الأمام على الرمال، يغني للبحر في جموح، يصيح مرحبًا بالحياة التي نادَته. لقد دخلت صورتُها إلى روحه إلى الأبد ولم تحطِّم كلمة واحدة صمت نشوته المقدس. لقد نادَته عيناها وقفزت روحه للنداء، نادَته ليحيا، ليُخطئ، ليسقط، لينتصر، ليُعيد خلق الحياة من الحياة! لقد ظهر له ملاكٌ جامح، ملاك الشباب والجمال الدنيوي، مبعوث الحياة الجميلة، ليفتح أمامه في لحظة نشوة أبواب طرق الخطأ والمجد. سار وسار وسار وسار.

وتوقَّفت فجأة وأنصتَ إلى قلبه في السكون. كم سار؟ ما الساعة الآن؟

لم يكن بقربه مخلوقٌ، ولم يحمل له الهواء أيَّ صوت، ولكن المد كان على وشك الانحسار والنهار يحتضر، وتحوَّل ناحية اليابسة وجرى إلى الشاطئ، وارتقى المنحنى غير مبالٍ بالحصى الحادة، وعثر على تلٍّ رملي وسط حلقة من الروابي الخضر ورقد عليها، علَّ هدوء المساء وسكونه أن يُهدِّئا من ثورة دمائه.

وشعر بالقبة اللامبالية العريضة فوقه ومسار الأجرام السماوية الهادئة، والأرض من تحته، الأرض التي حملَته، قد احتضنَته في صدرها.

وأغلق عينَيه في فتور النوم، وارتعد جفناه كأنما أحسَّا بالحركة الدائرية العريضة للأرض وحرَّاسها، ارتعدَا كأنما أحسَّا بضوء غريب لعالمٍ جديد، كانت روحه تغشى في عالم جديد، خرافي، معتم، متقلب، كأنما يرقد تحت المياه، تتخلله هيئات ومخلوقات غامضة،

عالمٌ، أم لمعة، أم زهرة؟ يلتمع ويرتعد، يرتعد ويكشف، ضوءٌ يتكسر، زهرةٌ تتفتح، تفتحت لنفسها في تتابع لا نهائي، تفتَّحت في قرمزية كاملة وانتشرت، ثم تقلَّصت إلى زهرةٍ شاحبةٍ، ورقةً ورقةً وموجة ضوء وراء موجة ضوء، مغرقة السماء جميعًا في تورداتها الرقيقة، وكل تورد أشد عمقًا من سابقه.

وكان المساء قد أسدل ستاره حين استيقظ ولم يَعُد الرمل ولا الحشائش القاحلة التي تؤلف مرقده تتوهج. ونهض في بطء واستعاد سحر نومه وتنهَّد من بهجته.

وصَعِد إلى قمة التل وتطلَّع من حوله: لقد انسدل المساء. وكانت حافة القمر الشاب تشق يبابَ خط السماء الشاحب، حافة طوق فضي مطمور في الرمال الرمادية. وكان المد يرتفع على الأرض في سرعةٍ، وتهمس موجاته همسًا خفيضًا، ويحاصر قليلًا من الشخوص الأخيرة الذين يخوضون في البِرَك البعيدة.

الفصل الخامس

أفرغ الكوب الثالث من الشاي الخفيف حتى الثمالة، ثم انهمك في مضغ فتات الخبز المحمر الجاف الذي كان متناثرًا بجانبه، وأخذ يُحملق في بركة الإناء الأسود. كانت القطرات الصفراء تنزُّ كالأرض الموحلة، وأعاد منظر البركة التي تكونت المياه القاتمة الاخضرار في حمَّام كلونجوز إلى ذاكرته. وكان صندوق قسائم الرهونات عند مرفقه قد بدأ ينثلم، وتناول في كسلٍ بأصابعه الملطخة بالدهن إشارات القسائم الزرقاء والبيضاء ورقة وراء أخرى، مسطَّرة ملوثة بالرمل ومغضنة، وتحمل اسم الراهن مثل «دالي» أو «ماكيفوي».

١ زوج من النعال.
١ معطف داكن.
٣ متنوعات وملاءات.
١ سروال رجالي.

ثم وضعها جانبًا وحدَّق متأملًا في غطاء الصندوق المغطى بعلامات قذرة، وسأل في غموض: كم الساعة الآن؟

وأقامت أمُّه المنبه القديم الذي كان مقلوبًا على أحد جانبَيه في منتصف رف المدفأة، حتى أبانت صفحته الساعة الثانية عشرة إلا ربعًا، ثم أنامَته ثانيةً على جنبه.

قالت: ساعةٌ وخمس وعشرون دقيقة. الوقت الصحيح الآن هو العاشرة والثلث، يعلم الله أن الواجب عليك أن تحاول اللحاق بمحاضراتك.

قال ستيفن: املئي لي الحوض لأستحم.

– «كاتي»، املئي الحوض لستيفن ليستحم.

– «بودي»، املئي الحوض لستيفن ليستحم.

– لا أستطيع، فأنا مشغولةٌ تمامًا، املئيه أنت يا ماجي.

وحين ثُبت الحوض المطلي بالميناء قرب البالوعة، وألقيت عليه فرشاة الحمَّام القديمة، سمح لوالدته أن تحكَّ رقبته وتنظف ثنايا أُذُنَيه وطاقتَي أنفه.

قالت: إنه شيءٌ مؤسف حين يكون طالب الجامعة على مثل هذه القذارة حتى تضطرَّ أمُّه أن تُنظفه.

فقال ستيفن في هدوء: ولكن هذا يبعث فيك السرور.

وانبعث صفيرٌ يخرق الآذان من الدور الأعلى، وألقَت أمُّه بمنشفةٍ رطبة في يدَيه قائلة: جفِّف نفسك وأسرع بحق السماء.

ودفعت صفارة حادة أخرى أطالها الغضب بواحدة من الفتيات إلى أسفل السلم.

– أجل يا أبي؟

– ألم يخرج أخوك الكسول الكلب؟

– بلى يا أبي.

– أأنتِ متأكدة؟

– أجل يا أبي.

– ها؟

وعادت الفتاة وهي تُشير إليه أن يُسرع ويخرج في هدوء من الباب الخلفي، وضحك ستيفن وقال: إن فكرته عن أجناس الكلمات غريبة إن كان يظن أن الكلبة مذكر. فقالت أمه: إنه عارٌ مخجل لك يا ستيفن، وسوف تعيش لتندم على اليوم الذي وضعتَ قدمك في مثل هذا المكان. إني أعرف كم غيَّرك. فقال ستيفن وهو يبتسم ويقبِّل أطراف أصابعه مودعًا: سعدتم صباحًا جميعًا.

كانت الحارة خلف الشرفة غارقةً في الوحل، وحين سار فيها ببطء محاذرًا الخطَى وسط أكوام من النفايات المبتلة، سمع راهبةً مخبولة تصرخ في بيت الراهبات المجنونات من خلف الجدران: يسوع! يا يسوع! يا يسوع!

ونفض الصوت من أُذُنَيه بهزةٍ غاضبةٍ من رأسه، وأسرع في سيره يتعثر بين القمامة المتراكمة، وقد وخز قلبَه ألمُ الازدراء والمرارة، وتحوَّل صفيرُ والده وتمتمات والدته وعويل المجنونة الخفية إلى أصوات جد كثيرة، تُسيء إلى زهو شبابه وتُهدد بكسر أنفته. وطرد أصداءها خارج قلبه وهو يلعنها. وإذ كان يسير في الطريق ويشعر بضوء الصباح الرمادي يسقط عليه من خلال الأشجار النادية، ويشم الرائحة الغريبة الجامحة للأوراق ولحاء الأشجار المبتلة، انطلقت روحه من إسار شقوتها.

وأثارَت الأشجار المحملة بالمطر في الطريق، في نفسه — كما تفعل دومًا — ذكريات الفتيات والنساء في ملاعب «جيرهارت هوبتمان»، واختلطَت ذكرى أحزانهن الشابة مع العبير الذي يسقط من الأفنان المبتلة في حالة الفرح الهادئ. لقد بدأت مسيرته الصباحية عبر المدينة، وكان يعرف سلفًا أنه حين يمرُّ على أرض «فيرفيو» الموحلة، فسوف يفكر في نثر نيومان التعبدي ذي الأوردة الفضية، وأنه حين يسير في طريق «نورث ستراند» يتطلع في كسل إلى نوافذ محلات البقالة، فسوف يستعيد مرح «جيدو كافالكانتي» المكفهر ويبتسم، وأنه حين يمر على محلات «بيرد» لأعمال قطع الأحجار في «تالبوت بليس»، ستنبثق فيه روح «إبسن» كالريح الحاد، روح جمال صبياني عنيد، وأنه حين يمرُّ على محلٍّ قذر من محلات المعاملات الملاحية وراء نهر «الليفي»، فسوف يردِّد أغنية ابن جونسون التي تقول:

لم أكن أكثر ضنى حيث أرقد.

وحين يتعب ذهنُه من البحث وراء جواهر الجمال وسط كلمات أرسطو أو أكويناس الطيفية، كان غالبًا ما يتحول إلى بهجة الأغاني الإيزابثية الحلوة. وكان ذهنه يقف دومًا في ثياب الكاهن الشاك في ظلال نوافذ هذا العصر، يستمع إلى موسيقى عازفي الفلوت الرزينة الساخرة أو ضحكة صريحة لأحد السكارى، إلى أن تخزَّ كبرياءَه ضحكةٌ خفيضة أو عبارة فاحشة صلفة لوثها الزمن، وتدفعه إلى الخروج من برج مراقبته.

وكانت الحكمة التي يُعتقد أنه يمضي أيامه عاكفًا عليها لدرجةٍ شغلَته عن صحبة الشباب من أمثاله، ليست إلا مجموعة من العبارات الرقيقة من كتاب الشعر والسيكولوجي لأرسطو و Synopsis philosophiae Scholasticae ad mentem divi Thomae،[١] وكان تفكيرُه غبشةً من الشك والريبة في النفس، يُضيئه نورُ الحدس أحيانًا، ولكنه نور ذو بهاء وضاح، حتى إن العالم يفنَى تحت قدمَيه في تلك الأوقات، كأنما قد التهمَته النيران. وبعدها ثقل لسانه وقابل أعين الآخرين بعيون لا جواب فيها، فقد شعر بأن روح الجمال قد طوَته كالملاءة، وأنه قد تعرف بالنبالة الحقة في أحلام اليقظة على الأقل، غير أنه حين كان زهو الصمت القصير يكفُّ عن مساعدته، يسعده أن يجد نفسه لا يزال وسط الحياة العادية، يمر في طريقه بين قذارةِ المدينة وصخبِها وتوانيها دون خوف وخالي الفؤاد.

[١] ملخص فلسفة القديس توماس وآراؤه الأكاديمية.

وبالقرب من سياج القناة صادف الرجل المصدور ذا الوجه الذي يُشبه دُمَى الأطفال والقبعة التي بلا حواف، يسير نحوه تحت منحدر الجسر بخطوات قصيرة، ومعطفه البُنِّي مغلقٌ عليه بإحكام، ويُمسك بمظلته المطوية أمامه شبرًا أو شبرَين مثل عصا الركوب. وجال في فكره أن الساعة ربما تكون الحادية عشرة، وأطل في محلٍّ للألبان ليرى الساعة.

وأخبرَته ساعة المحل أن الوقت الخامسة إلا خمس دقائق، غير أنه سمع وهو يلتفت جانبًا ساعة بقربه من ناحية ما، ولكنها غير مرئية، تدقُّ إحدى عشرة مرة في دقة سريعة. وضحك حين سمعها فقد جعلَته يفكر في «ما كان»، وتمثَّله شخصًا مكتنزًا في ملابس الصيد وسراويله، بلحية لطيفة يقف في الرياح عند منعطف هوبكنز، وسمعه يقول: يا ديدالوس، أنت شخص غير اجتماعي، مغلولق على نفسك. إنني لست مثلك، إنني ديمقراطيٌّ وسأعمل وأجاهد من أجل الحرية والمساواة الاجتماعية بين جميع الطبقات والعناصر في الولايات المتحدة الأوروبية في المستقبل.

إحدى عشرة! إذن فقد تأخر كذلك عن المحاضرة، أي يوم من أيام الأسبوع هذا؟ وتوقَّف لدى متعهد صحف ليقرأ رأس إحدى الصحف، الخميس، الحادية عشرة إلا عشر دقائق، لغة إنجليزية، الثانية عشرة إلا إحدى عشرة دقيقة: لغة فرنسية، الواحدة إلا اثنتي عشرة دقيقة: طبيعة. وتمثل لنفسه محاضرة اللغة الإنجليزية وشعر وهو على هذا البعد بالقلق واليأس. ورأى رءوس زملاء صفِّه، ينحنون في دعة إذ يكتبون في كراساتهم النقاطَ التي يُطلَب منهم أن يلاحظوها، تعريفات اسمية، تعريفات أساسية وأمثلة وتواريخ ميلاد أو وفاة، الأعمال الرئيسية، نقد تقريظي ونقد هجائي جنبًا إلى جنب، ولم يكن رأسُه هو محنيًّا معهم؛ فقد جالت أفكاره خارجًا، وسواء جال بناظرَيه حول صفِّ الطلبة الصغير أو خارج النافذة عبر حدائق المتنزه المهجورة، كانت تُهاجمه رائحةُ رطوبة المخازن الكئيبة والعفونة. وتمركز رأسٌ آخر غير رأسه أمامه مباشرةً في الصفوف الأمامية فوق رءوس زملائه المنحنين، وكان يُشبه رأسَ قسٍّ يتضرع في غير ذلٍّ أمام الهيكل من أجل المصلين الخاضعين من حوله. لماذا لم يستطع أبدًا حين فكر في كرانلي أن يتمثل أمام ذهنه صورة جسده الكاملة، بل اقتصر على صورة رأسه ووجهه فقط؟ بل إنه رآه أمامه الآن على ستار الصباح الرمادي مثل طيف الأحلام: وجهٌ كالرأس المقطوع أو كقناع الموت، يُتوِّجه شعره الجامد الأسود المنتصب مثل التاج الحديدي حتى حاجبَيه. كان وجهه شبيهًا بوجوه القسس، شبيهًا بوجوههم في شحوبه وأنفه العريض المجنح، وظلال ما تحت العينين وعلى الفكَّين، شبيهًا بوجوههم في شفتَيه الطويلتَين الخاليتَين من الدماء، واللتين تكادان تبسمان.

وحين يتذكر ستيفن في خفة كيف أخبر كرانلي بكل الخصب والقلق، والتلهفات التي تملأ روحَه يومًا بعد يوم وليلةً بعد ليلة، ليُجيبَه صديقه بالصمت المنصت، ليخبر نفسه أن وجه كرانلي يُشبه وجهَ قسٍّ مذنب، يستمع إلى اعترافات مَن لا يملك السلطة على إبرائهم، ولكنه شعر ثانيةً في ذاكرته بنظرة عينَيه الأنثويَّين.

وتمثَّل من خلال صورته لمحةً من كهفِ تأملٍ عجيب مظلم، ولكنه تحوَّل عنه على الفور وهو يشعر أن الساعة لم تَحِن بعدُ لدخوله، ولكن لا مبالاة صديقه بدَت وكأنها تنفثُ رائحةً خافتة قتَّالة في الهواء الذي يحوطه، ووجد نفسَه ينقل البصر من كلمة عابرة إلى أخرى على يمينه أو يساره، متعجبًا في فتور من خلوِّها لهذه الدرجة الساكنة من الإحساس العفوي، حتى إن أيَّ يافطة محل حقير تجذب ذهنَه ككلمات سحر، وروحه تتقلص وتزفر من الكبر، بينما هو يغذُّ السير في إحدى الحواري بين أكوام اللغة الميتة. وكان إحساسه الخاص باللغة يطفو من عقله ويتسرَّب إلى نفس الكلمات ذاتها، التي تجمع نفسها ثم تنفصل في إيقاعات ملتوية:

اللبلاب ينتحب فوق الجدار،
وينتحب وينجدل على الجدار.
اللبلاب الأصفر على الجدار.
لبلاب، لبلاب فوق الجدار.

هل سمع أحدٌ مثل هذا الهذر من قبل؟ يا الله القدير! مَن ذا سَمِع عن لبلاب ينتحب فوق جدار؟ لبلاب أصفر، هذا جميل. عاجٌ أصفر أيضًا، وماذا عن اللبلاب العاجي؟[٢]

ولمعَت الكلمة الآن في عقله أكثر وضوحًا ولمعانًا من أيِّ عاجٍ مقطوع من ناب فيل موكَّت:[٣] عاج، أيقوري، أقوريو، إيبور[٤] من الأمثلة الأولى التي تعلمها في اللغة اللاتينية هي: India mittit ebur،[٥] واستعار وجه المدير الشمالي الفطن الذي علَّمه كيف يترجم «تحولات» «أوفيد» إلى لغة إنجليزية سليمة، ذلك الوجه الذي يربدُّ ويتقلص عند ذكر

[٢] هنا تورية عن كلمتَي لبلاب وعاج، بالإنجليزية.
[٣] أي أثر من البياض في سواده أو أثر من السواد في بياضه.
[٤] يذكر المؤلف هنا اسم «عاج» باللغات المختلفة.
[٥] «تُصدِّر الهند العاج».

الخنازير وقِطَع الفخار المكسورة وفقار لحم الخنزير. كان قد أدرك مدى قلة معرفته بأحكام الشعر اللاتيني من كتابٍ مُزِّق كتَبَه قسٌّ برتغاليٌّ:

Contrakit orator, variant in carmine vates.[٦]

وقد وصلَت إليه أحداثُ الأزمات والانتصارات والانشقاقات في التاريخ الروماني في الكلمات الثلاثة: In tanto discrimine،[٧] وحاول أن ينظر في الحياة الاجتماعية لمدنية المدن من خلال الكلمات Implere ollam denariarum، التي ترجمها المدير في جلجلة بأنها ملءُ الجرة بالقِطَع النقدية. ولم يكن يلمس صفحات كتاب «هوراس» البالي باردًا أبدًا، حتى حينما تكون أصابعه ذاتها باردة «كانت صفحاتٌ آدمية، قلبتها منذ خمسين عامًا أصابع «جون دنكان إنفرارتي» الآدمية وأصابع أخيه «وليام مالكولم إنفرارتي».» أجل كانت هذه أسماء نبيلة مسطَّرة على صفحات الغلاف المغبرة. ولكن هذه الأشعار الغبراء كانت — حتى لشخص ضعيف في اللاتينية مثله — عبقةً، كأنما رقدَت طوال هذه السنوات بين نبات الآس واللافندر والقيرفين،[٨] وقد آلَمَه رغم ذلك التفكير بأنه لن يكون سوى ضيف خجول أمام مائدة ثقافة الدنيا، وأن معرفة الرهبان التي كان يجاهد عن طريقها في فلسفة جمالية، لا يقدِّرها العصر الذي يعيش فيه بأكثر من اللغو العجيب الدقيق للشعوذة أو صيد الصقور.

وجذب روحه إلى الواقع ثانيةً مبنى «ترينتي» الرمادي على يساره، يقوم في ثقلٍ على جهل المدينة كالحجر السقيم الذي يُقام على حلقة عائقة. وبينما هو يجاهد بهذه الطريقة أو تلك ليُحرر قدمَيه من أغلال الضمير المنصلح، وصل إلى تمثال شاعر أيرلندا القومي الغريب.[٩]

نظر إليه دون نقمة؛ فعلى الرغم من أن فتور الجسد وفتور الروح قد زحفا عليه كالدودة الخفية، على الأقدام المتثاقلة وفوق ثنايا العباءة وحول الرأس الخنوع، فقد بدا واعيًا في هوان إلى حقارته. لقد كان أشبهَ «بفير بولج» في عباءة «فيلبسيان» المستعارة.

[٦] يختم المحاضر بقوله، يتنوع الشعراء في قوافيهم.

[٧] في كثير من نقاط النقاش.

[٨] نباتات عطرية.

[٩] توماس مور (١٧٧٩–١٨٥٢).

وفكر ستيفن في صديقه «دافين»، الطالب الريفي. كان لقبًا هاذرًا بينهما، ولكن الريفي الشاب تحمَّله في خفةٍ قائلًا: إيه يا ستيفي، إنَّ لي رأسًا عنيدًا كما تقول، فلتنادني بما شئت من أسماء.

وابتهج ستيفن عندما نطقَت شفتا الصديق بالنسخة المنزلية لاسمه الأول حين سمعه لأول مرة؛ لأنه كان رسميًّا في معاملاته مع الآخرين كما كانوا هم معه. وغالبًا، حين كان يجلس في منزل دافن في «جرانتام ستريت» متعجبًا من أحذية صديقه الجيدة الصنع التي تصطفُّ إلى جانب الجدار زوجًا زوجًا، يردِّد على مسمع آذان صديقه البسيط أشعار الآخرين ولزماتهم التي تمثِّل غشاءَ تلهفاته وصدِّه، وقد جذب عقلُ محدثه الفظ على طريقة «فير بولج» ذهنَ ستيفن نحوه وردَّه عنه ثانيةً، يجره إليه عن طريق أدب استماع هادئ متأصل، أو عن طريق منحى غريب لحديث بالإنجليزية القديمة، أو بقوة متعته بالمهارة الجسمانية الفظة، فقد كان دافن تلميذ «ميشيل كوزاك» الجالي المطيع، وصدَّه عنه بسرعة وفجأة بخشونة ذكائه أو ببلادة الشعور، أو بنظرة رعب سقيمة في العينين، رعب الروح في القرية الأيرلندية التي تموت جوعًا، والتي يُمثل فيها الناقوس رعبًا ليليًّا.

وكان الريفي الشاب يعبد أسطورة أيرلندا الحزينة جنبًا إلى جنب مع ذكرى الأعمال الجريئة لعمِّه «مات دافن» الرياضي. وكانت ثرثرة زملائه الطلبة الذين يجاهدون في تحويل حياة الكلية الرتيبة إلى شيء من الأهمية بأي ثمن، تميل إلى أن تتصوره شابًّا «فينانيًّا»،[١٠] كانت مربِّيتُه قد علَّمَته اللغة الأيرلندية وشكَّلت خياله الخام عن طريق الأضواء المحطومة للأسطورة الأيرلندية. لقد وقف من هذه الأسطورة التي لم يجد أيُّ عقل مفرد أيَّ سطر من الجمال فيها، والتي تتضارب قصصها في تناقض مستمر عبر العصور، كنفس موقفه من الديانة الكاثوليكية الرومانية، موقف العبد المخلص السقيم البديهة. وكان عقله يقف مسلحًا بموجب كلمة المرور ضد أيِّ فكرة أو شعور يأتي إليه من إنجلترا أو عن طريق الثقافة الإنجليزية، ولم يكن يعرف عن العالم الذي يقع وراء إنجلترا سوى مفوضية فرنسا التي كان يتحدث عن عزمه على العمل فيها.

وبالنظر إلى هذا المطمع مضافًا إليه مزاج الشاب، كان ستيفن كثيرًا ما يدعوه بالإوزة المستأنسة. وكانت هناك نقاط مضايقة في هذا الاسم المبين، منها أن تردد هذا الصديق

---

[١٠] Fenian أي عضو في الجمعية القومية لطرد الإنجليز من أيرلندا.

في القول والفعل تبدو كثيرًا ما تقف بين عقل ستيفن المتلهف على التأمل وبين الوسائل الخفية للحياة الأيرلندية.

وفي إحدى الليالي، وكانت روح الريفي الشاب قد وخزَتها اللغة العنيفة الفاخرة، التي يفر بها ستيفن من صمت التمرد الفكري البارد، مثَّلت أمام عقل ستيفن رؤية غريبة. كان الاثنان يسيران في بطءٍ نحو مسكن «دافين»، خلال طرق اليهود الفقراء الضيقة المظلمة.

– «لقد حدث لي شيء «يا ستيفي» في الخريف الماضي، حيث جئت في الشتاء ولم أُخبر أيَّ مخلوق حي به، وأنت أول شخص أُخبره به الآن. لا أذكر إذا كان هذا ما حدث في أكتوبر أو في نوفمبر، لقد حدث في أكتوبر لأنه كان قبل أن أحضر هنا لأستعد لدروس الشهادة التوجيهية».

وكان ستيفن قد حوَّل عينَيه الباسمتَين نحو وجه صديقه، وقد ملأَته هذه الثقة بالملق، وجذبته لكْنة المتحدث البسيطة إلى التعاطف معه.

– «كنت غائبًا طوال هذا اليوم عن مسكني، كنت في «بوتفانت»، ولا أعرف إذا كنت تعرف هذه المنطقة، لأشهد مباراة عنيفة بين فريق «أولاد كروك» وفريق «ثيرل الجريء»، وبالله يا ستيفي، كم كان صراعًا جبارًا، وقد تجرَّد ابنُ عمي من ثيابه ذلك اليوم، فقد كان عليه أن يلاحظ أبناء «ليهريك»، ولكنه كان معظم الوقت في مقدمة الملعب يصيح كالمجانين. لن أنسى ذلك اليوم أبدًا. وذات مرة، صوَّب أحد لاعبي «كروك» ضربةً رهيبة بعصاه تجاهه، وأشهد أمام الله أنها كانت على مقربة ذراع من جانب صدغه. أوه، بحق الإله لو أن حرفها أصابه آنذاك لكان قد قضى على الفور».

قال ستيفن وهو يضحك: إني سعيد أنه قد نجا، ولكن ليس هذا بالتأكيد الشيء الغريب الذي حدث لك؟

– «حسنًا، أعتقد أن هذا لا يهمك، ولكن حدثت ضجة هائلة بعد المباراة نسيت في عدم لحاقي بقطار العودة، ولم أتمكن من العثور على أي عربة من عربات الثيران لتنقلني؛ فقد شاء الحظ أن يكون هناك اجتماع ديني في نفس هذا اليوم في «كاسلتون روش»، وكانت كل عربات البلدة هناك، ولم يكن من مفرٍّ من قضاء الليل بها أو العودة سيرًا على الأقدام.» حسنًا، بدأتُ في السير وحثثت الخطَى، وحلَّ الظلام حين وصلتُ إلى تلال «بالي هورا» على بُعد أكثر من عشرة أميال من «كيلمالوك» وهناك طريق طويل منعزل بعدها. وهناك لا ترى علامة منزل مسيحي على طول الطريق أو تسمع صوتًا. كانت ظلمة بهيمية، وتوقفتُ مرة أو مرتين في الطريق تحت شجيرة لكي أُشعلَ غليوني، ولو لم يكن الندى ثقيلًا لكنت

قد تمددت ونمت، وأخيرًا، بعد منحنى الطريق، لمحتُ كوخًا صغيرًا يبين الضوء من نافذته، فتوجهتُ إليه وقرعت الباب، وسألني صوتٌ عمن أكون وأجبتُ أنني كنت أحضر المباراة في «بوتيفانت» وأعود سائرًا، وأنني أكون شاكرًا لو سُمح لي بكوب ماء. وبعد برهةٍ فتحَت البابَ امرأةٌ شابة، وأعطَتني جرةً كبيرة من اللبن. كانت نصفَ عارية كأنما كانت تتأهب للذهاب للفراش حين طرقت الباب وشعرها متهدل على كتفَيها، وقد افترضتُ من هيئتها ومن شيء في نظرة عينَيها أنها لا بد أن تكون حاملًا. وشغلتني مدةً طويلة بالحديث على عتبة الباب، وفكرت أن ذلك غريب لأن صدرَها وكتفَيها كانت عارية، ثم سألتني إن كنت متعبًا وإن كنت أحب أن أقضيَ الليل بالكوخ، وقالت إنها وحدها تمامًا في البيت، وأن زوجها قد ذهب ذلك الصباح إلى «كوتيرتاون» مع أخته ليُرافقَها في الرحلة. وطوال الوقت الذي كانت تحدِّثني فيه يا ستيفي كانت عيناها مركزتَين على وجهي، وكانت تقف على مقربة مني لدرجة كنت أسمع معها أنفاسها. وحين رددتُ إليها الجرة أخيرًا أمسكَت بيدي لتجرَّني على عتبة الباب، وهي تقول: «تعالَ واقضِ الليل هنا، لا داعي للخوف، ليس هناك أحدٌ سوانا ... ولكني لم أدخل يا ستيفي، لقد شكرتها ثم واصلت سيري ثانيةً وقد غمرَتني الحمَّى. وعند أول منحنى للطريق نظرت خلفي، وكانت ما تزال واقفة على الباب».

وتغنَّت الكلمات الأخيرة لقصة دافن في ذاكرته، ومثَّلت صورة هذه المرأة منعكسة مع صورٍ أخرى للنسوة الريفيات اللاتي رآهن يقفنَ على ا لأبواب في «كلان»، حين كانت عربة المدرسة تمرُّ عليها، كنموذج لعنصرهن وعنصره، روح خفاشية تستيقظ على وعيٍ بنفسها في ظلمة وسرية وعزلة، وعن طريق عينَي امرأة خاليتَين من الخداع وصوتها وإشاراتها تدعو الغريب إلى فراشها. وأمسكَت يدٌ بذراعه، وصاح صوتٌ فتيٌّ: آه أيها المحترم، ابنتك يا سيدي، أول قطفة اليوم يا محترم. اشترِ هذه الحزمة الجميلة، أرجوك يا محترم.

وبدَت الزهور الزرقاء التي رفعَتها نحوه وعيناها الزرقاوان في تلك اللحظة صورًا للبراءة. وتوقَّف حتى تلاشَت الصورة ولم يَعُد يرى سوى ثوبها الممزق، وشعرها الرطب الخشن ووجهها الغليظ.

– اشترِها أيها المحترم! لا تنسَ ابنتك يا سيدي!

فقال ستيفن: ليس معي نقود.

– اشترِ هذه الزهور الجميلة، ألَا تفعل يا سيدي؟ بنسًا واحدًا فقط.

فسألها ستيفن وهو ينحني نحوها: ألم تسمعي ما قلته لك، لقد أخبرتك أنني لا أملك نقودًا، وها أنا ذا أُخبرك مرةً أخرى.

فردَّت الفتاة بعد لحظة: حسنًا سوف يكون معك يومًا ما يا سيدي، إن شاء الله.

فقال ستيفن: جائزٌ، غير أنني لا أعتقد ذلك.

وتركها بسرعة بعد أن خشيَ أن تتحول مودتُها إلى عناد، ورغبة في الابتعاد في الطريق قبل أن تقدِّم بضاعتها إلى آخر، إلى سائح إنجليزي أو طالب «كلية ترينيتي».

واستطال شارع «جرافتون» الذي كان يسير فيه من تأثير الفاقة المثبطة. وفي الطريق العمومي، فوق مستوى رأسه، أُقيم لوحٌ تذكاري «لولف تون»، وتذكَّر أنه حضر إقامته مع والده، وتذكَّر في مرارة منظرَ هذا الاحتفال المبهرج. كان هناك أربعة وفود فرنسية في مركبة تجرُّها الجياد، وأمسك واحدٌ منهم، وهو شابٌّ سمينٌ باسم، بعصًا بأعلاها لافتة مطبوع عليها: عاشت أيرلندا.

ولكن الأشجار في متنزه ستيفن كانت تَعْبَق بالمطر، وأخرجت الأرض الرطبة شذاها الآدمي، بخورٌ واهنٌ يرتفع إلى أعلى خلال القالب من أفئدة كثيرة، لقد اضمحلت روح المدنية الوريدية الكريمة التي حدَّثه الأقدمون عنها، بفعل الزمن إلى شذى آدمي واهن يرتفع من الأرض. وعرف في لحظة حين دخل الكلية المعتمة، أنه سيتعرف على فساد آخر مختلف عن حالتَي «باك إيجان» و«بيرنتشابل هويلي».

كان الوقت قد فات للدخول إلى محاضرة اللغة الفرنسية في الدور العلوي. وعبر الردهة واتخذ ممشى اليسار الذي يؤدي إلى مدرج الطبيعة. كان الممشى مظلمًا ساكنًا ولكنه ليس خلوًا من مراقبٍ خفيٍّ. لماذا شعر أنه لا يخلو من خفي؟ هل يرجع ذلك إلى أنه سمع أنه من أيام «باك هويلي» كان هناك سلَّمٌ خفيٌّ فيه؟ أو هل يكون منزل الجزويت خارج المنطقة وأنه يسير الآن بين غرباء؟ لقد بدَت له أيرلندا التي تخص «توم» و«بارنل» تتقهقر إلى الخلف.

وفتح باب المدرج وتوقَّف عند النور الرمادي البارد الذي يجاهد من خلال النوافذ المتربة. كان رجلٌ يُقعي أمام الموقد الكبير، وعرف من نحافته ورماديته أنه عميد الدراسات يوقد النار، وأغلق ستيفن الباب في هدوء واقترب من الموقد.

– صباح الخير يا سيدي! هل لي في مساعدتك؟

ورفع القسُّ بصره بسرعة وقال: لحظة واحدة يا مستر ديدالوس وسترى. إن إشعال النار فن. هناك فنون سامية وفنون نافعة، وهذا واحد من الفنون النافعة.

فقال ستيفن: سأحاول أن أتعلَّمه.

فقال العميد وهو يعمل بهمة في مهمته: لا تضع كثيرًا من الفحم، هذا سرٌّ من أسرار هذا الفن.

وأخرج أربعة أعقاب من الشموع من الجيوب الداخلية لسُتْرته الكهنوتية، ووضعها بمهارة بين الفحم والورق الملفوف. وراقبه ستيفن في صمت. بدَا وهو يجثو على البلاط ليُشعل النيران منهمكًا بأوضاع رُزَم أوراقه، وأعقاب شمعاته أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، خادمًا مطيعًا يجهز المكان للقربان في معبدٍ خالٍ، سادنًا من سدنة الله. وبمثل رداء السادن من الكتان الخشن كان الكساء الكهنوتي البالي الباهت للرجل الجاثي الذي يُضايقه وتُغيظه قوانين الكنيسة أو رداء الحبر الكهنوتي الموشَّى بالأجراس. لقد شاخ جسده ذاته في خدمة الله، في العناية بالنيران فوق المذبح وفي حمل الرسائل خفية، في خدمة الدنيويِّين، في الضرب بسرعة حين يُؤمر بذلك — ومع ذلك فقد بقيَ غيرَ مكرم بأي شيء مقدس أو بأي جمال أسقفي. أجل، بل إن روحه ذاتها قد شاخت في هذه الخدمة دون الاقتراب من النور والجمال، أو بعث عبير قدسيتها المحبب خارجًا. كانت إرادةً خائبة لا يستجيب لهزَّة الطاعة إلا كمثال استجابة جسده العجوز المغضن لهزَّة الحب أو الصراع، وقد استحال رماديًّا كمثل أطراف النقود الفضية.

وجلس العميد القرفصاء وراقب العصيَّ تشتعل، وقال ستيفن ليقطع الصمت: إنني واثقٌ بأني لا أستطيع إشعالَ النار.

فقال العميد وهو يرفع بصرَه ويغمز بعينَيه الشاحبتَين: أنت فنان، أليس كذلك يا مستر ديدالوس؟ إن مهمة الفنان هي خلق الجمال، أما ما هو الجمال فهذا شيء آخر.

وحك يدَيه في بطء وجفاف حول هذه القضية.

وسأل: هل تستطيع أن تحلَّ هذه القضية الآن؟

قال ستيفن: يقول أكونياس:

Pulcra sunt quae visa placent[١١]

فقال العميد: ستكون هذه التي أمامنا بهيجة المنظر، فهل تكون جميلة وفقًا لذلك؟

– إنها تكون جميلة فيما يتعلق بكونها تُدرك بالأبصار، وأعتقد أنه يعني هنا الإدراك الجمالي، غير أن أكونياس يقول كذلك:

Bonum est in quod tendit oppetitus[١٢]

[١١] الجميل هو ما يُبهج النظر.

[١٢] الجيد هو ما تتقبَّله الشهية.

فالنار حسنة فيما يتعلق بكونها تُرضي مطلب الحيوان في الدفء. ومع ذلك فهي شرٌّ في الجحيم.

فقال العميد: بالضبط، لقد أصبت الهدف تمامًا.

ونهض في رشاقة واتجه ناحية الباب وتركه مواربًا، وقال: يُقال إن جرعة تفيد في هذه المسائل.

وحين عاد ثانيةً إلى الموقد، يعرج قليلًا ولكن في خطوات خفيفة، رأى ستيفن روح الجزويتي الصامتة تُطلُّ عليه من العينَين الشاحبتَين الخاليتَين من الحب. كان أعورَ مثل «إغناطيوس» ولكن الحماس الذي كان يتَّقد في عينَي إغناطيوس لم يكن يتَّقد في عينَيه، وحتى مهنة الجماعة الجزويتية الأسطورية، وهي مهنة أكثر فراهةً وألغازًا من كتبها الملفَّقة عن الحكمة الفارهة الخفية، لم تُشعل روحه بطاقة الرسولية، بل بدَا الأمر كأنه يستخدم حِيَل العالم وحكمته وبراعته كما يأمرونه أن يفعل، من أجل زيادة مجد الله، دون مسرة في معالجتها أو كراهية لما فيها من شرور، ولكنه يحوِّلها ثانيةً على نفسها في طاعة ثابتة. ومن أجلِ كلِّ هذه الخدمات الصامتة بدا كأنه لا يحب السيد على الإطلاق، ولا يحب الغايات التي يخدمها إلا قليلًا إن لم يكن لا يحبها مطلقًا Similiter atque senis baculus،[١٣] لقد كان على ما فعل منه المؤسس مثل الشيء في يد الرجل العجوز، ينحني عليه في الطريق عند سدول الليل أو عند اكفهرار الجو، أو يرقد مع باقة زهر لإحدى السيدات على مقعد في حديقة، أو يرفع عاليًا للتهديد.

وعاد العميد إلى الموقد وبدأ يُربِّت على ذقنه.

سأل: متى يمكن أن ننتظر منك شيئًا حول الموضوع الجمالي؟

فقال ستيفن في دهشة: مني؟ إنني أصادف فكرةً كلَّ عدة أسابيع لو ساعدني الحظ.

فقال العميد: هذه الموضوعات عميقةٌ جدًّا يا مستر ديدالوس، مثلها كمثل أن تنظر من أعالي هضاب «موهير» إلى الأعماق. كثيرٌ يغوصون إلى الأعماق ولا يظهرون أبدًا ثانيةً، الغوَّاص المدرَّب وحده هو الذي يستطيع أن يهبطَ إلى تلك الأعماق ويستكشفها، ثم يعود إلى السطح ثانية.

فقال ستيفن: إن كنت تعني التأمل يا سيدي فإنني أيضًا متأكدٌ أنه ليس هناك من شيء يُدعى بالتفكير الحر من حيث إنَّ كلَّ تفكير يجب أن يكون محكومًا بقوانينه الخاصة.

---

[١٣] مثل عصا الرجل العجوز.

– ها!

– ولأجل هذا الغرض ففي إمكاني أن أهتديَ في عملي في الوقت الحاضر بفكرة أو فكرتين من أرسطو وأكونياس.

– فهمت، فهمت وجهة نظرك.

– إنني لا أحتاج إليهما إلا لاستعمالي وإرشادي الخاص حتى أخلق شيئًا يهديهما لنفسي. إذا كان المصباح يدخن أو يبخر فسأحاول أن أُصلحه، إنما إذا لم يكن يُعطي الكفاية من الضوء، فسأبيعه وأشتري غيره.

فقال العميد: كان «لإبيكتنتوس» أيضًا مصباحٌ وبِيعَ بثمنٍ خيالي بعد موته. لقد كان المصباح الذي كتب مقالاته الفلسفية على نوره، أتعرف «إبيكتايتوس»؟

فقال ستيفن بخشونة: إنه سيد قديم قال إن الروح أشبهُ شيءٍ بجردل من الماء.

فاستطرد العميد قائلًا: إنه يُخبرنا بأسلوبه الأليف أنه قد وضع مصباحًا حديديًّا أمام تمثال أحد الآلهة، وأن لصًّا سرق هذا المصباح، فماذا فعل الفيلسوف؟ لقد قال إن طبيعة اللص تُجبره على السرقة، وصمم على شراء مصباح خزفي في اليوم التالي بدلًا من المصباح الحديدي.

وانبعثَت رائحة الشحم المنصهر من أعقاب شمعات العميد، وانسابَت إلى وعيِ ستيفن مع طنين كلمات: جردل ومصباح ومصباح وجردل. وكان لصوت القس أيضًا رنة مطنَّة. وتوقَّف ذهنُ ستيفن بالفطرة وقد صدَّته الرنةُ الغريبة والصورة، ووجهُ القس الذي بدا كالمصباح المنطفئ، أو كعاكسٍ معلق في بؤرة خاطئة. ماذا وراءه أو بداخله؟ سبات روح سقيم أم سقم المخيلة محملة بالإدراك، وقادرة على جهامة إلهية؟

قال ستيفن: إنما عنيت نوعًا مختلفًا من المصابيح يا سيدي.

فقال العميد: بلا شك.

فقال ستيفن: من صعوبات المناقشة في علم الجمال إدراك ما إذا كانت الكلمات تستخدم وفقًا للتقاليد الأدبية أو وفقًا للتقاليد الشائعة. أذكر عبارة لـ «نيومان» يقول فيها عن العذراء المباركة إنها كانت «معطلة»[١٤] بين جمعٍ حاشد من القدِّيسين. واستخدام هذه الكلمة بالمعنى الشائع مختلفٌ تمامًا، مثل «أرجو ألَّا أكون قد عطلتك».

[١٤] يعني بها هنا «في الحفظ»، والكلمة الإنجليزية واحدة هي detained.

فقال العميد في أدب: لا، أبدًا.

فقال ستيفن وهو يبتسم: كلَّا، إنما عنيت …

فقال العميد بسرعة: أجل، أجل، فهمت، فهمت تمامًا، تعني كلمة «معطلة».

ومدَّ فكَّه الأسفل إلى الأمام، وسعل سعالًا جافًّا قصيرًا.

قال: لنَعُد إلى المصباح. إن تغذيته كذلك مشكلة لطيفة، لا بد أن تختار الزيت النقي، ولا بد أن تنتبهَ حين تصبُّه فيه لئلا ينسكب، فعليك ألَّا تصبَّ فيه أكثر مما يتسع له القمع.

فسأل ستيفن: أي قمع؟

– القمع الذي تصبُّ خلاله الزيت إلى مصباحك.

فقال ستيفن: هذا؟ أيسمَّى هذا قمعًا؟ ألَا يُدعى موصِّلًا؟

– ما هو الموصِّل؟

– إنه … إنه … القمع.

فسأل العميد: أيسمَّى هذا موصِّلًا في أيرلندا. لم أسمع هذه الكلمة في حياتي.

فقال ستيفن وهو يضحك: إنها تُدعى موصِّلًا في «درمكوندرا» السفلى، حيث يتحدثون اللغة الإنجليزية الفضلى.

فقال العميد متفكرًا: موصِّل. إنها كلمة عجيبة جدًّا، لا بد أن أراها في القاموس، بحق الإله سوف أفعل.

ووقعت مجاملتُه في المعاملة موقعًا يكاد يكون زائفًا. ونظر ستيفن إلى المهتدي الإنجليزي بمثل العين التي ينظر بها الابن الأكبر إلى الابن الضال في المثل المعروف: تابعٌ ذليلٌ في صحوة الهدايات الصاخبة، إنجليزي مسكين في أيرلندا، بدَا كأنه قد دخل على خشبة تاريخ الجزويت حين قاربَت عروض المؤامرات والمعاناة والحسد والصراع والمهانة كلها على نهايتها، قادم متأخر، روح متوانية. من أين بدأ؟ ربما وُلد ونشأ بين مخالفين للرأي جادين، يرى الخلاص في يسوع فقط ويزدري أبهة النظام العبثية. ألم يشعر بالحاجة إلى إيمان واضح بين حمأة المذاهب ولغو تصدعاتها المزعجة، ست من الشخصيات الرئيسية، رجالٌ مخبولون، معمدانيو البذور والثعابين، عقيديون فوق مبدأ الزلة؟[١٥] هل عثر على الكنيسة الحقة فجأةً عن طريق فكِّ خطٍّ دقيقِ النسج من التفكير حول موضوع النفخ عند التعميد،

---

[١٥] Supralabsarian أتباع مذهب أن العقاب والثواب الإلهيَّين لا علاقة لهما بزلة آدم وحواء الأولى.

أو طريقة وضع الأيدي أو طقوس الثالوث المقدس؟ أو هل لمسه السيد المسيح وأمره أن يتبعَه، مثل ذلك الحواري الذي جلس على مكتب الجمرك يتثاءب ويحسب نقود النذورات، كما تعوَّد أن يجلس على باب الكنيسة المسقفة بالزنك؟

وأعاد العميد الكلمة ثانية: موصِّل، حسنًا، هذا شائق.

فقال ستيفن في برود: يبدو لي السؤال الذي وجَّهتَه لي منذ لحظة أكثر تشويقًا، ماهية ذاك الجمال الذي يجاهد الفنان في التعبير عنه من بين ركام الدنيا.

وبدَت الكلمة الصغيرة وقد تحوَّلت إلى سيف مدبب من سيوف حساسيته ضد هذا العدو الساهر الدمث. وشعر في امتعاضٍ خفيفٍ أن الرجل الذي يُحادثه من أبناء بلد «بن جونسون»،[١٦] وفكر: إن اللغة التي نتحادث بها لغته قبل أن تكون لغتي. لشدَّ ما تختلف كلمات: البيت– المسيح – الجعة – السيد، على شفتَيه عنها على شفتيَّ. إني لا أستطيع أن أنطقَ أو أكتب هذه الكلمات دون أن يجتاحَ القلقُ روحي. ستظل لغته بكل ما فيها من ألفة وغربة بالنسبة لي مكتسبة دائمًا. إنني لم أصنع أو أقبل كلماتها. إن صوتي يعارضها تمامًا. إن روحي تظل قلقة في ظلال لغته.

وأضاف العميد: ولا بد من التمييز بين الجميل والسامي. لا بد من التمييز بين الجمال الآدمي والجمال المادي، ولا بد من البحث في نوع الجمال المناسب لكل فنٍّ من الفنون المختلفة. هذه بعض النقاط المهمة التي يمكن أن نبحثها.

وصمت ستيفن وقد فترَت همتُه من جرَّاء لهجة العميد الصارمة الجافة. وارتفعت من خلال السكون من جهة الظلم ضجةٌ قصية لصوت أقدام وأصوات مختلطة.

وقال العميد جازمًا:

ومع ذلك، يكمن في متابعة مثل هذه التأملات خطرُ الخواء، يجب أن تنال شهادتك أولًا، ضَعْ ذلك هدفًا أولًا وبعدئذٍ سترى طريقك شيئًا فشيئًا، أعني في كل شيء، طريقك في الحياة وطريقك في التفكير. وقد يكون ذلك بمثابة المجاهدة في صعودِ تلٍّ من التلال في البداية. خذ مثلًا مستر «مونان»، لقد قضى زمنًا طويلًا قبل أن يَصِل إلى القمة، ولكنه وصل فعلًا.

فقال ستيفن في هدوء: قد لا تكون لي مثل موهبته.

[١٦] بن جونسون (١٥٧٣–١٦٣٧) من الكُتَّاب الإنجليز المعاصرين لشكسبير، من مسرحياته: فولبوني، كل شخص في مزاجه، المرأة الصامتة.

فقال العميد في انشراح: لا تستطيع الجزم، لا يمكننا أبدًا إدراك دخيلتنا. إني واثقٌ جد الثقة أنه لا يجب أبدًا أن ييأس المرء:

Per aspera ad astra (بمواجهة الصعاب، تصل إلى النجوم).

وترك الموقد بسرعة وتوجَّه ناحية منبسط السلم؛ لكي يرقبَ وصولَ صفٍّ أدبي أول.

وترك الموقد بسرعة وتوجَّه ناحية منبسط السلم؛ لكي يرقبَ وصولَ صفٍّ أدبي أول.

وسَمِعه ستيفن إذ كان مرتكزًا على المدفأة يُحَيِّي كلَّ طالب في الصف بنشاطٍ وبلا تمييز، وكان يكاد يرى ابتساماتِ الطلبة الخشنين الصريحة. وبدأ رثاء كظيم يسقط كالندى فوق قلبه الهشِّ على خادم «ليولولا» الأمين هذا ذي الروح الفروسية، على أخي الكهانة هذا، الأكثر ضعةً من الكهنة في القول، ولكنه أكثر حزمًا في روحه عنهم؛ واحدٌ لا يمكن أن يدعوه مطلقًا بالأب القدس. وجال في خاطره كيف أن هذا الرجل وزملاءَه قد اكتسبوا لقبَ «الدنيويين» على يدَي كلٍّ من الدنيويِّين وغير الدنيويِّين كذلك؛ لأنهم يتضرعون لدى عدالة الله وحكمتها من أجل أرواح المتهاونين والبلداء والمتبصرين.

وأعلنت دخول الأستاذ حكات قليلة من الأحذية الثقيلة للطلبة، الذين جلسوا في الصف العلوي من المدرج الكئيب تحت النوافذ الرمادية، التي تُشبه نسيج العنكبوت. وابتدأ نداء الأسماء وتعالَت الردود بكل اللهجات، حتى وصل اسم «بيتر بايرن».

– موجود!

وصدر الردُّ من صوتٍ عميق جهوري من الصف العلوي، تَبِعته سعالاتُ احتجاج على طول الصفوف الأخرى.

وتوقَّف الأستاذ عن القراءة، ثم نادى الاسم التالي:

– كرانلي!

– لا جواب.

– مستر كرانلي!

وعبرَت ابتسامة على وجه ستيفن حين فكَّر في سير دراسات صديقه.

وصاح صوتٌ من الصف الخلفي: جرِّب اسم «ليباردستون».

ونظر ستيفن بسرعة، ولكنَّ وجهَ موينيهان ذي الأنف الخنزيري الذي تبدَّت حدودُه على الضوء الرمادي، كان هادئًا. وأعطيت إحدى المعادلات، والتفت ستيفن خلفه وسط ضجة الكراسات، وقال: أعطني بعض الأوراق من فضلك.

فسأل موينيهان بتكشيرة عريضة: أَوصلتَ إلى هذا الحد؟

وجذب صفحةً من كراسة مسوَّداته ومرَّرها إليه وهو يهمس: في حالة الضرورة يمكن لأيِّ رجلٍ عادي أو امرأة أن تحلَّها.

وبهرَت عقل ستيفن وأضنَته المعادلة التي كتبها في طاعةٍ على صفحة الورق، وحسابات الأستاذ الطاوية والباسطة، ورموز القوة والعنف التي تُشبه الأطياف، وكان قد سمع البعض ينعت الأستاذ العجوز بأنه ملحدٌ من الماسونيِّين، آه، يا لَليوم السقيم الغائم! لقد بدا هذا اليوم كسجنٍ للوعي الصبور غير المتألم التي تهيم أرواحُ المشتغلين بالحساب خلاله، يعرضون أنسجةً طويلة رقيقة من مستويات الشفق، الذي يأخذ في الندرة والشحوب، مشعًّا دوامات سريعة نحو الحواف الأخيرة لكونٍ سريع أبدًا قصيٍّ أبدًا، وأكثر شفافية أبدًا.

– ولذلك يجب أن نميز بين الشكل الإهليلجي والشكل الإهليلجي الناقص. ربما يكون بعضكم يا سادة على دراية بمؤلفات مستر «و. س. جلبرت»؛ ففي إحدى أغنياته يتحدث عن أحد مَن يغشون في لعبة البلياردو، الذي يضطر إلى اللعب:

على مائدةٍ مزيفة،
وبعصًا ملتويةٍ،
وكرات بليارد إهليلية.

وهو يعني كرةً لها الشكل الإهليلي الناقص للمحاور الأساسية الذي تحدَّثت عنه منذ لحظة.

وانحنى موينيهان على أُذُن ستيفن وهمس له: كم تساوي الكرات الإهليلية! اتبعنَني أيتها النسوة، فإني من الفرسان.

وجرى مزاح زميله الجاف مثل اللفحة خلال مسارب عقل ستيفن، وهزَّ الأردية الكهنوتية المعلَّقة على الجدران في حياة بهيجة، وجعلها تترنح وتتراقص في فوضى قداسية، وخرجت شخوص وأشكال رجال طائفة الجزويت من بين الأردية الملفوحة: عميد الدراسات، الصراف ذو الهيئة الناضرة وقبعته ذات الشعر الرمادي، الرئيس، القس الصغير ذو الشعر الذي يُشبه ريش الطيور، والذي يكتب الشعر الديني، الشكل الريفي المكتنز لأستاذ الاقتصاد، الشكل الطويل للأستاذ الشاب لمادة العلوم العقلية، يناقش في أرضية السلم حالة الضمير مع طلبةِ صفِّه، مثل الزرافة التي تحصد أوراق الشجر العالية بين قطيع من الغزلان، عريف الزمالة الرزين القلق، أستاذ الإيطالية البدين المستدير الرأس بعينَيه الماكرتين، جاءوا مسرعين يتعثرون، يتقاطرون ويتقافزون، طاوين أثوابهم ليقفزوا

كالضفادع، ماسكين بظهور بعضهم البعض، يهزُّهم ضحكٌ عميق زائف، غامزين أحدهم الآخر من الخلف، ويضحكون من أحقادهم الجافة، ينادون بعضهم البعض بأسمائهم الأولى المألوفة، يحتجون في هيبة مفاجئة عند أي معاملة جافة، ويتهامسون مثنى مثنى من وراء أكفِّهم.

وتوجَّه الأستاذ إلى الحافظة الزجاجية على الجدار الجانبي، وأنزل من أحد الرفوف مجموعةً من الأسلاك الكهربية، وأزاح الغبار عن كثير من نواحيها وحملها في حرص إلى المائدة، ووضع إصبعه عليها بينما استمر في إلقاء محاضرته، وقال إن الأسلاك الكهربية الحديثة مصنوعةٌ من مركبٍ يدعى بلاتينويد اكتشفه «ف. و. مارتينو».

ولفظ الحروف الأولى ولقب المكتشف في وضوح، وهمس موينيهان من الخلف: «فرش ووتر مارتين» العجوز الطيب.

وردَّ ستيفن الهمس في مزاحٍ تَعِب: اسأله إن كان يريد متطوعًا لتجربة الإعدام الكهربي، يمكنني أن أتقدم.

ونهض موينيهان من مقعده حين رأى الأستاذ محنيًّا فوق الأسلاك، وأخذ يفرقع أصابع يده اليمنى دون صوت، ثم أخذ يصيح في صوت الطفل الباكي: من فضلك يا أستاذ! هذا الولد يقول ألفاظًا بذيئةً يا أستاذ.

واستطرد الأستاذ في رصانة: «والبلاتينويد مفضل عن الفضة الألمانية لأن به مقاومة معاملية أقل عن طريق تغيير درجة الحرارة، والسلك البلاتينودي معزول، والغطاء الحريري الذي يعزله ملفوفٌ على البوبينات المطاطية حيث يُشير إصبعي تمامًا، وإذا كانت ملفوفةً بطريقة فردية فسيجري التيار في الأسلاك.

والبوبينات قصيرة مشبعة بشمع البرافين الساخن ...»

وقال صوتٌ حادٌّ من أولستر[١٧] من صفٍّ خلف ستيفن:

– هل ستأتي لنا أسئلة عن العلوم التطبيقية؟

وبدأ الأستاذ يتلاعب في رصانة باصطلاحات العلم الخاص والعلم التطبيقي، وحملق طالبٌ متين البنيان يرتدي نظاراتٍ ذهبيةً نحو السائل في عجب. وهمس موينيهان من الخلف في صوته الطبيعي: أليس ماك أليستر شيطانًا حقيقيًّا، حين يهزُّ لحمَه المكتنز؟

[١٧] مقاطعة في أيرلندا.

ونظر ستيفن في برودٍ إلى الجمجمة البيضاوية في الصف التالي، وقد غلبها الشعر الرمادي المتشابك. لقد أزعجه صوتُ السائل ولهجته وعقليته، وسمح للإزعاج أن يحملَه إلى القسوة المتعمدة، وحمل ذهنه أن يفكر بأنه كان يحسن بوالد الطالب لو أنه أرسل ابنه إلى بلفاست للدراسة، ويوفر بذلك شيئًا من مصاريف القطار.

ولم تستدر الجمجمة البيضاوية التي في الصف التالي لتقابل هذه اللمحة من التفكير، ومع ذلك عادَت اللمحة ثانيةً إلى مستقرها، فقد رأى بعد لحظةٍ وجهَ الطالب المكفهر.

وقال لنفسه بسرعة: ليست هذه الفكرة فكرتي، لقد نبعت من الأيرلندي الفكه في الصف الخلفي. صبرًا، هل يمكنك القطع بمَن قايضَ على روح عنصرك وخان صفوفهم؟ هل هو السائل أم المتهكم … صبرًا، تذكر إيبكتيتوس، ربما كان سيرًا على نهجه أن يُسأل مثل هذا السؤال في مثل هذه اللحظة بمثل هذه اللهجة، وأن تُنطق كلمة «علوم» على أنها كلمةٌ من مقطع واحد.

واستمر صوت الأستاذ المكسال يلفُّ نفسَه ببطء حول الأسلاك التي يتحدث عنها، مضاعفًا مثنى وثلاث ورباع طاقته الناعسة، كما يضاعف السلك وحدات مقاومته الكهربية.

ونادى صوت موينيهان من الخلف مردِّدًا أصداء جرس بعيد: حان وقت الغلق يا سادة.

كانت ردهة الاستقبال مزدحمة تلغط بالحديث، وعلى المائدة بجانب الباب صورتان في إطارَيهما، وبينهما وثيقة ورق طويلة تحمل ذيلًا متعرجًا من التوقيعات. وكان «ما كان» يسير جيئةً وذهابًا في خفة بين الطلبة، يتحدث بسرعة، يردُّ على التمنعات ويقود الواحد إثرَ الآخر إلى المائدة. ووقف عميد الدراسات في الردهة الداخلية يتحدث مع أستاذ شاب، وهو يربِّت على ذقنه في رزانةٍ ويهزُّ رأسه.

وتوقَّف ستيفن في ترددٍ وقد صدَّه الزحام عند الباب. وكانت عينا كرانلي تراقبانه من تحت رقِّ قبعةٍ لينةٍ عريض ملتوٍ.

وسأله ستيفن: هل وقَّعت؟

وأغلق كرانلي فمَه الطويل ذا الشفاه الرقيقة، وتحاور مع نفسه برهةً ثم أجاب: Ego habeo.[١٨]

– ما الغرض منها؟

[١٨] «لقد فعلت».

– quod?[19]

– ما الغرض منها؟

وأدار كرانلي وجهَه الشاحب إلى ستيفن، وقال في عذوبة ومرارة: per pax universalis.[20]

وأشار ستيفن إلى صورة القيصر وقال: إنَّ له وجهَ مسيحٍ ذاهل.

وأعاد الازدراء والغضب في صوته عينَي كرانلي من استعراض هادئ للصور التي على جدران الردهة.

وسأل: هل أنت مستاء؟

فرد ستيفن: كلَّا.

– هل أنت منحرف المزاج؟

– كلَّا.

فقال كرانلي:

Gredo ut vos sanguinarius mendax estis quia facies vostra monstrat ut vos in damno malo humore estis.[21]

وهمس موينيهان لستيفن في طريقه إلى المنضدة: إن «ماكَّان» يشتعل حماسًا، مستعدٌّ ليُريقَ آخرَ قطرة، عالمٌ جد جديد. لا حماس ولا أصوات لأولاد الكلاب.

وابتسم ستيفن لشدة ثقته، وتحوَّل ثانيةً ليُقابل عينَي كرانلي بعد مرور «موينيهان».

قال: ربما استطعت أن تُخبرني لماذا يصب روحه بعطاءٍ في أذني، هل تستطيع؟

وعبرت جهامة سقيمة على جبين كرانلي. وحملق في المائدة حيث انحنى موينيهان ليكتب اسمه في الوثيقة، ثم قال في بلاده: معسول اللفظ.

فقال ستيفن: مَن منَّا منحرف المزاج، أنا أم أنت؟

ولم ينتبه كرانلي لهذه الغمزة. كان عاكفًا في خشونة مُردِّدًا في نفس القوة البليدة: معسول اللفظ لعين، هذا هو!

---

[19] «ماذا؟»

[20] «من أجل السلام العالمي».

[21] «أعتقد أنك كذابٌ أشِر لأنه من وجهك يبدو أنك في مزاجٍ سيِّئ لعين».

هكذا كان نعته لكل الصداقات الميتة، وتساءل ستيفن عمَّا إذا كان سيقول نفس الكلام عنه حين يذكره. ومرَّت العبارة الثقيلة المكوَّمة في بطء بعيدًا عن الأسماع، مثل الحجر الذي يمرق خلال طين الأرض. ورآها ستيفن تمرُّ كما رأى الكثير غيرها، وشعر بثقلها يُثقل فؤاده. لم يكن في حديث كرانلي، على عكس دافن، أيُّ عبارات نادرة من العصر الإليزابيتي ولا صِيَغ محرَّفة في حذقٍ للتعابير الأيرلندية. كانت ثغثغتُه صدًى لمرافئ دبلن تُعيدها صورة مرفأ مهجور متهدم، وطاقته صدى لبلاغة دبلن المقدسة يُعيدها في بلادة صورة منبر «ويكلو».

واختفَت الجهامة من وجهِ كرانلي حين توجَّه «ماكَّان» نحوهما في خفة من الجانب الآخر من الردهة.

قال «ماكَّان» في مرح: ها أنتما!

فقال ستيفن: ها أنا.

– متأخران كعادتكما. ألَا تستطيعان أن تقرنا أفكاركما التقدمية باحترام المواعيد؟

فقال ستيفن: هذا السؤال ليس ضمنَ البرنامج، فلننتقل إلى المسألة التالية.

وكانت عيناه الباسمتان مثبَّتتَين على لوح شيكولاتة اللبن ذات الورق المفضض، يطلُّ من جيب صدارة القائم بالدعاية. والتفت حلقةٌ صغيرة من السامعين حولهم ليسمعوا عراك الأذكياء، ودسَّ طالبٌ نحيف ذو بشرة زيتونية وشعرٍ أسود مسترسل وجهَه بين الاثنين، ينقل بصره من أحدهما إلى الآخر عند كل عبارةٍ، ويبدو كما لو كان يحاول أن يلتقط كلَّ عبارة طائرة في فمه المفتوح والرطب. وتناول كرانلي كرةً رمادية صغيرةً من جيبه، وبدأ يتفحصها في إتقان وهو يقلِّبها بين يديه.

قال ماكَّان: المسألة التالية؟ ها …

وأطلق ضحكةً عالية، وابتسم ابتسامة عريضة، وهو يجذب مرتين لحيته الصغيرة التي في لون القش، والتي تتدلَّى من ذقنه الجاف.

– المسألة التالية أن توقِّعا الوثيقة.

فسأله ستيفن: هل ستدفع لي شيئًا إن أنا وقَّعت؟

فقال «ماكَّان»: ظننتك من المثاليِّين.

وتلفَّت الطالب ذو المظهر الغجري حوله، وخاطب الملتفِّين في صوتٍ ثاغٍ غير واضح: «بحق الجحيم، إنها فكرةٌ عجيبة، أنا أعتبر هذه الفكرة فكرة أنانية». وذاب صوته في الصمت، لم يُلقِ أحدٌ بالًا لكلماته، وأدار وجهه الزيتوني، ذا التعبير الحصاني نحو ستيفن، يدعوه إلى الحديث ثانيةً.

وبدأ «ماكَّان» يتحدث في طاقةٍ فياضة عن الأمر الإمبراطوري القيصري، وعن «ستيد» وعن نزع السلاح العام والتحكيم في حالات المشكلات العالمية، وعن ظواهر العصر، والبشرية الجديدة، وإنجيل الحياة الجديد الذي يجعل مهمة الجماعة، أن تضمن أعظم سعادة ممكنة بأرخص نفقةٍ ممكنة، لأكبر عددٍ ممكن من الناس.

واستجاب الطالب الغجري للعبارة الأخيرة في الحديث بأن صاح: اهتفوا ثلاثًا للأخوَّة العالمية.

وقال طالبٌ بدين متورد يقف إلى جانبه، استمر «يا تمبل»، سوف أدعوك للشراب بعد ذلك.

فقال تمبل وهو يُحملق فيما حوله من عينَيه السوداوين البيضاوين: إني من دعاة الأخوَّة العالمية، إن ماركس ما هو إلا سمكة لعينة.

وقبض كرانلي ذراعَه بشدة حتى يمنعَ لسانه عن الحديث، وابتسم في قلق وردَّد: مهلًا، مهلًا، مهلًا!

وجاهد تمبل ليخلص ذراعَه، ولكنه استمر وفمُه ملطخٌ بالرغوة الخفيفة: لقد أقام الاشتراكية أيرلندي وكان كولينز هو أول إنسان في أوروبا يدعو لحرية الفكر، منذ مائتي عام، ولقد أدان الكهنوتية فيلسوفُ مقاطعة «ميدلسكس». «اهتفوا ثلاثًا لجون أنتوني كولينز!»

وأجاب صوتٌ رفيع من طرف الحلقة: بيب! بيب!

وهمس «موينيهان» في أُذُن ستيفن: «وماذا عن أخت جون أنتوني الصغيرة المسكينة:
لقد فقدَت لوتي كولينز سراويلَها.
ألَا تُعيرينَها سراويلك؟»

وضحك ستيفن، وهمس موينيهان ثانيةً وقد سرَّته النتيجة: سوف يقفز كلٌّ منا خمسَ مرات من أجل جون أنتوني كولينز.

قال «ماكَّان» باقتضاب: إني في انتظار جوابك.

فقال ستيفن في وهنٍ يلوي شفتَيه: حسنًا، أنت رجعي إذن؟

فسأل ستيفن: هل تعتقد أنك ستؤثر عليَّ إذا استللت سيفك الخشبي؟

فقال «ماكَّان» في بلادة: تشبيهات! انزل إلى الواقع.

وتورَّد وجهُ ستيفن واستدار جانبًا، وثبت «ماكَّان» في مكانه، وقال في مزاجٍ مُعادٍ: أعتقد أن صغار الشعراء فوق قضية تافهة مثل قضية السلام العالمي.

ورفع كرانلي رأسه وأمسك بالكرة بين الطالبين، كأنما يعرض عليهما السلام وقال:

Pax super totum sanguianrium globum[٢٢]

وأزاح ستيفن الملتفين حولهم وهزَّ كتفَيه في غضبٍ نحو صورة القيصر، وقال: احتفظوا بمقدساتكم، إذا كان لا بد لنا من مسيح فليكن مسيحًا شرعيًّا.

فصاح الطالب الغجري لمن حوله: بحق الجحيم، أحسنت، هذا تعبير جميل، إني أحب هذا التعبير للغاية.

وازدرد لعابَه كأنما يزدرد العبارة تحوَّل إلى ستيفن، متلمِّسًا أصابعه إلى طرف قبعته التويد وقال: من فضلك يا سيدي، ماذا تعني بالتعبير الذي قلته الآن؟

ولما أحسَّ أن الطلبة من حوله يزاحمونه قال لهم: إني أتطلَّع إلى معرفة ما يعني بهذا التعبير.

وتحوَّل ثانيةً نحو ستيفن، وهمس له: هل تؤمن بالمسيح؟ إني أومنُ بالإنسان، أنا لا أعرف طبعًا إن كنت تؤمن بالإنسان، إني معجبٌ بك يا سيدي، إني معجبٌ بعقل الإنسان مستقلًّا عن جميع الأديان، أهذا هو رأيك في عقل يسوع؟

فقال الطالب البدين المتورد راجعًا كعادته إلى فكرته الأولى: استمر يا تمبل، إن كأس الشراب بانتظارك.

فشرح تمبل الأمر لستيفن قائلًا: إنه يظن أنني أبله لأنني من المؤمنين بقوة العقل.

وعقد كرانلي ذراعَي ستيفن ومعجبه وقال:

No ad manum bellum jocabimus[٢٣]

ولمح ستيفن وهو على وشك أن ينقاد لجاذبه وجه «ماكَّان» المتورد ذا الملامح المتبلدة، وقال في أدب: إن توقيعي لا قيمة له، إنك على حقٍّ في انتهاج هذا الطريق، فدَعْني أسير في طريقي.

فقال «ماكَّان» في صلابة: إني أعتقد أنك رفيقٌ طيب يا ديدالوس، ولكن عليك أن تتعلم كرامة حب الآخرين ومسئولية الفرد الإنساني.

وقال صوت: إن المحاور المثقفة تكون أحسن حالًا بعيدًا عن هذه الحركة أكثر من أن تكون فيها.

---

[٢٢] السلام لكل الكون اللعين.

[٢٣] فلنذهب للعب كرة اليد.

وتعرَّف ستيفن في الصوت على لهجة «ماك آليستر» الخشنة، ولم يلتفت نحوه. وتقدَّم كرانلي في رزانة وسط حشد الطلبة ممسكًا بذراعَي ستيفن وتمبل، كالواعظ يحفُّ به تابعوه في طريقه إلى المذبح.

وانحنى تمبل في لهفة عبر صدر كرانلي، وقال: هل سمعت ما قال ماك آليستر؟ إنه غيورٌ منك، ألا ترى ذلك؟ أراهن أن كرانلي لم يُدرك ذلك بحق الجحيم، لقد أدركت ذلك على الفور.

وبينما كانوا يعبرون الردهة الداخلية، كان عميد الدراسات يحاول الفرار من الطلبة الذين يجادلونه، ووقف عند أرضية السلَّم وقدمه على الدرج الأخير، وثوبه الكهنوتي الرث مضمومًا حوله ليصعد في حذرٍ نسائي، وهو يهزُّ رأسه كثيرًا ويردِّد: لا شك في ذلك يا مستر «هاكيت»، حسن جدًّا، لا شك في ذلك.

وفي وسط الردهة، كان عريف زمالة الكلية يتحدث في جدٍّ في صوتٍ رقيق شكس مع طالب من القسم الداخلي، وكان يعقص قليلًا حاجبَه المبقع بالنمش حين يتحدث، ويعض قلمًا صغيرًا من العظم بين عبارة وأخرى: آمل أن يحضر خريجو الثانوية كلهم، أما طلبة الصف الأول الأدبي فمؤكد، والصف الثاني الأدبي أيضًا، لا بد أن نضمن الطلبة الجدد.

وانحنى تمبل ثانيةً عبر كرانلي حين كانوا يعبرون باب الخروج، وقال في همس خاطف: أتعلم أنه متزوج؟ لقد كان متزوجًا قبل أن ينتظم في الجماعة. لديه زوجة وأطفال في مكان ما. بحق الجحيم، أعتقد أن هذا أعجب شيء سمعته، هه؟

وانتهت همستُه بضحكة خبيثة مهذارة. وفي اللحظة التي أصبحوا فيها في الخارج، أمسكه كرانلي بعنف من رقبته وهزَّه قائلًا: أيها الأبله «المقاوح» الناري! أُقسم بالكتاب المقدس أنه ليس هناك من قرد لعين كبير أعظم منك في كل الدنيا اللعينة النارية!

وتململ تمبل في قبضته وهو لا يزال يضحك في سرورٍ خبيث، بينما ردَّد كرانلي في بلادةٍ عند كلِّ هزةٍ عنيفة: أبله ناري متألق لعين!

وعبروا معًا الحديقة المعشوشبة، وكان الرئيس متجهًا ناحيتهم عبر أحد المماشي، ملتحفًا بعباءة ثقيلة فضفاضة يتلو طقوسه. وتوقَّف عند نهاية الممشى وقبل أن يستدبر ورفع عينَيه، وحيَّاه الطلبة، وتمبل يتحسس طريقه إلى ذرى قبعته كعادته. وساروا إلى الأمام في صمت. وحين اقتربوا من الحارة تمكَّن ستيفن من سماع لطمات أيدي اللاعبين وضربات الكرة، وصوت دافن يصيح حماسًا عند كل ضربة.

وتوقَّف الطلبة الثلاثة حول الصندوق الذي جلس عليه دافن ليتابع المباراة، وبعد لحظات قليلة، تسلَّل تمبل جانبًا نحو ستيفن، وقال: أريد أن أسألك من فضلك، هل تعتقد أن جان جاك روسو كان مخلصًا؟

وضحك ستيفن على الفور، والتقط كرانلي عارضةً خشبية لبرميل مكسور من على الحشائش بين قدمَيه، واستدار في خفة وقال في صرامة: أُعلن أمام الله الحي يا تمبل أنك إن نطقتَ بكلمة أخرى — أتعرف ذلك — لأي شخص في أي موضوع، فسوف أقتلك في التوِّ والساعة.

وقال ستيفن: أظن أنه كان مثلك، رجلًا عاطفيًّا.

فقال كرانلي في انطلاقه: أحرقه الله، عليه اللعنة، لا تتحدث إليه على الإطلاق. إذا تحدثت إليه فكأنك تتحدث إلى مزهرية نارية. عُدْ إلى بيتك تمبل، بحق الإله، عُدْ إلى بيتك.

فأجاب تمبل وهو يبتعد عن مرمى لوح البرميل الخشبي المرفوع نحوه، ويشير إلى ستيفن: إني لا أهتم بك إطلاقًا يا كرانلي، هذا هو الرجل الوحيد في هذا المنشأة الذي له عقل مفرد.

فصاح كرانلي: منشأة! مفرد، عد إلى بيتك، أحرقك الله، فأنت إنسان لعين لا أمل فيه.

فقال تمبل: إنني إنسان عاطفي، يا لَه من تعبير صادق، وإني جد فخور إنني عاطفي.

وتحوَّل مبتعدًا عن الحارة وهو يبتسم في خبث. وراقبه كرانلي بوجهٍ غُفْل لا تعبير فيه.

قال: انظر إليه! هل رأيت مثل هذا مساحًا للجدران.

ورحبت ضحكةٌ غريبةٌ أطلقها طالبٌ كان يتلكأ بجانب الحائط بهذه العبارة، ويكاد طرف قبعته يغطِّي عيني. وبدَت الضحكة وقد انطلقَت في نبرة عالية، ومن صاحب جسم مفتول مثل عواء الفيل. واهتز جسد الطالب من قمة رأسه إلى أخمص قدمَيه، ثم حكَّ كلتا يدَيه في بهجة على فخذَيه لكي يُهدئ من مزاحه.

قال كرانلي: لقد استيقظ «لينش».

وبسط «لينش» نفسه إجابة على هذه العبارة، ودفع بصدره إلى الأمام.

فقال ستيفن: يبرز لينش صدره انتقادًا للحياة.

وضرب لينش بقبضته على صدره في صخب، وقال: هل من اعتراض على مقاسات جسدي؟

وأخذ كرانلي كلامَه مأخذَ الجد، وبدأ الاثنان يتصارعان. ولَّما توهج وجهاهما من الصراع افترقا وهما يلهثان، وتوجَّه ستيفن نحو دافن الذي كان مستغرقًا في المباراة، ولم

يلتفت إلى حديث الآخرين. سأل: وكيف حال إوزتي الصغيرة الوديعة؟ هل وقَّع هو أيضًا؟ فأومأ دافن برأسه وقال: وأنت يا ستيفن؟

فهزَّ ستيفن رأسه.

فقال دافن وهو يُخرج الغليون القصير من فمه: إنك إنسان مرعب يا ستيفي، وحدك دائمًا.

فقال ستيفن: والآن وقد وقعت التماس السلام العالمي، أعتقد أنك لا بد ستحرق ذلك الدفتر الصغير الذي رأيته عندك.

وحين لم يرد دافن، بدأ ستيفن يقتبس منه بعض العبارات:

– خطوة سريعة، فيانا، إلى اليمين دُر فيانا! فيانا، عُدَّ ... واحد، اثنين!

فقال دافن: هذه مسألة أخرى، إنني وطني أيرلندي في البداية وقبل كل شيء، ولكن هكذا أنت دائمًا، إنك ساخر بطبعك يا ستيفن.

فقال ستيفن: حين تشرع في تمردك المصطخب القادم وتحتاج إلى المخبرين اللازمين فأبلغني. بإمكاني أن أعثر لك على قليل منهم في هذه الكلية.

فقال دافن: إني لا أستطيع فهمك، أسمعك يومًا تهاجم الأدب الإنجليزي، وها أنت تهاجم المخبرين الأيرلنديِّين. ما الأمر في اسمك وفي أفكارك ... أأنت أيرلندي على الإطلاق؟

فقال ستيفن: تعالَ معي الآن إلى السجلات، وسأريك شجرة عائلتي.

فقال دافن: إذن كُن واحدًا منَّا، لماذا لا تتعلم اللغة الأيرلندية؟ لماذا تركت دروس عصبتنا بعد الدرس الأول؟

فأجاب ستيفن: أنت تعرف سببًا لذلك.

فضرب دافن رأسه بيده وضحك.

وقال: آه، غير معقول. أذلك من أجل تلك الفتاة والأب موران؟ ولكن هذا كله من وحي خيالك يا ستيفن. لقد كانا يتحادثان ويضحكان ليس إلا.

وتوقَّف ستيفن ووضع يدًا ودودة على كتف دافن.

قال: هل تذكر يوم عرفنا بعضنا لأول مرة؟ لقد سألتني في الصباح الأول لتعارفنا، أن أدلَّك على طريقِ صفِّ الشهادة الثانوية، وأنت تضغط ضغطًا قويًّا على المقطع الأول من الكلمة ... أتذكرِ؟ ثم اعتدت أن تدعوَ الجزويت بالآباء ... أتذكر؟ وساءلت نفسي عنك: أهو ساذجٌ السذاجة التي تتبدَّى في حديث؟

فقال دافن: إنني شخص بسيط. أنت تعرف ذلك، بحق الله يا ستيفي، حين أخبرتني تلك الليلة في شارع «هاركورت» تلك الأشياء عن حياتك الخاصة، لم أستطع أن أتناول

طعامي. لقد كنت على درجة كبيرة من السوء، وبقيت ساهرًا جانبًا كبيرًا من الليل. لماذا أخبرتني تلك الأشياء؟

فقال ستيفن: شكرًا، إنك تعني أنني متوحش.

فقال دافن: كلَّا، ولكن كنت أتمنى لو لم تُخبرني.

وبدأ مدٌّ يفور تحت سطحِ وُدِّ ستيفن الهادئ قال: إنني نتاج هذا العنصر وهذه البلدة وهذه الحياة، سأعبِّر عن نفسي كما أنا عليه في الواقع.

فكرَّر دافن: حاول أن تكون واحدًا منَّا. إنك أيرلندي في فؤادك، ولكنَّ كبرياءَك أقوى من اللازم.

فقال ستيفن: لقد ألقى أجدادي لغتَهم واستبدلوا بها لغةً أخرى. لقد سمحوا لحفنة من أن تستعبدَهم. هل تتصور أنني سوف أدفع من حياتي ومن شخصي ديونًا ارتكبوها هم؟ لماذا؟

فقال دافن: من أجل حريتنا.

فقال ستيفن: لم يمنحكم إنسان محترم ومخلص نفسَه وشبابه أبدًا منذ أيام «فون» إلى أيام «بارنل» إلا وبعتموه إلى الأعداء أو خذلتموه في وقت الحاجة أو لعنتموه وتركتموه إلى غيره، ثم تدعونني إلى أن أكون واحدًا منكم. إني سأراك ملعونًا قبل ذلك.

فقال دافن: لقد ضحَّوا من أجل مثاليتهم، ولسوف يأتي يومنا، صدِّقني.

وظل ستيفن صامتًا برهةً شاردًا مع أفكاره، ثم قال في غموض: إن الروح تُولد في البداية في مثل هذه اللحظات التي أخبرتك بها. إن مولدها بطيء وغامض، أكثر غموضًا من مولد الجسد. وحين تولد روح إنسان في هذا البلد فإنهم يُلقون عليها الشباك ليمنعوها من التحليق. إنك تُحدثني عن الوطنية واللغة والدين. إنني سأحاول أن أفرَّ من هذه الشباك.

ونفض دافن الرماد من غليونه.

قال: إنك عميق حتى لتستعصي عليَّ. ولكن بلد المرء يأتي أولًا. أيرلندا أولًا يا ستيفي. ويمكنك أن تُصبح شاعرًا أو صوفيًّا بعد ذلك.

فقال ستيفن في برود: هل تعرف ما هي أيرلندا؟ أيرلندا هي الخنزير الذي يأكل أبناءَه.

ونهض دافن من مكانه وتوجَّه ناحية اللاعبين وهو يهزُّ رأسه في حزن. غير أن حزنَه فارقَه بعد لحظة، وأخذ يتجادل في حرارة مع كرانلي واللاعبَين اللذَين انتهيَا من لعبهما، وأعدوا لعبةً يشترك فيها أربعة، وقد أصرَّ كرانلي رغم ذلك على استخدام كرته. وقذفها

وتناولها في يده ثانيةً مرتين أو ثلاث مرات، ثم رمى بها بقوة إلى قرار الحارة، وهو يصيح متجاوبًا مع لطماتها: روحكم!

ووقف ستيفن مع لينش إلى أن بدأت الأهداف تترى، ثم جذبه من ردنه لكي يمضيا، وأطاعه لينش قائلًا: فلننزع وجودنا من هنا كما يقول كرانلي.

وابتسم ستيفن لهذه الغمزة.

وعبرَا الحديقة وخرجَا إلى الردهة، حيث كان البواب المرتج يُثبت إعلانًا على اللوحة. وعند أسفل الدرج توقَّفا وتناول ستيفن علبة سجائر من جيبه، وقدَّم واحدةً منها إلى رفيقه.

قال: أعرف أنك فقير.

فرد لينش: اللعنة على وقاحتك الصفراوية.

وأعاد هذا البرهان الثاني على ثقافة لينش البسمة إلى شفتَي ستيفن.

قال: لقد كان يومًا عظيمًا للثقافة الأوروبية حين قررت أن تلعن بالصفراوية.

وأشعلَا سيجارتَيهما وعرَّجَا يمينًا، وبعد صمتٍ بدأ ستيفن:

– لم يقدِّم أرسطو تعريفًا للشفقة والخوف، ولقد توصلتُ أنا إلى مثل هذا التعريف. إني أقول …

وتوقَّف لينش وقال ببلادة: قِف، لن أُنصت! إني مريض، لقد قضيت ليلة أمس في الشرب الأصفر مع «هوران» و«جوجنز».

واستطرد ستيفن: الشفقة هي الشعور الذي يستولي على الذهن في حضرةِ كلِّ ما هو خطير ودائم في المعاناة البشرية، ويربطها بالإنسان الذي يعاني، والخوف هو الشعور الذي يستولي على الذهن في حضرةِ كلِّ ما هو خطيرٌ ودائم في المعاناة البشرية، ويربطها بسببها الخفي.

فقال لينش: أعد.

وأعاد ستيفن التعريفين ببطء.

واستطرد: «كانت فتاةٌ تمرُّ في إحدى المركبات منذ يومين في لندن، وكانت في طريقها لملاقاة والدتها التي لم ترَها منذ سنين عدة. وعند ركن الطريق، حطمت الشاحنات زجاج المركبة وأحالَته إلى قطعٍ مدببة، واخترقت قطعة طويلة رقيقة من الزجاج قلبَ الفتاة، وماتت لساعتها.» وقال الصحفي إنه كان موتًا تراجيديًّا، ولكنه ليس كذلك. إن ذلك بعيدٌ عن الشفقة والخوف وفقًا لاصطلاحات التعريف الذي قدَّمته.

– العاطفة التراجيدية في الواقع وجهٌ يتجه إلى ناحيتَين، نحو الخوف ونحو الشفقة، وهما اثنان من مظاهرها. لقد رأيت أنني استخدمت كلمةَ يستولي، وأعني بذلك أن العاطفة التراجيدية عاطفةٌ سكونية، أو بالأحرى العاطفة الدرامية. أما المشاعر التي تُثيرها الفنون غير الخالصة فهي حركية، تحرِّك الرغبة أو الكُره، والرغبة تحثُّنا على الامتلاك، على الاقتراب من شيء، ويحثُّنا الكُره على الترك، على الابتعاد عن شيء. وعلى ذلك فإن الفنون التي تُثير هذه الأشياء، أدبًا مكشوفًا كانت أو تعليمية، هي فنون غير خالصة. وعلى ذلك فإن العاطفة الجمالية (وأنا أستخدم الاصطلاح العام) سكونية، وفيها يُستولى على الذهن ويرتفع فوق الرغبة والكره.

فقال لينش: أنت تقول إنه من الواجب ألَّا يُثيرَ الفن الرغبة، ولقد أخبرتك أنني كتبت اسمي ذات مرة بالقلم الرصاص على ظهر تمثال فينوس لبراكسيتليز في المتحف. ألم تكن هذه رغبة.

فقال ستيفن: إني إنما أتحدَّث عن الطبائع العادية. لقد أخبرتني أيضًا أنه عندما كنت صبيًّا في تلك المدرسة الدينية الساحرة أكلت قِطَعًا من الروث الجاف.

وانفجر لينش مرةً أخرى في نشيجٍ من الضحك وحك ثانيةً يديه على فخذيه، ولكن دون أن يخرجهما من جيوبه.

وصاح: أجل، لقد فعلت، لقد فعلت.

والتفت ستيفن نحو رفيقه وحملق برهةً بجرأةٍ في عينَيه، وأجاب عليه لينش بعد أن استفاق من ضحكه بعينَيه المتواضعتَين، وعكست الجمجمة الرقيقة الممتدة نحو القبعة الطويلة المدببة أمام ذهن ستيفن صورةَ سلحفاة ذات قناع. وكانت العينان أيضًا عينَي سلحفاة في لمعانهما ونظراتهما.

ورغم ذلك ففي هذه اللحظة، إذ هما ذليلتان وحذرتَا النظرات، أضاءَتهما نقطةٌ إنسانية صغيرة، نافذة روح منكمشة حادة النفس مريرتها.

وقال ستيفن في إدراك مؤدب: إننا جميعًا حيوانات فيما يختص بذلك. أنا أيضًا حيوان.

فقال لينش: إنك كذلك حقًّا.

فاستطرد ستيفن: ولكننا في عالم عقلي حتى الآن. ليست الرغبةُ والكُرهُ اللذان تستثيرهما الوسائل الجمالية غير الخالصة عواطفَ جماليةً في الحقيقة، ليس لأنها حركية الصفة فقط، ولكن لأنها كذلك لا تزيد على عواطفَ جسمانية. إن جسدنا يبتعد عن كل

ما يخشاه ويستجيب إلى الدوافع التي يرغب فيها عن طريقِ فعلٍ منعكس خالص للجهاز العصبي، مثل ذلك أن جفوننا تنغلق قبل أن نُدرك أن الذبابة على وشك أن تدخل عيوننا.

فقال لينش ناقدًا: ليس دائمًا.

فقال ستيفن: يحدث هذا بنفس الطريقة التي استجاب بها جسدك لدافع التمثال العاري، ولكني أقول إن ذلك كان ببساطة عملًا انعكاسيًّا للأعصاب. لا يستطيع الجمال الذي يخلقه الفنان أن يُوقظ فينا عاطفة حركية أو إحساسًا جسمانيًّا خالصًا. إنه يوقظ، أو يجب أن يوقظ أو يُثير أو يجب أن يُثير، سكونية جمالية، شفقة مثالية أو خوفًا مثاليًّا، سكونية تنبعث ثم تستطيل وأخيرًا تتصفَّى عن طريق ما أُسميه إيقاع الجمال.

فسأل لينش: وما هو ذلك بالضبط؟

فقال ستيفن: الإيقاع هو أول علاقة جامدة جمالية للجزء بالجزء الآخر في الكل الجمالي، أو علاقة الكل الجمالي بجزئه أو بأجزائه، أو علاقة أي جزء بالكل الجمالي الذي هو جزء منه.

فقال لينش: إذا كان هذا هو الإيقاع، فقل لي ماذا تسمِّي الجمال، وأرجوك أن تتذكر أنه رغم أنني أكلت يومًا كعكةً من الروث، إلا أنني لا أعجب بشيء سوى الجمال.

ورفع ستيفن قبعته كأنما يرحب بذلك، ثم تورَّد وجهه قليلًا ووضع يده على ردن لينش التويد السميك.

قال: إننا على حقٍّ والآخرون مخطئون. الفن هو أن نتحدث عن هذه الأشياء وأن نحاول فهْمَ طبيعتها، وبعد أن نفهمَها نحاول في بطءٍ وتواضع وباستمرار أن نعبر عن صورة للجمال الذي فهمناه، وأن نجبل ثانيةً من الأرض الجافة أو نتاجها، من الصوت والشكل واللون التي هي نوافذ سجن أرواحنا، صورةً لهذا الجمال.

وكانا قد بلغَا جسر الفتاة، وانحرفا عن طريقهما وسارَا بمحاذاة الأشجار. وكان الضوء الرمادي الجاف الذي ينعكس على المياه الخاملة ورائحة الأفنان المبتلة فوق رءوسهم، تبدو كأنما تشنها حربًا على سياق تفكير ستيفن.

قال لينش: ولكنك لم تُجِب على سؤالي: ما هو الفن؟ ما هو الجمال الذي يعبر عنه الفن؟

فقال ستيفن: لقد كان ردِّي هو الاعتراف الأول الذي أعطيته لك، أيها الأخرق البائس، حين بدأت أحاول مناقشة المسألة مع نفسي. أتذكر تلك الليلة؟ حين فقد كرانلي أعصابه وأخذ يتحدث عن لحم خنزير «ويكلو».

قال لينش: إني أذكرها. أخبرنا يومها عن الخنازير السمينة النارية الشيطانية.

فقال ستيفن: الفن هو الخلق الإنساني للمادة المحسوسة أو المدركة من أجل غاية جمالية. لقد تذكرتُ الخنازير ونسيت هذا. إنكما رفيقان متعبان، أنت وكرانلي.

وعبس لينش في وجه السماء الرمادية الكثيفة، وقال: إن كنت سأستمع إلى فلسفتك الجمالية فلا أقل من أن تُعطيَني سيجارةً أخرى. لا أهتم بها، إني لا أهتم حتى بالنساء. اللعنة عليك وعلى كل شيء. أريد عملًا بخمسمائة جنيه في العام. إنك لا تستطيع منحي هذا العمل.

وناوله ستيفن علبة السجائر، وأخذ لينش آخرَ واحدة فيها قائلًا في بساطة: استمر.

فقال ستيفن: يقول أكويناس إن الجميل هو الذي يسبِّب إدراكه السرور.

وأومأ لينش، وقال: أتذكر أنه: Pulcra sunt quae visa placent.[٢٤]

فقال ستيفن: إنه يستخدم كلمة Visa ليغطيَ الإدراكات الجمالية من كل نوع، سواء عن طريق أي وسيلة إدراك أخرى. وهذه الكلمة، رغم غموضها، فهي واضحة كفاية للفصل بين الخير والشر، اللذَين يُثيران الرغبة والكره. إنها تعني بالتأكيد سكونية وليس حركية. وماذا عن الحق؟ إنه يُنتج سكونية في الذهن كذلك، فأنت لا يمكن أن تكتب اسمك بالقلم الرصاص على وتر المثلث القائم الزاوية.

فقال لينش: كلَّا، بل أعطني وتر فينوس لبراكستيليز.

فقال ستيفن: وعلى هذا فهو سكوني. لقد قال أفلاطون — كما أعتقد — إن الجمال هو رونق الحق، ولا أظن أن لذلك معنى، ولكن الحق والجميل شيئان متقاربان. الحق يُرى بعينَي البصيرة التي هدَّأتها نسب الإدراك الأكثر إرضاء. والجمال يُرى بعين الخيال الذي هدَّأته نسب الحس الأكثر إرضاءً. والخطوة الأولى في اتجاه الحق هو فهمُ إطار البصيرة ذاتها ومجالها، وإدراك الفعل البصيري ذاته. يقوم النظام الفلسفي كلُّه عند أرسطو على كتابه عن علم النفس، وأعتقد أن هذا الكتاب يعتمد بدوره على بيانه بأن نفس الصفة لا يمكن في نفس الوقت وفي نفس المقام، أن تنتميَ إلى نفس الموضوع ولا تنتمي إليه. والخطوة الأولى في اتجاه الجمال هي فهم إطار الخيال ومجاله، وإدراك فعل التفهم الجمالي ذاته. أهذا واضح؟

---

[٢٤] الجميل هو ما يسرُّ الإدراك.

فقال لينش في ضجر: ولكن ما هو الجمال. عليك بتعريف آخر. شيء نراه ونُحبه! أهذا أفضل ما تستطيع أنت وأكونياس أن تُقدِّماه.

فقال ستيفن: فلنأخذ المرأة.

فقال ستيفن: الإغريق، الأتراك، الصينيون، الأقباط، الهوتنوت، كلهم أُعجبوا بأنماط مختلفة من الجمال. يبدو هذا ورطة لا يمكننا الخروج منها. غير أني أرى مخرجَين، الأول الافتراض بأن كلَّ صفة جسمانية أُعجب بها الرجال في النساء، لها صلة مباشرة بالوظائف المباشرة للنساء لحفظ النوع. قد يكون ذلك. ويبدو أن العالم أشد كآبةً مما كنت تتخيله يا لينش. أما من جانبي فإني أبغض هذا الحل، فهو يقود إلى علم تحسين النسل أكثر من علم الجمال. إنه يقودك خارج الورطة إلى غرفة محاضرات جديدة خادعة، حيث تجد «ماكَّان» وإحدى يدَيه على نسخة من أصل الأنواع ويده الأخرى على العهد الجديد. يقول لك إنك قد أُعجبت بجانبَي فينوس العريضَين؛ لأنك شعرت أن بإمكانها أن تُنجب لك ذريةً ضخمة، وأعجبت بصدرها العريض لأنك شعرت أن بإمكانها توفير لبن كثير لأطفالها وأطفالك.

فقال لينش في نشاط: إذن «فماكَّان» كاذبٌ صفراويٌّ كالكبريت.

فقال ستيفن وهو يضحك: يبقى هناك مخرجٌ آخر.

فقال لينش: عليَّ به.

وبدأ ستيفن بقوله: هذا الحل ...

وأقبلت شاحنة محملة بالحديد الخردة حول منحنى مستشفى «سير باتريك دان»، وغطَّت على نهاية حديث ستيفن بزئير المعدن المصلصل المجلجل الحاد.

وغطَّى لينش أُذُنَيه وأخذ يُطلق السباب تلو السباب إلى أن مرَّت الشاحنة، وعندها دار على عقبَيه في خشونة، واستدار ستيفن كذلك وانتظر لحظات قليلة حتى انصرف كدر رفيقه.

وردَّد ستيفن: هذا الحل هو الفرض الآخر، وهو أن الموضوع نفسه قد لا يبدو جميلًا لكل الناس، فإن كلَّ الناس التي تعجب بموضوع جميل تجد فيه نسبًا معينة تُرضي وتتفق مع مراحل الإدراك الجمالي ذاتها، وعلى ذلك فإن نِسَب المحسوس هي التي تبدو لك عن طريق شكلٍ من الأشكال، وتبدو لي عن طريق شكلٍ آخر، لا بد أن تكون هي الصفات اللازمة للجمال. والآن، لنا أن نعود إلى صديقنا القيم القديس توماس من أجل قيراطَين من حكمته.

وضحك لينش، قال: يمتعني جدًّا أن أسمعك تقتبس منه المرة تلو المرة مثل القسيس الطروب البدين. هل تضحك في نفسك؟

فردَّ ستيفن: لو كان «ماك ليستر» لدعَا نظريتي الجمالية تطبيقات أكويناس. وطالما يمتد هذا الجانب من الفلسفة الجمالية، فسيحملني أكويناس في هذا الطريق. أما حين نأتي إلى ظاهرة التصور الفني، المخاض الفني والإنتاج الفني، فإني أحتاج إلى اصطلاحات جديدة وتجربة شخصية جديدة.

فقال لينش: طبعًا، وعلى كل حال فإن أكويناس كان قسيسًا سمينًا طيبًا تمامًا رغم كل بصيرتك، ولكنك ستُخبرني عن التجربة الشخصية الجديدة والاصطلاحات الجديدة في يوم آخر. أسرع الآن وأنْهِ القسم الأول.

فقال ستيفن مبتسمًا: مَن يدري؟ ربما فهمني أكويناس أفضل منك لقد كان شاعرًا هو نفسه، لقد كتب ترتيلةً دينية ليوم الخميس المقدس، وتبدأ بالكلمات Pange lingua gloriose،[٢٥] يقولون إن هذا أعظم مجد يمكن أن يبلغه المرتل. إنها ترتيلةٌ معقدة ومهدئة. إني أُحبها، غير أنه لا يوجد ترتيلة يمكن أن تُقارن بتلك الأغنية الجلالية البكائية المنسقة (راية الملك) Regis Vexilla «لفينانتيوس فورتوناتوس».

وبدأ لينش يغنِّي برقة ورزانة في صوت «باص» عميق:

Impleta sunt quae concinit
David fideli carmine
Dicendo nationibus
Regnavit a lingo Deus.[٢٦]

قال: هذا عظيم! حسنًا جدًّا، موسيقى عظيمة.

وانعطفَا على شارع «لووار ماونت» وعلى بُعد خطوات قليلة من الجانب حيَّاهما شابٌّ بدينٌ يرتدي وشاحًا من الحرير ثم توقَّف. وسأل: هل عرفتما نتائج الامتحانات؟ لقد رسب «جريفين»، و«هالبين» و«أوفلين» في طريقهما إلى الوظيفة، ومونان الخامس في وظائف الهند، وأوشنسي الرابع عشر. لقد أعدَّ لهم الرفاق الأيرلنديون في كلية «كلارك» مأدبة في الليلة الماضية، وأكل الجميع البهارات الهندية.

---

[٢٥] «احتفلي بلسانٍ مجيد» ترنيمة دينية.

[٢٦] «لقد تحقق كلُّ ما قاله داود في أغنيته الحقة التنبُّئية، حين قال إن الله يحكم بين الأمم وينتصر، من فوق الصليب الخشبي».

وبدا على وجهه الشاحب المنتفخ تعابير الخبث الرحيم، وبينما كان مستمرًّا في إذاعة أخبار النجاح، اختفت عيناه الصغيرتان المنتفختان عن الأبصار، وذاب صوتُه الضعيف الصافر عن الأسماع.

وعادت عيناه وصوته ثانيةً من مكمنهما إجابة عن سؤال ستيفن. قال: أجل، «ماكولا» وأنا. سيدرس الحساب، وسأدرس أنا التاريخ الدستوري، هناك عشرون مادة، وسأدرس النبات أيضًا. أنت تعلم أنني عضو في النادي الريفي.

وابتعد عن الاثنين بطريقة مبهرجة، ووضع يدًا سمينة ذات قفاز صوفي على صدره، الذي انطلقت منه ضحكات صافرة على الفور.

وقال ستيفن بجفاف: أحضر لنا لفتًا وبصلًا حين تخرج مرةً أخرى في إحدى الرحلات لكي نُعدَّ منه «يخنة».

فغمر الضحك الطالب البدين، وقال: كلُّنا أناسٌ محترمون جدًّا في النادي الريفي، وقد خرجنا يوم السبت الماضي إلى «جلنماليور»، سبعة منا.

فقال لينش: وهل كان معكم نساء يا دونوفان؟

ووضع دونوفان يدَه مرةً أخرى على صدره، وقال: إن غايتنا هي تحصيل المعرفة.

ثم قال بسرعة: سمعت أنك تكتب مقالًا عن علم الجمال.

فقال ستيفن بحركة إنكار غامضة.

فقال دونوفان: لقد كتب «جوته» و«لسنج» كثيرًا حول هذا الموضوع عن المدرسة الكلاسيكية والمدرسة الرومانسية، وكل هذه الأشياء. لقد أثار كتاب «لاوكون» اهتمامي حين قرأته. إنه بطبيعة الحال مثالي، ألماني، فوق العميق.

ولم يتكلم أحد من الحاضرين، واستأذن دونوفان منهما في أدب. قال في رقة وإحسان: لا بد أن أذهب، ولديَّ إحساسٌ قويٌّ يكاد يرتفع إلى مرتبة الاقتناع أن أختي تعتزم صنع الفطائر الحلوة على الغداء اليوم لأسرة دونوفان.

وقال ستيفن في طريقه: مع السلامة، لا تنسَ اللفت لي ولرفيقي.

وتطلَّع لينش خلفه وشفتاه تتقلصان في احتقار بطيء، حتى أصبح وجهه يُشابه قناع الشيطان.

وقال أخيرًا: تصور أن هذا الروث الصفراوي، آكل الفطائر، يستطيع الحصول على وظيفة طيبة، بينما أنا أدخن السجائر الرخيصة!

وحوَّلا وجهتهما ناحيةَ ميدان «مريون»، ومضيَا برهةً في صمت.

قال ستيفن: دَعْني أُنهي ما كنت أقوله عن الجمال. إن النسب الأكثر إرضاءً للمحسوس، لا بد بهذا أن تتطابق مع الأشكال اللازمة للإدراك الفني. لو وجدت هذه النسب لوجدت صفات الجمال العام. يقول أكويناس:

Ad pulcritudinem tria requiruntur,
Integritas, consonantina, claritas.[٢٧]

وأُترجمها هكذا: هناك ثلاثة أشياء ضرورية للجمال: الاكتمال، التناسق، التألق. هل تتطابق هذه الأشياء مع أشكال الإدراك؟ أأنت معي؟

فقال لينش: طبعًا، إذا كنت تظن أن لي ذكاءً روثيًّا فلك أن تجري خلف دونوفان وتطلب منه أن يستمع لك.

وأشار ستيفن إلى سلة يُعلِّقها صبي جزار معكوسة على رأسه، وقال: انظر إلى هذه السلة.

فقال لينش: إني أراها.

قال ستيفن: لكي ترى هذه السلة، يفصل ذهنك في البداية السلة عن باقي الكون المرئي الذي لا يتضمن السلة، ويكون أول شكل للإدراك هو خطٌّ فاصل يُرسم حول الموضوع الذي سيُدرك. وتقدم لنا الصورة الجمالية إما في المكان أو في الزمان. وكل ما هو مسموع يقدم في الزمان وكل ما هو مرئي يقدم في المكان. ولكن الصورة الجمالية، سواء كانت مكانية أو زمانية، تُدرك أولًا في وضوح منطويةً منفردة على خلفية المكان أو الزمان الذي لا حد له، والذي ليس هو تلك الصورة. إنها تُدركها كشيء «واحد» وتراها ككلٍّ واحد. إنك تُدرك اكتمالها، وهذا هو «التكامل».

فقال لينش وهو يضحك: العين المستديرة! استمر.

فقال ستيفن: ثم تنتقل من نقطة إلى أخرى، تقودك خطوطها الجامدة، وتُدركها كجزءٍ متوازن مع جزءٍ آخر داخل حدودها، وتشعر بإيقاع تركيبها. وبعبارة أخرى، يتبع تركيب الإحساس الفوري تحليل الإدراك، وبعد أن تشعر أولًا أنها شيء «واحد»، تشعر الآن أنها «شيء» وتُدركها كمركَّب، مضاعف، منقسم، منفصل، مصنوع من أقسام، ونتيجة أقسامه ومجموعها يسبب تناسقها. وهذا هو التناسق.

---

[٢٧] يحتاج الجمال إلى ثلاثة عناصر أساسية: التكامل، التناسق، التألق.

فقال لينش مستسلمًا: العين المستديرة ثانية. أخبرني الآن ما هو التألق فتكسب السيجار.

فقال ستيفن: إن مفهوم الكلمة غامضٌ نوعًا ما. وأكويناس يستخدم اصطلاحًا يبدو غيرَ دقيق، وقد خدعني زمنًا طويلًا، فهو يؤدي بك إلى أن تعتقدَ أنه يقصد الرمزية أو المثالية، والصفة العليا للجمال هي أنه نورٌ من عالم آخر، الفكرة التي تقول إن المادة ظلٌّ وحقيقتها الوحيدة هي الرمز. واعتقدت أنه إنما عنَى أن البهاء هو الاكتشاف الفني والتصوير الفني للقصد الإلهي من كل شيء أو قوة تعميم تجعل من الصور الجمالية صورةً عامة، وتجعلها تتفوق على أوضاعها الصحيحة، ولكن هذا كلام أدب. إنني أفهمها هكذا، فأنت حين أدركت هذه السلة كشيء واحد، ثم حللتها بعد ذلك طبقًا لشكلها وأدركتها كشيء، تكون قد فعَّلت التركيب المنطقي الوحيد والمسموح به من الناحية الجمالية، وأنت ترى أنها هي هذا الشيء الذي هي عليه ولا شيء غيره. والتألق الذي يتحدث عنه في الـ quidditas الإسكولائية هو «ماهية» الشيء. وهذه الصفة العليا يحسُّها الفنان حين يتصور الصورة الجمالية، أول مرة في خياله، وقد شبَّه شيلي الذهن في هذه اللحظة الغامضة تشبيهًا جميلًا بذبالة الفحم. واللحظة التي يُدرك فيها الذهن بوضوح تلك الصفة العليا للجمال، هذا التألق الواضح للصورة الجمالية، بعد أن يكون قد استولى عليه اكتمالها وبهرَه اتساقها، هي السكونية الصامتة المضيئة للسرور الجمالي، حالة روحية شبيهة جد الشبه بالحالة العاطفية التي دعاها النفساني الإيطالي «لويجي جالفاني»، مستخدِمًا عبارةً تكاد تُضارع في جمالها جمالَ عبارة شيلي، بافتتان الفؤاد.

وتوقَّف ستيفن، ورغم أن رفيقه لم يتحدث، فقد شعر بأن كلماتِه قد بعثَت حولهما صمتًا من السحر الفكري.

وبدأ يقول ثانيةً: إن ما قلته الآن يُشير إلى الجمال بمعناه الأوسع، بالمعنى الذي تعنيه كلمةُ الجمال في التقاليد الأدبية، أما بمعناها الشائع فهو شيءٌ آخر، حين تتحدث عن الجمال بمعناه الثاني، يتأثر حكمنا في المقام الأول بالفن ذاته وبالشكل الذي عليه هذا الفن. ومن الواضح أن الصورة يجب أن تُوضَع بين ذهن الفنان نفسه أو إحساسه وبين ذهن الآخرين وإحساسهم. وإذا تذكرت ذلك فسوف تفهم أن الفن يقسم نفسه تبعًا للضرورة إلى ثلاثة أشكال، يتطور الواحد منها إلى الآخر. وهذه الأشكال هي: الشكل الغنائي وهو الشكل الذي يقدِّم فيه الفنان فكرتَه بانعكاس مباشر من شخصيته، ثم الشكل الملحمي وهو الشكل الذي يقدم فيه الفكرة بانعكاس من شخصيته وشخصيات الآخرين، ثم الشكل الدرامي

وهو الشكل الذي يقدِّم فيه الفكرة بانعكاسٍ من شخصيته وشخصيات الآخرين، ثم الشكل الدرامي وهو الشكل الذي يقدِّم فيه الفنان فكرتَه بانعكاسٍ مباشرٍ من الآخرين.

فقال لينش: لقد قلت هذا منذ أيام مضَت، وبدأنا عندها تلك المناقشة الشهيرة.

قال ستيفن: لديَّ في المنزل دفترٌ كتبتُ فيه أسئلة أكثر مدعاةً للتسلية من أسئلتك. وفي البحث عن أجوبة هذه الأسئلة عثرتُ على نظرية الجمال التي أحاول أن أشرحها الآن. ومن أمثلة الأسئلة التي وضعتُها لنفسي: هل المقعد المصنوع بمهارة تراجيدي أم كوميدي؟ هل تكون صورة الموناليزا جيدة إن أنا رغبتُ في رؤيتها؟ هل تمثال سير «فيليب كرامبتون» النصفي غنائي أم ملحمي أم درامي؟ وإن لم يكن كذلك: لماذا، حقًّا؟

واستطرد ستيفن: إذا كان هناك رجلٌ يحفر في سَورة غضبه على قطعة من الخشب، ورسم عليها صورة بقرة بهذا الحفر، فهل تكون هذه الصورة عملًا فنيًّا؟ وإن لم تكن، فلماذا؟

فقال لينش وهو يضحك ثانية: هذه فكرةٌ جميلة، ففيها الرائحة الإسكولائية الأصيلة.

قال ستيفن: لم يكن يجب على لسنج أن يتناول مجموعةً من التماثيل ليكتب عنها. إن هذا الفن، وهو أقل في المرتبة، لا يُصور الأشكال التي تحدَّثت عنها مميزة بوضوح بعضها عن البعض الآخر. وحتى في الأدب، وهو الفن الأكثر سموًّا وروحية، تختلط الأشكال في أغلب الأمر. والشكل الغنائي هو في الواقع أبسط كساء لفظي للحظة العاطفة، صيحةٌ إيقاعية كتلك التي كان يُطلقها منذ عصورٍ مضَت من يجدف في القارب، أو يدفع الأحجار فوق المرتفعات. ويشعر مَن ينطق بها بلحظة العاطفة أكثر مما يشعر بنفسه كشخص يحسُّ بهذه العاطفة. ويتطور أبسط الأشكال الملحمية من الأدب الغنائي، حين يُطيل الفنان تفكيرَه في ذاته كمركز حدث ملحمي، ويتطور هذا الشكل حتى يتساوى بُعد مركز الثقل العاطفي من الفنان نفسه ومن الآخرين. وفيه لا تُصبح القصة شخصية تمامًا، بل تَجوسُ شخصيةُ الفنان خلال القصة ذاتها، وتُحف بالشخوص والأحداث كالبحر الحي المتدفق. وتجد هذا التطور بسهولة ممثلًا في تلك القصة الشعرية الإنجليزية القديمة «تيربن بطلًا»، التي تبدأ على لسان البطل وتنتهي على لسان الغائب. ونَصِل إلى الشكل الدرامي حين تملأ حيوية الفنان التي سبق أن جفَّت، وأحاطَت بالشخصيات الأخرى هذه الشخوص من الداخل، حتى إن كلَّ شخوص القصة تتخذ حياة جمالية قائمة خفية، وتأخذ شخصية الفنان، التي كانت أولًا صيحة أو نغمة أو حالة ثم لا قصة لامعة سيالة، تأخذ في البعد آخر الأمر بنفسها عن الوجود، أو تلغي شخصيتها، إن صحَّ هذا التعبير، والصورة الجمالية في

الشكل الدرامي هي الحياة مصفاةً ومنعكسةً ثانيةً من الخيال الإنساني. وتتم بهذا دورة لغز الجمال، كمثل الخلق المادي، ويظل الفنان كالإله، داخل ما صنعت يداه أو خلفه أو وراءه أو فوقه، خفيًّا، بعيدًا عن الوجود لا مباليًا، يُقلم أظافره.

فقال لينش: محاولًا إبعادها عن الوجود هي أيضًا.

وبدأ مطرٌ خفيفٌ يسقط من السماء الملبدة، وعرجَا على مرج الدوق ليصلَا إلى المكتبة الوطنية قبل نزول الشآبيب.

وسأل لينش بغلظة: ماذا تعني بالتفرقة بين الجمال والخيال في هذه الجزيرة البائسة التي ازدراها الإله؟ لا عجب إذا انعزل الفنان داخل ما صنعت يداه أو خلفه بعد أن يجني على هذا البلد.

واشتد المطر، وحين عبرَا الممرَّ الذي يقع بجانب مبنى «كلدار»، وجدَا كثيرًا من الطلاب يحتمون تحت سقف ممشى الكنبة. وكان كرانلي متكئًا على أحد الأعمدة ويحفر في أسنانه بعود ثقاب مدبَّب ويُنصت إلى بعض الرفاق. ووقفت بعض الفتيات بالقرب من باب الدخول، وهمس لينش لستيفن: حبيبتك هنا.

واتخذ ستيفن مكانه في صمت على الدَّرَج الذي يقع أسفل مجموعة الطلاب، غيرَ ملقٍ بالًا إلى المطر الذي اشتد نزوله، موجِّهًا بصرَه تجاهها من آنٍ لآخر. ووقفَت هي الأخرى صامتةً بين رفيقاتها. وجال في خاطره، في وعيٍ مريرٍ، وقد تذكَّر آخر مرة رآها فيها، أنه ليس معها قسٌّ حتى تُغازله. إن لينش على حق. وارتدَّ ذهن وقد خلا من النظريات ومن الشجاعة إلى هدوء فاتر. وسمع الطلبة يتحادثون. كانوا يتحدثون عن صديقين نجحا في امتحان الطب النهائي، وعن فُرَص الحصول على عملٍ في البواخر العابرة للمحيطات، وعن الوظائف الغنية والفقيرة.

– كل هذا هراء، أفضل الأعمال في الريف الأيرلندي.

– لقد قضى هاينز عامين في ليفربول، ويقول الشيء نفسه. قال إنها كانت كالهُوَّة المخيفة، لا عمل فيها سوى حالات الولادة.

– أتريد أن تقول إنه من الأفضل الحصول على عمل هنا في الريف عن العمل في مدينة غنية كهذه؟ أعرف صديقًا …

– هاينز لا عقل له. إنه لم يَصِل إلى هدفه لأنه ليس له عقل، هذا كل ما في الأمر.

– لا تهتمَّ بذلك. في الإمكان جمعُ ثروة كبيرة من العمل في مدينة تجارية كبرى.

– هذا يعتمد على نوع الزبائن.

Ego credo ut vita pauperum est simpliciter atrox, simpliciter sanguinarius atrox, in Liverpoolio.[٢٨]

وبلغت أصواتُهم مسامعَه كأنها آتيةٌ من بعيد في خفقٍ متقطع. كانت تتهيأ للذهاب مع رفيقاتها.

وانقطع الرذاذ الخفيف، متمهلًا في تجمعات ماسية بين شجيرات المربع، حيث تنفثُ الأرض المسودة تضوعاتِها، وأخذت أحذيتهن الدقيقة تدقُّ حين كنَّ يقفنَ على درجات البهو ذي الأعمدة، يتحدثنَ في هدوء ومراح، يتطلعنَ إلى السحب، حاملات مظلاتهن في زوايا ماكرة يتَّقينَ بها نقاط المطر الأخيرة، ثم يُغلقنَها ثانيةً، وهنَّ يُمسكنَ بفساتينهن في رصانة.

وماذا لو كان قد قسا عليها في الحكم؟ ماذا إن كانت حياتها سلسلةً بسيطة من الساعات، حياتها بسيطة وغريبة مثل حياة الطائر، مرحٌ في الصباح، وقلقٌ طوال النهار، وتعبٌ عند الغروب! ماذا لو كان قلبها بسيطًا عنيدًا مثل قلب الطائر؟

وصحَا قرب الفجر، آهٍ، يا لَها من موسيقى عذبة. كانت روحها كلها يُغطِّيها الطلُّ النادي. لقد عبرت موجاتٌ باردة شاحبة من النور أطرافه في المنام. ورقد ساكنًا، كأنما ترقد روحه وسط المياه الباردة، تستشعر الموسيقى العذبة الواهنة. كان ذهنه يصحو في بطءٍ على عرفان صباحي مرتعد، إلهامٌ صباحيٌّ، لقد غمرَته روحٌ صافية كأصفى ما يكون الماء، عذبةٌ كالطل، لها سحر الموسيقى. ولكن لشدَّ ما كانت نفثاتها واهنةً لا انفعال فيها، كأنما ينفثها الملائكة أنفسهم فوقه! كانت روحه تصحو في بطء، تخاف لو تصحو كلية. كانت الساعة ساعة الهدوء في الفجر حين يستيقظ الجنون، وتتفتح نباتات غريبة للنور وتطير الفراشة بعيدًا في سكون.

نشوة الفؤاد! لقد كانت ليلةً سحرية، لقد عرف نشوة الحياة الملائكية في حلم أو في رؤيا. هل كانت لحظةً واحدة من لحظات السحر أم ساعات طويلة ودهورًا؟

وبدَت تنعكس لحظة الإلهام الآن من جميع الجوانب على الفور من جمهرة ظروف غبشاء من الأحداث التي وقعَت أو الأحداث التي قد تقع. وومضَت اللحظة كطرف الضياء، أخذ الآن شكلًا متشابكًا يغطي وهجه في رقة من سُحُب فوق سُحُب من الظروف الغامضة.

[٢٨] «أنا أعتقد أن حياة الفقراء في ليفربول هي ببساطة فظيعة، فظيعة لعينة».

آه! لقد اكتسَت الكلمة لحمًا ودمًا في رحم الخيال العذري. لقد حضر الملاك جبريل إلى غرفة العذراء، وعمق في روحه غسقٌ جديد، ذهبت عنه الطلاوة البيضاء، وعمق إلى نورٍ ورديٍّ حادٍّ. إن النور الوردي الحاد هو قلبها العنيد، غريبٌ غرابة لم يعرفها بشرٌ أو سيعرفها بعد ذلك، عنيدٌ من قبل بداية العالم، وقد استهوى ذلك الوهج الوردي الحاد جماعة الملائكة فسقطوا من السماء.

ألستِ منهكةً من هذه الرغبة الغامرة،
ومن إغواء من سقط من الملائكة.
لا تحدِّثيني بعد الآن عن تلك الأيام الساحرة.

وعبرت أبيات الشعر من ذهنه إلى شفتَيه، وردَّدها عدة مرات، وشعر بالحركة الإيقاعية لقصائد الفيلانيل[٢٩] تمرُّ خلالها. وبعث الوهج الوردي أشعةَ قوافيه: حارة-ساحرة، قلوب-لهيب. وأحرقت أشعتها الدنيا، وأفنت قلوب الإنس والملائكة. أشعة الوردة التي هي قلبها العنيد.

لقد أشعلَت عيناكِ أفئدةَ الرجال نيرانا،
وقد امتلكتِ كلَّ ما فيها من إرادة.
ألستِ منهكةً من هذه الرغبة الغامرة؟

ثم ماذا؟ مات الإيقاع، توقَّف. وبدأ يتحرك ويخفق ثانيةً، ثم ماذا؟ دخان، بخورٌ يتصاعد من مذبح العالم.

ويصعد دخان الثناء من فوق النيران،
ويغطِّي المحيط من أقصاه إلى أدناه،
لا تحدِّثيني بعد الآن عن تلك الأيام الساحرة.

وارتفع الدخان من كل الأرض، من المحيطات المبخرة، دخان مديحها، وكانت الأرض مثل المبخرة المتمايلة الراقصة، كرةً من البخور، كرةً إهليليجية. ومات الإيقاع على الفور،

[٢٩] نوعٌ من القصائد يحتوي على ثمانية عشر بيتًا وقافيتَين.

واختنقت صيحة فؤاده، وبدأت شفتاه تُهمهمان الأشعار الأولى مرارًا وتكرارًا، ثم انتقل منها متعثرًا في أنصاف أشعار، مترنحًا محبطًا، ثم توقَّف. لقد اختنقت صيحة فؤاده.

ومرَّت الساعة النقباء التي لا ريح فيها وبدأ يتجمَّع نورُ الصباح خلف أعراش النافذة العارية، ورنَّ جرسٌ رنينًا واهنًا بعيدًا جدًّا. وغرَّد طائر، طائران، ثلاثة طيور. وانقطع رنين الجرس وتغريد الطيور، ونشر الطيور، ونشر النور الأبيض السقيم نفسه شرقًا وغربًا، مغطيًا النور الوردي الذي يغمر فؤاده.

وخاف أن يفقد كلَّ شيء، فنهض فجأةً وارتكز على مرفقه يبحث عن ورقة وقلم، ولم يكن أيٌّ منهما على المائدة، بل وجد هناك طبقَ الحساء الذي كان يأكل الأرز منه في العشاء، والشمعدان بخيوط الشمع والثقب الورقي، وقد تركت ذبالةُ الشعلة أثرَها عليه. ومدَّ ذراعَه متعبًا ناحية آخر السرير، منقِّبًا بيده في جيوب المعطف المعلَّق هناك. وعثرَت أصابعه على قلم وعلبة سجائر. وتمدَّد ثانيةً وفتح العلبة، ووضع آخر سيجارة فيها على حافة النافذة، وبدأ يكتب كوبليهات الفلانيل في حروف صغيرة منمقة على سطح البطاقة الخشن.

وبعد أن كتبها مرةً أخرى على الوسادة الخشنة، وهو يُهمهم بها ثانيةً. وأعادَت خشونة جزز الصوف المعقودة تحت رأسه إلى ذاكرته جزز شعر الخيل المعقودة في الأريكة التي في ردهة منزلها، والتي كان يجلس عليها، مبتسمًا أو جادًّا، سائلًا نفسه لماذا جاء، غاضبًا منها ومن نفسه، مضطربًا من صورة القلب المقدس على الصوان الخالي. ورآها تقترب منه في هدهدة من الحديث، وتطلب منه أن يغنِّيَ إحدى أغانيه العجيبة، ثم رأى نفسه جالسًا إلى البيانو القديم، يضرب الأوتار برقة على مفاتيحه الرقطاء، ويغنِّي وسط الحديث الذي ارتفع ثانيةً في الغرفة، يغني لها تلك التي انحنت إلى جانب المدفأة أغنيةً حلوة من العصر الإليزابيتي، شكوى حزينة عذبة من الفراق، أنشودة انتصار أجينكورت، ولازمة جرينسليف المرحة. وبينما كان يغني وهي تُنصت أو تتظاهر بالإنصات كان قلبه هادئًا، ولكن حين انتهت الأغاني القديمة وسمع الأصوات ثانيةً في الغرفة، تذكَّر ما كان يقوله ساخرًا من أن هذا هو المنزل الذي يُدعى فيه الشبان بأسمائهم الأولى بعد فترة أقصر من اللازم.

وكان عيناها تبدوان في لحظاتٍ معينة على وشك أن تثقَا فيه، ولكنه انتظر دون جدوى. وعبرَت الآن ذاكرته متراقصةً في خفة، كما كانت تلك الليلة في حفلة الكرنفال الراقصة، وثوبها الأبيض مرفوع قليلًا، ورذاذٌ أبيض يخفق بين شعرها. ورقصت في الحلبة في خفة. كانت ترقص متجهة نحوه، وكانت عيناها تعرضان عنه قليلًا حين تقترب منه،

بينما وهج واهن يلتمع فوق خدَّيها. وعندما توقَّف الرقص، وتشابكَت الأيدي، لمسَت يداها يدَيه برهة، سلعة رقيقة.

– إنك غريبٌ عظيم الآن.

– أجل، إنني راهب بطبيعتي.

– أخشى أن تكون كافرًا.

– أتخشين ذلك كثيرًا؟

وردًّا على سؤاله رقصت مبتعدةً عنه على طول الأيدي المتشابكة، ترقص في خفةٍ وفي رصانة، ولا تُعطي نفسها لأحد، وخفق الرذاذ الأبيض لرقصها، ويعمق الوهج على خدَّيها حين تكون في الظل.

راهب! وبرزَت صورتُه إلى الأمام، دنيوي داخل دير، فرانسيسكي كافر، يريد ولا يريد أن يخدم الدين، ينسج مثل «جيرار دينو دابورجو سان دونينو»، نسيج سفسطائية لينًا ويهمس في أُذُنَيها.

كلَّا، لم تكن صورته، بل هي أشبهُ بصورة القس الشاب الذي رآها بصحبته أخيرًا، تنظر إليه بعينَي يمامة وهي تعبث بصفحات كتابها عن الجمل الأيرلندية.

– أجل، أجل النساء يقتربن منَّا، أستطيع أن أرى ذلك كل يوم، النساء معنا. أفضل عون يمكن للغة أن توفره.

– وماذا عن الكنيسة أيها الأب موران؟

– والكنيسة أيضًا تقترب منا. العمل يتقدم هناك أيضًا، لا تقلقي على الكنيسة.

هراء! لقد أحسن صنعًا حين ترك الغرفة احتقارًا. لقد أحسن صنعًا حين لم يُحيِّها على درج المكتب، لقد أحسن صنعًا حين تركها لتُغازل القس، ولكي تعبث بكنيسة هي مثل كرار المسيحية.

وقذف الغضب الحاد البهيمي بلحظات النشوة المتلكئة الأخيرة من روحه، وحطم صورتها الجميلة بقسوة وألقى بالحطام في كل الأنحاء. وانبعثَت من ذاكرته إلى كلِّ الأنحاء انعكاساتُ مشوهة لصورتها: فتاة الزهور ذات الثياب الممزقة والشعر الخشن الرطب، والوجه الفظ الذي دعَت نفسها فتاته، وطلبت إحسانه خادمة المنزل المجاور التي تغنِّي على انصفاق أطباقها، مع ثغثغة المغني الريفي الألحان الأولى من أغنية «عند بحيرات ومروج كيلارني»، الفتاة التي ضحكت في بهجة حين رأَته يتعثر إذ يشتبك نعلُ حذائه الممزق بالمشبك الحديدي في الممر عند «كورك هيل»، فتاةٌ تنظر إليها وجذبه فمُها الصغير

الريان حين كانت خارجة من مصنع «يعقوب» للبسكويت، والتي صاحَت به من وراء ظهرها: هل يُعجبك ما تراه مني، الشعر المبسوط والحاجبان المعقودان؟

– هل يُعجبك ما تراه مني، الشعر المبسوط والحاجبان المعقودان؟

غير أنه شعر أنه مهما سبَّها وسَخِر من صورتها، فإن غضبه هذا شكلٌ من أشكال الخضوع. وقد ترك قاعة الدرس في ازدراء، لم يكن مخلصًا تمامًا وهو يشعر أنه ربما يكمن سرُّ جنسها وراء هاتين العينَين السوداوين اللتين تُلقي رموشُهما الطويلة ظلالًا سريعةً عليهما. لقد أخبر نفسه في مرارة؛ إذ كان يجوب خلال الطرقات، أنها شكلٌ من أشكال جنس النساء في هذا البلد، روحٌ خفاشية تستيقظ على الوعي بنفسها في ظلمة وفي خفية ووحدة، متمهلةً قليلًا، دون حبٍّ أو خطيئة، ومعها حبيبها الوديع، وتتركه لكي تهمس في آذانِ قسٍّ عن تجاوزات بريئة، ووجد غضبه منها متنفسًا في لعناتٍ قاسيةٍ موجهًا إلى حبيبها الذي يُسيء اسمه وصوته وملامحه إلى كبريائه المحبط، ريفي قسسي، له أخٌ يعمل شرطيًّا في دبلن، وأخٌ نادل حانة في «موي كولن». سوف ترفع له النقاب عن عُرْيِ روحِها الخجِل، إلى شخصٍ لم يتعلم سوى إلقاء الطقوس الجامدة، ولن ترفع له هو، قس الخيال الخالد، الذي يحول خبز التجربة اليومي إلى الجسد المضيء لحياة خالدة.

ووحدت مرةً أخرى صورة القربان المقدس المضيئة بين أفكاره المريرة واليائسة، وارتفعت صيحاتها سليمة في ترنيمة شكر.

وصباحنا المحطوم وأغنيتنا الحزينة.
تصَّاعد كلها مع ترنيمة العشاء القدسي.
ألستِ منهكةً من هذه الرغبة الغامرة.

* * *

وفي حين ترفع الأيادي المضحية
القدح المليء إلى حافته،
لا تُحدِّثيني بعد الآن عن تلك الأيام الساحرة.

ونطق بالأبيات من السطور الأولى حتى خضبَت الموسيقى والإيقاعُ ذهنَه، وحوَّلاه إلى انغماس هادئ في الموضوع، ثم كتبها في مشقة لكي يشعر بها أفضل حين يراها، ثم تمدَّد ثانيةً على الوسادة.

وغمر نور الصبح الكون، ولم يكن يُسمع من صوت، ولكنه أدرك أن الحياةَ كلَّها من حوله على وشك الاستيقاظ في ضجيجها العادي وأصواتها الخشنة وصلواتها الناعسة.

وتحوَّل ناحية الحائط مجفلًا من هذه الحياة، مغطيًا رأسه بالملاءة ومحدِّقًا في زهور أوراق الحائط الممزقة العظيمة الذابلة القرمزية. وحاول أن يُدفئ من بهجته الذاوية في وهجها القرمزي، وهو يتخيل ممرًّا ورديًّا يصعد منه إلى السماء مبطنًا كله بالزهور القرمزية. متعب! متعب! كان هو أيضًا متعبًا من الوسائل الحارة.

وطاف به دفءٌ تدريجيٌّ وتعبٌ متخاذل، مارًّا عبر عموده الفقري من رأسه المغطَّى بإحكام، وشعر به يهبط. وابتسم حين رأى نفسه وهو يرقد. سينام حالًا.

لقد كتب فيها شعرًا مرة أخرى بعد عشر سنوات. منذ عشر سنوات، كانت ترتدي وشاحًا مشدودًا حول رأسها، مرسلةً رذاذ شذاها الدافئ في هواء الليل، تدقُّ الأرض الزجاجية بقدمها. لقد كانت العربة الأخيرة، وكأنما عرفت الجياد العجفاء الداكنة ذلك، فأخذت تهزُّ أجراسها في تلك الليلة الصافية تنبيهًا للناس. وكان قاطع التذاكر يتحدث مع السائق ويُومِئان مرارًا على ضوء المصباح الأخضر. ووقفَا على درج العربة، هو على الدرجة العليا وهي على السفلى، وصَعِدت إلى درجته مراتٍ عديدةً وعادَت إلى درجتها ثانيةً، حين كانا يتبادلان الحديث، ووقفت مرةً أو مرتين بجواره في الدرجة العليا بضع لحظاتٍ ناسيةً أن تنزل، ثم تهبط ثانيةً. ما أهمية ذلك الآن؟ عشر سنوات تفصل بين حكمة الطفولة وحماقته الحالية. وماذا لو بعث لها بالأشعار؟ ستقرؤها على الإفطار وسط قرع قشر البيض. حقًّا يا لها من حماقة! سيضحك إخوتها ويحاولون أن يتخاطفوا الورق من أحدهما بأصابعهم القوية الحادة، وسيبسط القسُّ الدمث، عمها، الورقة على طول ذراعه، وهو جالسٌ في مقعده الكبير، ويقرؤها مبتسمًا ويقرظها من حيث الشكل الفني.

كلَّا، كلَّا، هذه حماقة. وحتى إذا أرسل لها الأشعار فلن تُريَها للآخرين. كلَّا، كلَّا، لن تستطيع ذلك.

وبدأ يشعر أنه قد ظلمها. ودفعه إحساسٌ ببراءتها إلى الشفقة عليها، براءة لم يفهمها أبدًا حتى بدأ يتعرف عليها عن طريق الخطيئة، براءةٌ لم تفهمها هي أيضًا حين كانت بريئة أو قبل أن ينزل بها إذلال طبيعتها الغريب أول مرة. وحينئذٍ بدأت روحها أولًا تعيش كما عاشت روحُه حين أخطأ أول مرة، وغمر قلبَه عطفٌ رقيق حين تذكَّر شحوبها الواهن وعينَيها، خاضعةً حزينةً من عار النساء المظلم.

وحين عبرَت روحُه من النشوة إلى الفتور، أين كانت هي؟ قد يكون — بطريقة غامضة من طرق الحياة الروحية — قد تكون روحها في هذه اللحظات نفسها واعيةً لخضوعه لها؟ قد يكون.

وأشعل وهجُ الرغبة روحَه ثانيةً وأشعل كلَّ جسده وأفعمه، لا بد أنها أحسَّت برغبته، وتستيقظ من النوم العاطر، غانيةُ أشعاره الفيلانيلية. وفتحت عينَيها السوداوين وفيهما نظرةُ كلال على عينَيه، واستسلم عريُّها له، مضيئًا دفيئًا عطرًا، لدن الأطراف، وضمه كالسحابة اللامعة، وضمه كالماء، كحياةٍ سيالة، وانسابَت إلى ذهنه حروفُ الكلم السيالة، رموز عنصر الإلغاز، مثل سحابة البخار أو مثل المياه المحيطة بالفضاء.

ألستِ منهكةً من هذه الرغبة الغامرة،
ومن إغواء مَن سقط من الملائكة.
لا تحدِّثيني بعد الآن عن تلك الأيام الساحرة.
* * *
لقد أشلَت عيناكِ أفئدة الرجال نيرانا،
وقد امتلكتِ كل ما فيها من إرادة.
ألست منهكةً من هذه الرغبة الغامرة؟
* * *
ويصعد دخان الثناء من فوق النيران،
ويغطي المحيط من أقصاه إلى أدناه.
لا تحدِّثيني بعد الآن عن تلك الأيام الساحرة.
* * *
وصباحُنا المحطوم وأغنيتُنا الحزينة،
تصَّاعد كلها مع ترنيمة العشاء القدسي.
ألستِ منهكةً من هذه الرغبة الغامرة.
* * *
وفي حين ترفع الأيادي المضحية
القدحَ المليء إلى حافته،
لا تحدِّثيني بعد الآن عن تلك الساحرة.
* * *
وما زلتِ تحيطين نظراتنا المشتاقة
بنظرة كليلة وطرف معطاء.
ألستِ منهكةً من هذه الرغبة الغامرة؟
لا تحدِّثيني بعد الآن عن تلك الأيام الساحرة.

أي طيورٍ كانت؟ وقف على درجات المكتبة ينظر إليها، مرتكزًا في إرهاقٍ على عصاه. كانت تطير هنا وهناك حول طرف أحد المنازع بشارع «مولس ورت». وساعد هواء مساء مارس طيرانها، وأجسادها المظلمة المرتعشة المنطلقة تطير في وضوح في صفحة الماء، كأنما هي قماشٌ ناعمٌ من الزرقة الخافتة الدخانية.

وراقب طيرانها، طيرًا وراء طير، ومضة مظلمة، مروقًا، خفقة أجنحة. وحاول أن يُحصيَها قبل أن تختفيَ أجسادها المنطلقة المرتعشة: ستة، عشرة، أحد عشر. وتساءل عمَّا إذا كانت زوجيةَ العدد أم فرديته، اثنا عشر، ثلاث عشر، فقد أقبل اثنان يمرقان من أعماق السماء، كانت تطير عالية ومنخفضة ولكن في خطوط مستقيمة ومتعرجة على الدوام، تطير دائمًا من الشمال إلى اليمين، تحوم حول معبد من معابد الهواء.

وأنصت إلى صيحاتها، مثل صراخ الفئران وراء ألواح الخشب، صوتٌ حادٌّ مضاعفٌ، ولكن الأصوات كانت طويلةُ وحادة وذات طنين، مخالفة لأزيز الفئران أو السوس، تنطلق في ثلاثة أو أربعة، وتزغرد حين تشقُّ المناقير الطائرة الهواء. كانت صيحاتها حادة واضحة لطيفة، وتنطلق كخيوط نور حريري يتفكك عن ملفه الدوار.

وهدَّأ الصخب الحيواني من مسامعه التي كان تطنُّ دومًا بنشيج والدته ولومها، وهدَّأ مشهد الأجساد المظلمة الواهنة المرتعشة، تنطلق وتخفق وتمرق حول معبد هوائي في السماء الخافتة، من ناظره الذي كان لا يزال عالقًا به صورة وجه أمه.

لماذا يُحملق إلى أعلى من على درجات الرواق، يستمع إلى صيحاتها الحادة المضاعفة، ويراقب طيرانها، النبوءة حسنة أم سيئة؟ وطافَت على ذهنه عبارةٌ من «كورنيليوس أجريبا»، ثم طافت هنا وهناك أفكارٌ لا شكل لها من سويدنبرج عن مراسلات الطيور إلى أمور الفكر، وكفية حصول المعرفة لمخلوقات الهواء وإدراكهم لأوقاتهم وفصولهم؛ لأنهم — على نقيض الإنسان — على طبيعة أمرهم وسجيتها، ولم يُفسدوا هذه الطبيعة بالنظام أو بالفعل.

وقد حملق الإنسان دهورًا ودهورًا إلى أعلى لمراقبة الطيور كما يفعل الآن. وبعث الرواق الذي يرتفع أمامه إلى فكره في غموض بصورة معبد قديم، والعصا التي يستند إليها بعصا متنبِّئ ملتوية. وتحرَّك إحساسٌ بالخوف من المجهول في قرار تعبه، خوف من الرموز والنذير، من الرجل الذي يُشبه البازي والذي يحمل اسمه، ينطلق من أَسْره على أجنحةٍ مصنوعة من خوص الصفصاف، من «ثوث» إله الكُتَّاب، يكتب بقصبة غاب على لوح ويحمل على رأسِه الضيِّق الطيري القمر المتوَّج.

وابتسم حين فكَّر في صورة الإله، فقد جعلَته يفكر في قاضٍ بشعره المستعار وأنفه القاروري، يضع الفواصل في وثيقة يرفعها على امتداد ذراعه، وأدرك أنه لو لم يكن اسم الإله يطابق قسمًا أيرلنديًّا لَمَا أمكنه أن يتذكره. كان ذلك حمقًا، ولكن، أمن أجل تلك الحماقة يوشك الآن أن يترك إلى الأبد موطن الصلاة والبصيرة، الذي وُلد فيه ونظام الحياة الذي نتج عنه؟

وعادَت الطيور ثانيةً بصيحاتها الحادة على أطراف المنزل تطير عبر الهواء الذاوي. أي طيور كانت؟ أعتقد أنها طيور الخطاف وقد عادت من الجنوب. ثم كان عليه أن يرحل؛ لأنها كانت طيورًا تذهب وتجيء على الدوام، ثم تبني دائمًا أعشاشًا غير دائمة تحت أطراف منازل الإنسان، وترحل دائمًا عن الأعشاش التي بنَتها لكي تجول.

احنيا وجهَيكما يا أونا ويا أليل،
أُحملق فيهما كما يُحملق الخطاف
في العش تحت طرف البيت،
قبل أن يجول في المياه الصاخبة.

وانبثَقَت في ذاكرته بهجةٌ رقيقة سيالة مثل صخب مياه دفاقة، وشعر في فؤاده بالهدوء الرقيق السلمي للفضاءات الساكنة، للسماء الذاوية الخافتة فوق المياه، للسكون المحيطي، للخطافات تطير عبر غبشة البحر فوق المياه الدافقة.

وطافَت بهجةٌ رقيقة سيالة خلال الكلمات التي تهبُ فيها الحروف المتحركة الطويلة الرقيقة دون صخب ثم تسقط ثانيةً، منثنية، ثم تتدفق ثانيةً وتهزُّ أبدًا أجراس موجاتها البيضاء، في رنينٍ أخرس وصلصلة خرساء وصيحة غاشية رقيقة خفيضة. وشعر أن النبوءة التي نشدها في الطيور المنطلقة السارية، وفي فضاء السماء الشاحب فوقه قد انبثقت من فؤاده مثل انبثاق الطير من أحد أبراجه، في هدوء وفي خفة.

رمز الرجل أم رمز العزلة؟ ورنَّت الأشعار في آذانِ ذاكرتِه وهي تُشكِّل أمام ناظره المتذكر منظرَ الردهة في ليلة افتتاح المسرح الوطني. كان وحيدًا في جانب البلكون، ينظر من عيونٍ خابيةٍ إلى ثقافة دبلن وهي تجلس على المقاعد، وإلى ملابس التمثيل المبهرجة، والعرائس الآدمية التي تحيط بها الأضواء الباهرة على المسرح. وكان خلفه رجل شرطة ينضح عرقًا، ويبدو كل لحظة وكأنه سيقوم بوظيفته. وملأ القاعةَ المواءُ والأزيز وصيحات السخرية في هتافات حادة من زملائه الطلبة:

– قذف في حق أيرلندا!

– صُنع في ألمانيا.

– كفر.

– لم نَبِع ديننا أبدًا.

– لم تفعل امرأةٌ أيرلندية هذا من قبلُ أبدًا.

– لا نريد كفارًا هواة.

– لا نريد بوذيين جددًا.

وترامى إليه أزيزٌ من النافذة وأدرك أن المصابيح الكهربية قد أُضيئت في قاعة القراءة بالمكتبة. وتحوَّل إلى ردهة الأعمدة وقد أُضيئت الآن إضاءة هادئة، وصَعِد إلى الطابق الأعلى ومرَّ من الحاجز الدوار الدقاق.

كان كرانلي يجلس بالقرب من القواميس، وأمامه على اللوح الخشبي كتابٌ سميك مفتوح على الرسم الأمامي. وانحنى إلى الخلف في مقعده، ضاغطًا أُذُنَه كما يفعل المعترف نحو وجهِ طالب الطب، الذي كان يقرأ له إحدى مسائل الشطرنج من صفحة إحدى الصحف. وجلس ستيفن على يمينه، وأغلق القس الذي يجلس على الجانب الآخر من المنضدة نسخة «اللوح»[٣٠] بدقة غاضبة ونهض.

وتطلَّع كرانلي خلفه في بلادة وغموض، واستمر طالب الطب في قراءته في صوتٍ أكثر رقة:

– البيدق إلى خانة الملك الرابعة.

فقال ستيفن محذِّرًا: أفضل لنا أن نذهب يا ديكسون، فقد ذهب يشكونا.

وطوى ديكسون الجريدة، ونهض في هيبة قائلًا: وعادت قواتنا إلى مقرها سالمة.

فأضاف ستيفن وهو يُشير إلى عنوان كتاب كرانلي الذي كتب عليه «أمراض الثيران»: محملين بالبنادق والماشية.

وبينما كانوا يعبرون صفوف الموائد، قال ستيفن: أودُّ أن أتحدَّث معك يا كرانلي.

ولم يُجِب كرانلي أو يستدِر، ووضع كتابه على المكتب وخرج وقدماه المغطَّتان بالصوف تدقان في فتورٍ على الأرض. وتوقَّف أسفل الدرج وحملق في ذهول إلى ديكسون وردَّد: البيدق إلى خانة الملك الرابعة اللعينة.

---

[٣٠] صحيفة أسبوعية دينية محافظة تصدر في إنجلترا.

فقال ديكسون: كما تريد.

كان صوته هادئًا لا نغمة فيه، وأخلاقه مهذبة، ويرتدي في إصبع من أصابع يده النظيفة السمينة خاتمًا منقوشًا باسمه. وحين كانوا يعبرون الردهة اتجه نحوهم رجلٌ ذو بنية قرمزية. وبدا وجهه غير الحليق يبتسم في سرورٍ تحت قبة قبعته الدقيقة، وسمعوا همهماته، وكانت عيناه كئيبتَين كعينَي القرد.

قال الوجه الشائك القردي: مساء الخير يا سادة.

فقال كرانلي: جوٌّ دافئٌ بالنسبة لشهر مارس. لقد فتحوا النوافذ في الطابق الأعلى.

وابتسم ديكسون وأدار خاتمه، ولوى الوجهُ الأسود ذو التجاعيد القردية فمَه الآدمي في سرورٍ رقيقٍ، وبدأ صوته يهر: جوٌّ بهيج في مارس، بهيجٌ للغاية.

قال ديكسون: هناك آنستان لطيفتان أتعبهما الانتظارُ في الطابق الأعلى يا كابتن.

فابتسم كرانلي وقال في عطف: للكابتن جرام واحد فقط: السير «وولتر سكوت». أليس كذلك يا كابتن؟

فسأل ديكسون: ماذا تقرأ الآن يا كابتن: «عروس لامرمور»؟

فقالت الشفتان المرنتان: إني أحب سكوت القديم، أعتقد أنه كتب أشياء جميلة. ليس هناك من كاتبٍ يُقارَن بسير «وولتر سكوت».

ولوَّح في الهواء في رقة بيده النحيلة المتقلصة البُنِّية ليؤكد مديحه، بينما تخفق رموشه النحيلة السريعة على عينَيه الحزينتَين.

وكان حديثه أشدَّ بعثًا للحزن في قلب ستيفن، لهجة مهذبة، خفيضة ندية مملوءة بالأخطاء. وتساءل وهو يستمع إليه هل حقًّا ما يُشاع عن أن الدم الذي يسري في جسده المتقلص دمٌ أزرق نتج عن حبٍّ بين المحارم؟

كانت أشجار المتنزه مثقلةً بالمطر، والمطار ما يزال يتساقط على الدوام في البحيرة التي تنبسط مثل الدرع. وعبر فيها سربٌ من البجع، وتعكَّرت المياه والشاطئ من مخاطها الأبيض المخضوضر. كانا يتعانقان في رقة، دعاهما إلى ذلك العناق النور الرمادي الممطر، والأشجار المبتلة الصامتة ووجود البحيرة التي تُشبه الدرع، والبجعات. كانَا يتعانقان دون لذة أو عاطفة، وذراعه حول رقبة أخته، وكانت عباءة صوفية رمادية ملفوفة عليها من الكتف حتى الخصر، وكان رأسها محنيًّا في خجلٍ إراديٍّ، وكان شعرُه مرسلًا أحمرَ بُنيًّا، ويداه رقيقتَي التكوين قويَّتَين، ووجهه؟ لم يكن يُرى له وجه. كان وجه الأخ محنيًّا على شعرها الجميل المحمل بالمطر، وكانت اليد المنمشة القوية الرقيقة المهدهدة هي يد دافن.

وعبس في غضبٍ من أفكاره ومن القزم المنكمش الذي بعثها في ذهنه. وقفز إلى ذاكرته مراح والده مع جماعة «البانتري»،[٣١] وأبعدها عن ذهنه وعكف يفكر في قلقٍ على فكرته السابقة مرةً أخرى. لماذا لم يكونا يدَي كرانلي؟ هل آلَته بساطة دافن وبراءته في خفية أكثر؟ وسار عبر الردهة مع ديكسون، مخلفين كرانلي للاستئذان في براعة من القزم.

وعند الأعمدة كان «تمبل» واقفًا وسط مجموعة صغيرة من الطلاب، وصاح واحدٌ منهم: تعالَ يا ديكسون لكي تسمع، إن تمبل في أحسن مزاج.

وأدار «تمبل» عينَيه السوداوَين الغجريَّتَين نحوه، وقال: إنك منافقٌ يا «أوكيف»، وديكسون بشوش، بحق الجحيم، أعتقد أن هذا تعبير أدبي طيب.

وضحك في خبثٍ، وهو ينظر في وجه ستيفن ويردد: بحق الجحيم، إني أحب هذه الصفة، بشوش.

وقال طالبٌ بدين كان يقف تحتهم على الدرج: عُد إلى حكاية العشيقة يا تمبل. نريد أن نسمعها.

فقال تمبل: كان له واحدة، وكان فوق ذلك متزوجًا. وكان جميع القسس معتادين على الغداء هناك. بحق الجحيم، أعتقد أنهم يفعلون ذلك كلهم.

فقال ديكسون: نحن ندعو ذلك «ركوب الحمار لتوفير الجواد».

فقال «أوكيف»: أخبرْنا يا تمبل كم من أرباع الجالونات من البيرة السوداء يحتويها بطنك؟

فقال تمبل في ازدراء واضح: إن روحك المفكرة كلها في هذه العبارة يا أوكيف.

وسار في عرج خفيف حول المجموعة، وتحدَّث إلى ستيفن وسأله: هل علمت أن آل فورستر هم ملوك بلجيكا؟

وأقبل كرانلي من باب مدخل الردهة، وقبعته ملقاة على قذاله، وهو ينظف أسنانه بعناية.

وقال تمبل: وها هو المتفلسف، هل تعلم ذلك عن آل فورستر؟

وصمت انتظارًا للرد، وأزاح كرانلي بذرة تين من بين أسنانه بطرف عود سواكة، وحملق فيها في إمعان.

---

[٣١] جمعيةٌ قومية أيرلندية.

قال تمبل: تنحدر أسرة فورستر من بولدوين الأول ملك الفلاندرز، وكان يُدعى فوريستر، وفوريستر وفورستر هما نفس الاسم. واستقر سليل لأسرة بولدوين الأول، وهو الكابتن فرانسيس فورستر في أيرلندا، وتزوج ابنة آخر عميد لأسرة كلانبراسيل، ثم هناك آل بليك فورستر، وهم فرع آخر.

فردَّد كرانلي وهو ينبش في إصرار مرة أخرى في أسنانه اللامعة المكشوفة: من بولدهيد،[٣٢] ملك الفلاندرز.

وسأل «أوكيف»: من أين لك كل هذه المعلومات التاريخية؟

فقال تمبل وهو يستدير إلى ستيفن: إني أعلم التاريخ لعائلتك أيضًا، هل تعلم ماذا يقول «جيرالدوس كامبرنسس» عن عائلتك؟

فسأل طالب طويل مصدور له عينان سوداوان: أهو سليل بولدوين أيضًا؟

فردَّد كرانلي وهو يمتصُّ فجوة ما بين أسنانه: بولدهيد.

فقال تمبل لستيفن: Pernobilis et pervetusta familia.[٣٣]

وأطلق الطالب البدين الذي يقف تحتهم على الدرج ريحًا خفيفًا، وتحوَّل ديكسون نحوه وقال في صوت رقيق: هل يتكلم أحد الملائكة؟

وتحوَّل كرانلي أيضًا نحوه وقال في حدة، ولكن بدون غضب: جوجنز، أتعلم أنك أكثر الشياطين الذين قابلتهم ناريةً وقذارة.

فأجاب جوجنز في ثبات: لقد قلت ما كنت أفكر فيه. إني لم أُصِب أحدًا بضرر، أليس كذلك؟

فقال ديكسون بدماثة: نأمل ألَّا تكون من ذلك النوع المعروف باسم Paulo Post Futurum.[٣٤]

فقال تمبل وهو يلتفت يمنةً ويسرة: ألم أقل لكم إنه بشوش. ألم أُطلق عليه هذه الصفة؟

فقال المصدور الطويل: أجل قد فعلت ذلك، لسنا أصمَّين. وكان كرانلي لا يزال عابسًا في وجه الطالب البدين الذي يقف تحتهم، ثم دفعه أسفل الدرج في عنف وهو يُطلق خوار ازدراء، وقال له في حدة: ابتعد عن هنا، اذهب أيها النتن، وإنك لنتنٌ حقًّا.

---

[٣٢] معناها «الرأس الأصلع» وهي تورية على كلمة «بولدوين».

[٣٣] أسرة شهيرة جدًّا وعريقة جدًّا.

[٣٤] «سيحدث بعد قليل».

وقفز جوجنز إلى أسفل حتى وصل إلى الرمال، ثم عاد على الفور إلى مكانه في مزاج حسن. والتفت إلى ستيفن وسأله: هل تؤمن بقانون الوراثة؟

فسأله كرانلي وهو يواجهه بتعبير تعجب: أأَنت ثَمِل أو ما أنت أو ماذا تحاول أن تقول؟

فقال تمبل في حماس: إن أكثر العبارات المكتوبة عمقًا هي العبارة التي في آخر كتاب علم الحيوان، إن التوالد هو بداية الموت.

ولمس ستيفن في وجل عند مرفقه، وقال له في لهفة: هل تشعر كم هي عميقة بما أنك شاعر؟

وبسط كرانلي سبابته الطويلة نحوه، وقال للآخرين في ازدراء: انظروا إليه، انظروا إلى أمل أيرلندا!

وضحكوا من كلامه وإشارته. والتفت تمبل نحوه بشجاعة قائلًا:

إنك تسخر مني دائمًا يا كرانلي، إنني أُدرك ذلك، ولكني لا أقلُّ عنك شيئًا بأي حال. هل تدري بماذا أفكر فيك الآن عند مقارنتك بي؟

فقال كرانلي في أدب: يا رجلي العزيز، أتدري أنك لا تقدر، لا تقدر أبدًا على التفكير.

فاستمر تمبل يقول: ولكن أتدري بماذا أفكر فيك وفي نفسي عند المقارنة بيننا؟

وصاح الطالب البدين من على الدرج: علينا بها يا تمبل، قُلْها لنا كلمة كلمة!

والتفت تمبل يمنةً ويسرة وهو يقوم بإشارات واهنة مفاجئة وهو يتحدث، وقال وهو يهزُّ رأسه في يأس: إنني مغفل، إنني كذلك وأنا أعرف، وأعترف أنني كذلك.

وربَّت ديكسون على كتفه بلطف وقال في وداعة: وهذا ما يزيدك شرفًا يا تمبل.

فقال تمبل وهو يشير إلى كرانلي، غير أنه هو مغفل كذلك مثلي، ولكن الفرق أنه لا يعرف ذلك. وهذا هو الفارق الوحيد الذي أراه.

وغطَّت موجةٌ من الضحك على كلماته. ولكنه التفت ثانيةً إلى ستيفن، وقال في لهفة مفاجئة: هذه الكلمة غايةٌ في العجب. إنها العدد الزوجي الإنجليزي الوحيد،[٣٥] أتعلم ذلك؟

فقال ستيفن في غموض: أحقًّا؟

كان يلحظ وجهَ كرانلي ذا الملامح الثابتة وهو يقاسي، وقد أضاءَته الآن ابتسامة اصطبار زائف. لقد مرَّ اللقب الجارح عليه، مثل انصباب الماء القذر على تمثال قديم من

[٣٥] الكلمة الإنجليزية هي Ballocks وتعني أيضًا الخصيتَين.

الحجر، مصطبرًا على المكاره. وإذ كان يلحظه، رآه يرفع قبعته محيِّيًا ويكشف شعره الأسود، الذي يقف عند جبهته متصلبًا مثل التاج الحديدي.

عبرَت ممرَّ المكتبة وانحنَت تجاه ستيفن ردًّا على تحية كرانلي، أهو أيضًا؟ ألم يَجُل احمرارٌ خفيف على وجنة كرانلي؟ أم هل كان ذلك راجعًا إلى كلمات تمبل؟ لقد ذوَى الضوء. لم يَعُد باستطاعته أن يرى.

أهذا يفسِّر صمتَ صديقه الفاتر، وتعليقاته الجارحة، وإدخاله المفاجئ للعبارات الجافة التي كان يحطم بها اعترافات ستيفن الحارة العنيدة؟ وقد غفر ستيفن له بسخاء لأنه وجد نفس الغلظة في نفسه هو أيضًا. وتذكَّر الأمسية التي ترجَّل فيها من على دراجةٍ قديمة مستعارة؛ لكي يصلي إلى الله في إحدى الغابات بالقرب من «مالاهيد». لقد رفع ذراعَيه وتكلَّم في نشوة إلى محور الأشجار المعتم، وهو يعلم أنه يقف على أرض مقدسة وفي ساعة مقدسة. وحين ظهر جنديان عند منحنى الطريق الكئيب قطع صلاته، وأخذ يصفر عاليًا بأحد ألحان التمثيلية الحركية الأخيرة.

وبدأ يضرب طرف عصاته المتآكل على أرضية أحد الأعمدة. ألم يسمعه كرانلي؟ ومع ذلك فبإمكانه أن ينتظر. وانقطع الحديث الدائر حوله لحظة وسُمع حفيف خفيف مرةً أخرى من نافذة الطابق العلوي. ولكن لم يكن من صوت آخر في الهواء، ونامت الخطاطيف التي كان يراقب طيرانها بعيون فاترة.

لقد مرت خلال العتمة. وعلى ذلك فإن الهواء ساكنٌ إلا من حفيف خفيف واحد. وعلى ذلك فقد سكتت الألسنة من حوله عن هذرها. كانت الظلمة تسقط.

الظلمة تساقط من الهواء.

ولعبت بهجة مرتعدة كالمضيف السحري من حوله، برَّاقة كالنور الواهن، ولكن لماذا؟ من أجل مرورها خلال الهواء المعتم أو الشعر بحروفه المتحركة السوداء ورنته العريضة الغنية التي تُشبه رنة العود؟

وسار في بطء ناحية الظلال الأكثر عمقًا عند نهاية الرواق، يضرب الأحجار بعصاه في رفق لكي يُخفي استغراقه في الفكر عن الطلبة الذين غادرهم، وسمح لذهنه أن يستحضر عصر «داولاند» و«بيرد» و«ناش».[٣٦]

---

[٣٦] من شعراء وكُتَّاب العصر الإليزابيتي في إنجلترا.

عيونٌ تتفتح من ظلمات الرغبة، عيون أظلمت شروق الفجر. ما طلاوتها المتراخية إلا رقة مصطنعة، وما تألُّقها إلا تألُّق الرغوة التي تغطِّي بالوعة بلاط الملك ستيورات المهذار. وذاق من خلال لغة الذاكرة الأنبذة المعنبرة، الخفقات الأخيرة للألحان العذبة، الرقصات المزهوة، ورأى بعينَي الذاكرة السيدات المهذبات العطوفات في «كوفنت جاردن»، يتودَّدن من مقاصيرهن بشفاهٍ امتصاصية، وصبايا الحانات ذوات البثور والزوجات الشابات، يستسلمن للغواة يداعبونهن مرات ومرات.

ولم تبعث فيه الصور التي استدعاها لذهنه أيَّ مسرة. كانت صورًا خفيةً ملهبة، ولكن صورتها لم تكن مشتبكة بها. ليست هذه بالطريقة التي يجب أن يفكر بها فيها، بل ليست بالطريقة التي فكر فيها قبل ذلك، ألَا يثقُ ذهنُه بنفسه إذن؟ عباراتٌ قديمة، ليست بالجميلة إلا الجمال الذي يكشف عن المخبوء، مثل بذور التين التي ينزعها كرانلي عن أسنانه اللامعة.

لم تكن بأفكار أو رؤى، رغم أنه يعلم علمًا مبهمًا أن شخصها يتجه إلى المنزل خلال المدينة. وشمَّ جسدها بغموض أولًا ثم بحدة أكثر، وغلَى قلقٌ واعٍ في دمائه. أجل، هو جسدها الذي اشتمه، رائحةٌ جامحة كليلة، الأطراف اللينة التي طافَت موسيقاه عليها في اشتياق، والكتان الخفي اللين الذي يستقطر جسدها عليه العبير والطل.

وزحفت قملةٌ على قذاله، فدسَّ إبهامه وسبَّابته بخفةٍ تحت ياقته المفتوحة وأمسك بها، وضغط على جسدها الرقيق الشائك مثل حبة الأرز بين الإبهام والإصبع برهةً ثم تركها تسقط، وتساءل عما إذا كانت ستموت أم تحيا بعد ذلك. وقفزت إلى ذهنه عبارة غريبة لـ «كورنيليوس آلابيد»، يقول فيها إن القملة التي تنتج عن العرق الآدمي، لم يخلقها الله مع الحيوانات الأخرى في اليوم السادس. ولكن دغدغة جلد عنقه جعلت ذهنه فجًّا متوهجًا، وجعلته حياة جسده السيِّئ الملبس، السيِّئ المطعم، الذي يطؤه القمل، يُغلق جفنَيه في دفعة يأس مفاجئة، ورأى في الظلمة أجسامَ قمل مضيئة تسقط من الهواء، وتستدير غالبًا قبل أن تسقط. أجل، ولم تكن الظلمة ما يسقط من الهواء، بل الضياء.

الضياء يساقط من الهواء.

لم يكن قد تذكَّر شعر «ناش» تذكُّرًا صحيحًا. وكل ما أثارته الكلمة السابقة كانت صورًا زائفة. إن ذهنه يولد الدود، أفكاره قملة تولدت عن عَرَق الكسل.

وعاد مسرعًا على طول الرواق نحو جماعة الطلبة. حسنًا، لتذهب وعليها اللعنة! فلتحب أحد الرياضيِّين النظيفين، يغسل نفسه كل صباح حتى الخاصرة، ولديه شعرٌ أسود على صدره، فلتفعل ذلك.

وكان كرانلي قد تناول تينةً جافة أخرى من المخزن في جيبه، وأخذ يأكلها في بطءٍ وبصوتٍ مسموع، وجلس تمبل على قاعدة العمود، منحنيًا إلى الخلف، وقبعته تغطِّي عينَيه الناعستَين.

وخرج شابٌّ مكتنزٌ من الممر وقد ثبَّت تحت إبطه محفظة جيب جلدية، وسار ناحية الجماعة وهو يضرب البلاط بكعب حذائه، وبالحلقات الحديدية لمظلته الثقيلة، ثم رفع المظلة محييًا وقال موجهًا حديثه للجميع: مساء الخير يا سادة.

وضرب البلاط ثانيةً وابتسم ابتسامةً متكلفة، بينما رأسه يهتز في حركات عصبية خفيفة. وكان الطالب المصدور الطويل و«ديكسون» وأوكيف يتحدثون بالأيرلندية ولم يردوا عليه. فقال وهو يلتفت إلى كرانلي: مساء الخير، خصيصًا لك.

ولوَّح بمظلته تعبيرًا عن ذلك وابتسم ثانيةً في تكلُّف، وردَّ عليه كرانلي الذي كان ما يزال يمضغ التين بحركاتٍ عاليةٍ من فكَّيه: خير؟ أجل إنه مساء خير.

ونظر إليه الطالب المكتنز في جدية، وهزَّ مظلتَه في لطف ولوم، قال: أستطيع أن أُدرك أنك على وشك أن تُدليَ ببعض الملاحظات.

فردَّ كرانلي: «ها» وهو يخرج بما تبقى من نصف التينة الممضوغ، ويهزُّها تجاه فم الطالب بحركة تدل على أنه يجب أن يأكلَها.

ولم يأكلها الطالب المكتنز بل سدر في مزاجه الخاص، وقال في رزانة وهو لا يزال يبتسم في تكلُّف وينخس عبارته بمظلته: هل تقصد ذلك ...؟

وقطع حديثه، وأشار في بلادة إلى لباب التينة الممضوغ، وقال بصوت مرتفع: أعني هذا.

فعاد كرانلي يقول: ها.

فقال الطلب القصير: هل تعني ذلك كحقيقة واقعة أو — فلنقل — مجرد كلام؟

وتحوَّل ديسكون عن جماعته قائلًا: كان جوجنز بانتظارك «يا جلن»، وقد ذهب إلى «أدلفي»، ليبحث عنك وعن «موينيهان».

ثم سأل وهو يُربِّت على المحفظة التي تحت ذراع «جلن»: ماذا عندك هنا؟

فردَّ جلن: أوراق امتحانات، إنني أعقد لهم امتحانات شهرية لأرى ما إذا كانوا يستفيدون من دروسي الخصوصية.

وربَّت هو أيضًا على المحفظة، وسعل في رقة وابتسم.

فقال كرانلي في غلظة: دروس خصوصية! أعتقد أنك تعني الأطفال الحفاة الذين يُدرِّسهم قردٌ لعينٌ مثلك. ليساعدهم الله!

وقضم بقية التينة وألقى بالعنقود بعيدًا.

وقال «جلن» في ودٍّ: إني أدعو الأطفال الصغار لكي يأتوا إليَّ. فردَّد كرانلي بإصرار: قردٌ لعين، قردٌ لعين كافر!

ونهض تمبل وأبعد كرانلي ثم خاطب «جلن» قائلًا: إن العبارة التي قلتها الآن مأخوذة من العهد الجديد عن قول المسيح: أدعو الصغار يأتون إليَّ.

فقال «أوكيف»: عُدْ إلى النوم ثانيةً يا تمبل.

فاستطرد تمبل وهو ما زال يخاطب «جلن»: حسنًا جدًّا إذن. وإذا كان يسوع سيدعو الصغار للذهاب إليه، فلماذا تُرسل بهم الكنيسة جميعًا إلى الجحيم، إن ماتوا دون تعميد؟ لماذا هذا؟

فسأله الطالب المصدور، وهل عُمدت أنت نفسك يا تمبل؟

فقال تمبل وعيناه تجوسان في عينَي «جلن»: ولكن لماذا يرسلون إلى الجحيم، ويسوع يقول إنهم كلهم سيأتون إليه؟

فسعل جلن، وقال في لطف وهو يُمسك بصعوبةٍ الضحكةَ العصبية في صوته، ويهز مظلته عند كل كلمة: إذا كانت الحالة كما تقول، فإني أتساءل تساؤلًا مبرمًا من أين نشأت هذه الحالة؟

فقال تمبل لأن الكنيسة قاسيةٌ مثل جميع الخطاة الكبار.

فقال ديكسون في دماثة: هل أنت أرثوذكسيًّا مثاليًّا في هذه النقطة يا تمبل؟

فردَّ تمبل: ويقول القديس «أوغسطين» الشيء نفسه عن ذهاب الأطفال غير المعمدين إلى الجحيم؛ لأنه كان خاطئًا كبيرًا قاسيًا كذلك.

فقال ديكسون: إنني أنحني لك، ولكن يخامرني إحساسٌ بأن اليمبوس[٣٧] قد وجد من أجل مثل هذه الحالات.

فقال كرانلي في وحشية: لا تناقش معه يا ديكسون، لا تتحدث إليه أو تنظر إليه، بل قُده باللجام إلى منزله كما تفعل بالماعز الثاغية.

وصاح تمبل: اليمبوس! إنه اختراع عظيم أيضًا، مثل الجحيم.

فقال ديكسون: ولكنه خالٍ من المزعجات.

---

[٣٧] الطرف الأقصى من الجحيم، وهو مقام الأرواح التي كانت عادلة من غير المسيحيِّين والأطفال الذين لم يعمدوا.

وتحوَّل مبتسمًا نحو الآخرين وقال: أعتقد أنني أردِّد آراءَ كلِّ الحاضرين بكلامي هذا.

فقال جلن في لهجة حازمة: أجل، في هذه النقطة أيرلندا متحدة.

وضرب الحلقات الحديدية في مظلته على أرض الرواق الحجرية.

قال تمبل: يا للجحيم، إني أستطيع أن أحترم اختراع امرأة الشيطان الرمادية، الجحيم، روماني، مثل جدران الرومان القوية القبيحة، ولكن ما هو اليمبوس؟

وصاح أوكيف: أَعِدْه إلى عربة الأطفال يا كرانلي.

وخطا كرانلي خطوةً واسعة نحو تمبل، ثم توقَّف ودقَّ قدمه، وصاح كأنما يخاطب دجاجة: «هش»!

وابتعد تمبل من أمامه في خفة.

وصاح: أَلَا تعرف ما هو اليمبوس؟ أتعرف ماذا نُسمي مثل هذه الفكرة عندنا في «روسكومون»؟

وصاح كرانلي وهو يصفق بيدَيه: هش، لعنك الله!

فصاح تمبل في ازدراء: لا عيرًا ولا نفيرًا، هذا هو اليمبوس كما أسمِّيه.

فقال كرانلي: أعطني هذه العصا.

وجذب العصا في خشونة من يد ستيفن، وهبط الدرج قافزًا، ولكن تمبل سَمِعه يتجه نحوه فاختفى في العتمة كالحيوان البري، خفيفًا سريع القدمين. وسمعوا حذاء كرانلي الثقيل يطارده في صخب عبر الفناء المربع، ثم عاد متثاقلًا، مهزومًا، وهو يدفع الحصباء عند كل خطوة من خطواته.

كانت خطواته غاضبة، ودفع العصا ثانيةً إلى يد ستيفن بحركة غاضبة مفاجئة. وشعر ستيفن أن لغضبه سببًا آخر، ولكنه تظاهر بالصبر، ولمس ذراعه برفقٍ وقال في هدوء: كرانلي، لقد أخبرتك أنني أريد التحدث إليك ... تعال.

ونظر إليه كرانلي بضع لحظات، ثم سأله: الآن؟

فقال ستيفن: أجل الآن، لا نستطيع الحديث هنا. لنمضِ.

وغادرا الفناء المربع معًا في صمت، وتبعَتهم من درج الممر صيحاتُ الطائر من أغنية سيجفريد تتردد في صفير رقيق. والتفت كرانلي، وصاح بهما ديكسون الذي كان يصفر قائلًا: إلى أين تذهبان؟ ماذا عن تلك اللعبة يا كرانلي؟

وتباحثا عن طريق الصيحات عبر الهواء الساكن عن لعبة بلياردو ستُقام في فندق «أدلفي». وسار ستيفن وحده وخرج إلى هدوء شارع كلوار أمام فندق «مابل». وتوقَّف

منتظرًا في صبر مرةً أخرى، وأثار فيه اسم الفندق وخشبه اللامع الذي لا لون له وواجهته التي لا لون لها، وخزةً كأنما هي نظرة احتقار مؤدب. وأعاد النظر في غضب إلى غرفة الاستقبال المضاء إضاءة خفيفة، حيث تخيَّل الحياة الملساء لطبقة الأشراف في أيرلندا وقد سكنت في هدوء، يفكرون في لجان الجيش ووكلاء الأراضي والفلاحين يحيُّونهم على طول الطرقات في الريف، ويعرفون أسماء أطعمة فرنسية معينة، ويُصدرون الأوامر إلى سائقي العربات في أصوات ريفية عالية النبرات تخترق حُجُبَ لهجاتهم.

كيف يمكنه أن يَصِل إلى ضمائرهم، أو كيف يعرض ظله على خيالات بناتهم قبل أن يتناسل منهن أقاربهم من الأشراف، حتى يُنجبوا جنسًا أقل خسةً من جنسهم؟ وشعر تحت وطأة الغبشة المتزايدة بأفكار ورغبات الجنس الذي ينتمي إليه، تمرق كالخفافيش خلال حواري الريف المظلمة، تحت أشجار تقع على حواف الجداول وقرب المستنقعات المرقشة. كانت إحدى النساء تقف على الباب، حين مر «دافن» في الليل، وقدَّمت له كوبًا من اللبن ثم دعَته إلى فراشها، فقد كان لـ «دافن» عينان وديعتان تنمَّان عن شخص يكتم السر، ولكن لم تدعه عينَا امرأة قط.

وقبضت يدٌ قوية على ذراعه، وقال صوت كرانلي: فلننزع وجودنا من هنا.

وسار جنوبًا في صمت، ثم قال كرانلي: هذا المهذار الأبله تمبل — أتعرف؟ — أُقسم بموسى أنني سأكون السبب في موت هذا الشخص يومًا.

ولكن صوته لم يكن غاضبًا. وتساءل ستيفن هل كان يفكر في تحيَّتها له عند الممر.

واستدار إلى اليسار وسارا كما كانا قبل ذلك. وبعد مدة من الوقت قال ستيفن: لقد تشاجرتُ مشاجرةً عنيفةً هذا المساء يا كرانلي.

فسأل كرانلي: مع أسرتك؟

– مع أمي.

– حول الدين؟

فردَّ ستيفن: أجل.

فسأل كرانلي بعد صمت: ما عمر والدتك؟

فقال ستيفن: ليست عجوزًا، إنها تريدني أن أؤدي طقوس عيد الفصح.

– وهل ستفعل؟

فقال ستيفن: لن أفعل.

فقال كرانلي: ولِم لا؟

فردَّ ستيفن: لن أخدم.[٣٨]

فقال كرانلي في هدوء: لقد قيلت هذه الملاحظة قبل ذلك.

فقال ستيفن في حرارة: وها أنا أقولها الآن بدوري.

وضغط كرانلي ذراع ستيفن قائلًا: على رسلك يا رجلي العزيز. أتعرف أنك رجلٌ لعينٌ سريع الغضب؟

وضحك في عصبية إذ هو يتحدث، وتطلَّع إلى وجه ستيفن بعينين ودودتَين متأثرتَين، وقال: هل تعرف أنك رجل سريع الغضب؟

فقال ستيفن وهو يضحك كذلك: أظن أنني كذلك.

وبدا كما لو أن عقلَيهما اقتربا فجأة بعد أن اغتربا عن أحدهما الآخر في المدة الأخيرة.

وسأل كرانلي: هل تؤمن بالقربان المقدس؟

فقال ستيفن: كلَّا.

– هل تكفر به إذن؟

فردَّ ستيفن: إنني لا أومن به ولا أكفر به.

فقال كرانلي: لكثير من الناس شكوكهم، حتى الدينيِّين منهم، ورغم ذلك فهم يقهرونها أو يُزيحونها. هل شكوكك في هذا المجال قوية جدًّا؟

فردَّ ستيفن: إني لا أريد أن أقهرها.

وأفحم كرانلي برهةً، فتناول تينةً أخرى من جيبه، وكان على وشك أن يأكلَها حين قال ستيفن: لا تفعل أرجوك، إنك لا تستطيع مناقشة هذه المسألة، وفمك مملوء بالتين الممضوغ.

وفحص كرانلي التينة تحت نور مصباح توقَّف تحته، ثم قسمها وألقى بالتينة في غلظة إلى المجاري، وخاطبها في مرقدها هناك قائلًا: اغربي عني أيتها الملعونة إلى جنهم الأبدية.

ثم تناول ذراعَي ستيفن ومضى معه ثانيةً، وقال: ألَا تخشى أن تُردد تلك الكلمات على مسامعك في يوم الحساب؟

فسأله ستيفن: وماذا يقدمون لي في الجانب الآخر؟ أبديةٌ من السعادة في صحبة عميد الدراسات؟

---

[٣٨] هذه العبارة قالها «لوسيفر» (إبليس) عند تمرده وسقوطه.

فقال كرانلي: تذكَّر أن المجد سيكون من نصيبه.

فقال ستيفن في شيء من المرارة: آه، مضيء، لا يُضار، وفوق كل شيء، ماكر.

فقال كرانلي في غير حرارة: أتعلم أنه شيء عجيب، كيف أن عقلك مشبعٌ بالدين الذي تقول إنك تكفر به. هل كنت تؤمن به حين كنت في المدرسة؟ أراهن أنك كنت تؤمن به؟

فردَّ ستيفن: كنت أومن به.

فسأله كرانلي في لطف: وهل كنت أكثر سعادة آنذاك؟ أكثر سعادة مما أنت الآن مثلًا؟

فقال ستيفن: كنت سعيدًا حينًا وغير سعيد حينًا. كنت شخصًا مختلفًا آنذاك.

– كيف كنت شخصًا مختلفًا؟ ماذا تعني بهذه العبارة؟

فقال ستيفن: أعني أنني لم أكن أقرب إلى نفسي مثلما أنا الآن، وكما يجب أن أصبح.

فردَّد كرانلي: لست كما أنت الآن، ولست كما يجب أن تصبح، دَعْني أسألك سؤالًا، أتحب أمك؟

فهزَّ ستيفن رأسه في بطء، وقال: لست أدري ماذا تعني بذلك؟

فسأل كرانلي: ألم تُحب أحدًا على الإطلاق؟

– أتعني من النساء؟

فقال كرانلي في لهجة أكثر برودًا: إنني لا أتحدث عن ذلك، إنما أسألك ألم تشعر بحب تجاه أي شخص أو أي شيء؟

وسار ستيفن إلى جانب صديقه، وهو يتطلع في كآبة إلى الطريق.

وقال أخيرًا: لقد حاولت أن أحب الله. ويبدو الآن أنني قد فشلت، إن ذلك صعبٌ جدًّا. لقد حاولت أن أوحد إرادتي مع إرادة الله لحظةً بلحظة، ولم أفشل دائمًا في هذا الجانب، وربما استطعت أن أستمر في ذلك …

وقاطعه كرانلي بالسؤال: أكانت أمك سعيدة في حياتها؟

فقال ستيفن: وأنَّى لي أن أعرف.

– كم طفلًا لديها؟

فردَّ ستيفن: تسعة أو عشرة، مات بعضهم.

– وهل كان والدك …

وقطع كرانلي حديثه برهة ثم قال: لا أود أن أنبش في شئونك العائلية، ولكن هل كان والدك ما تدعوه ميسور الحال؟ أعني، حين كنت طفلًا؟

فقال ستيفن: أجل.

فسأل كرانلي بعد صمت: وماذا كان يعمل؟

وبدأ ستيفن يحصي بذلاقةٍ أعمال والده.

طالب طب، ضاربٌ بالمجداف، مغنِّي «تينور»، ممثلٌ هاوٍ، سياسيٌّ فصيح، مالك أرض صغير، مستثمرٌ صغير، سكِّير، رفيقٌ طيب، قاصُّ حكايات، سكرتير فلان، موظفٌ في معمل تقطير، جامع ضرائب، مفلس، والآن مشيد بماضيه.

وضحك كرانلي وهو يشدِّد قبضته على ذراع ستيفن، وقال: معمل التقطير وظيفةٌ حسنة.

فسأل ستيفن: أهناك شيءٌ آخر تريد معرفته؟

– هل ظروفك حسنة في الوقت الحاضر؟

فسأل ستيفن في فتور: هل يبدو عليَّ ذلك؟

فاستطرد كرانلي متأملًا: إذن فأنت قد وُلدت وفي فمك ملعقة من ذهب.

وقال هذه العبارة في اتساع وصوت مرتفع كعادته دائمًا عند استخدام الأساليب الفنية، كأنما يودُّ لسامعه أن يفهم أنه يستخدمها دون اقتناع.

ثم قال: لا بد أن والدتك قد مرَّت بظروفٍ قاسية. ألَا تحاول أن تُنقذها من معاناة أكثر حتى ولو ... أو هل تقبل ذلك؟

فقال ستيفن: لو استطعت، فذلك لن يكلفني إلا أقل المشقات.

قال كرانلي: إذن افعل ما تريده منك، وماذا يعني ذلك بالنسبة لك، إنك لا تؤمن به، وهو شيءٌ شكليٌّ ليس إلا، ولسوف تُريح قلبها.

وتوقَّف عن الكلام وبقيَ صامتًا حين لم يردَّ ستيفن، ثم قال كأنما ينطق ما يتردد في فكره.

– مهما كان أي شيء في هذا العالم النفاية القذر غير مؤكد، فإن حب الأم ليس كذلك، الأم تجلب ابنها إلى الدنيا بعد أن تحمله في جوفها. ماذا نعلم عما تشعر به؟ ولكن مهما كان ما تشعر به فلا بد أن يكون حقيقيًّا على أقل تقدير. لا بد من ذلك، ما هي أفكارنا ومطامحنا؟ هراء، أفكار! حتى هذا التيس الثاغي اللعين «تمبل» لديه أفكار، و«ماكَّان» لديه أفكارٌ أيضًا. كلُّ غبي أحمق يذرع الطرقات يظن أن لديه أفكارًا.

فقال ستيفن في عدمِ اكتراثٍ مفتعل، بعد أن أنصت إلى المعنى الذي يختفي وراء حديث صديقه: إن باسكال — إن لم تخني الذاكرة — لم يكن يسمح لأمه أن تُقبِّله؛ لأنه كان يخشى الاتصال بجنسها.

فقال كرانلي: كان «باسكال» خنزيرًا.

فقال ستيفن: أعتقد أن «الويسيوس جونزاجا» كان فيه هذا الطبع نفسه.

فقال كرانلي: إذن يكون هو الآخر خنزيرًا.

فاعترض ستيفن: ولكن الكنيسة تدعوه قديسًا.

فقال كرانلي في بلادة وغلظة: لا يهمني ذرة واحدة ما يقوله عنه أي شخص. إني أدعوه خنزيرًا.

واستطرد ستيفن وهو يعدُّ الكلمات في ذهنه في دقة.

– ويبدو كذلك أن يسوع قد عامل أمَّه في العلن بحفاوة قليلة، ولكن «سواريث» وهو لاهوتي جزويتي وسيد إسباني قد اعتذر عنه.

فسأل كرانلي: هل خطرَت لك فكرة أن يسوع لم يكن حقًّا ما كان يتظاهر به؟

فردَّ ستيفن: أول شخص خطرت له هذه الفكرة، هو يسوع نفسه.

فقال كرانلي وهو يُخشن من كلامه: أعني هل خطرَت لك فكرة أنه كان نفسه منافقًا واعيًا، «ضريحًا خاويًا» كما كان يرمي يهود عصره؟ أو كي أوضح لك الفكرة، أنه كان دجالًا؟

فردَّ ستيفن: لم تخطر لي هذه الفكرة مطلقًا، ولكني أتلهف على معرفة إذا كنت تحاول أن تجعل مني مهتديًا، أو تجعل من نفسك مارقًا؟

والتفت إلى وجه صديقه ورأى فيه ابتسامةً فجة، جاهد بقوة إرادته لكي يجعل منها شيئًا ذا معنى. وسأل كرانلي فجأةً في لهجة بسيطة مرهفة: اصدقني، هل صدمك ما قلته لك؟

فقال ستيفن: إلى حدٍّ ما.

وألحَّ كرانلي في اللهجة نفسها: ولماذا صُدمت إذا كنت تشعر شعورًا مؤكدًا أن ديننا زائف، وأن يسوع لم يكن ابن الله؟

فقال ستيفن: إني غير متأكد تمامًا، إنه أقرب إلى أن يكون ابن الله عن أن يكون ابن ماري.

فسأل كرانلي: ولأجل هذا لن تتناول القربان المقدس؛ لأنك غير واثق من هذا أيضًا؛ لأنك تشعر أن القربان كذلك قد يكون دمَ وجسدَ ابن الله، وليس مجرد رقاقة من الخبز؟ ولأنك تخشى أن يكون الأمر كذلك؟

فقال ستيفن في هدوء: أجل، إني أشعر بذلك وأخشاه أيضًا.

فقال كرانلي: فهمت.

وأعاد ستيفن فتْحَ باب المناقشة على الفور، وقد أُخذ بلهجة صديقه الجازمة، وقال: إني أخشى أشياءَ كثيرةً: الكلاب والجياد والأسلحة النارية والبحر والعواصف الرعدية، والآلات، وطرقات الريف في الليل.

– ولكن لماذا تخشى قطعةً من الخبز؟

فقال ستيفن: إني أتصور أن هناك شيئًا من الضغينة يكمن خلف الأشياء التي أقول إني أخشاها.

فسأل كرانلي: أتخشى إذن أن يُرديَك إله الروم الكاثوليك صريعًا، ويلعنك إذا ارتكبت خطيئةَ تدنيس المقدسات؟

فقال ستيفن: يستطيع إله الروم الكاثوليك أن يفعل ذلك الآن. إني أخشى أكثر من ذلك التفاعل الكيميائي الذي يمكن أن يحدث في روحي، نتيجة خضوعٍ زائفٍ لرمزٍ يتجمع خلفه عشرون قرنًا من السلطة والتبجيل.

فسأل كرانلي: وهل ترتكب تحت ظروف الخطر العظيم، هذا التدنيس المعيب للمقدسات؟ مثلًا، إذا كنت تعيش في عصور العقاب؟

فردَّ ستيفن: لا يمكنني أن أُبرِّر الماضي، ربما كنت أفعل.

فقال كرانلي: إذن فأنت لا تنوي أن تُصبح بروتستانتيًّا؟

فردَّ ستيفن: لقد قلت إنني فقدتُ إيماني، ولم أقل إنني فقدتُ احترامي لنفسي، أي حرية تكون هذه، أن أهجر عبثًا منطقيًّا متماسكًا، وأقبل عبثًا غير منطقي مفكك؟

كانا قد وصلا إلى مجلس «بمبروك» البلدي. وهدَّأت الأشجار والأنوار المتناثرة في الفيلات من فكرهما؛ إذ كانا يسيران ببطء على طول الطرقات، وبدَا جو الثراء والراحة المنتشر حولهما يُهدهد من حاجتهما. والتمع نورٌ في نافذة مطبخ وراء سور من نبات الغار، وسمعا صوتَ خادمةٍ تغنِّي وهي تشحذ السكاكين. وكانت تغني في نغماتٍ قصيرةٍ متكسرةٍ:

روزي أوجرادي.

وتوقَّف كرانلي ليستمع قائلًا: Mulier Cantat.[٣٩]

ولمس الجمال الناعم للكلمة اللاتينية ظلمةَ المساء لمسةً ساحرة، لمسة أشد نعومة وأكثر إغراء من لمسة الموسيقى أو لمسة يد امرأة. لقد خمد صراعُ ذهنَيهما. وعبرت صورة امرأة

[٣٩] «امرأة تغني».

على الهيئة التي تظهر بها في طقوس الكنيسة الدينية خلال الظلمة، صورة مكسوة بثياب بيضاء، صغيرة نحيلة كالصبي، وذات نطاق متهدل. وارتفع صوتها واهنًا عاليًا كصوت الصبي، يغني وسط جوقة بعيدة الكلمات الأولى للشخصية النسائية، يخترق جهامه أول ترنيم للعاطفة وصخبها: et tu Cum Jesu Calilaeo.[٤٠]

واهتزَّت الأفئدة كلها والتفتت إلى صوتها المضيء كالنجم الشاب، والتمع في وضوح أكثر حين ترنَّم الصوت باللهجة الحادة، ووهن أكثر حين مات الإيقاع.

وتوقف الغناء وسارا معًا، وكرانلي يردِّد نهاية اللازمة في إيقاعٍ جد مشدد:

وحين نكون قد تزوجنا،
ما أشد ما سنكون سعداء.
فإني أحبُّ روزي أوجرادي الحلوة،
وروزي أوجرادي تحبُّني.

قال: هذا شعر صحيح، به حبٌّ حقيقيٌّ.

ونظر جانبًا إلى ستيفن بابتسامة غريبة، وقال: هل تعتبر هذا شعرًا؟ أو هل تعرف ماذا تعني هذه الكلمات؟

فقال ستيفن: أريد أن أرى روزي أولًا.

فقال كرانلي: من السهل العثور عليها.

كانت قبعته قد هبطت على جبهته، وأعادها إلى الوراء، ورأى ستيفن وجهَه الشاحب في ظل الأشجار تحيط به الظلمة، وعينَيه الكبيرتين السوداوين. أجل، إن وجهه وسيمٌ وجسده قوي صلب. لقد تحدَّث عن حب الأم. كان يشعر وقتها بمعاناة النساء وضعف أجسادهن وأرواحهن، وكان مستعدًّا أن يحميهنَّ بذراعه القوية الجامدة، وأن يُطوِّع فكرَه لهن.

هروبًا إذن، لقد حان أوان الرحيل. وتحدَّث صوتٌ رقيق إلى قلب ستيفن الوحيد، طالبًا منه الرحيل ومنبئًا إياه أن صداقته على وشك الانتهاء. أجل، سيرحل، لا يمكنه المجاهدة ضد آخر. إنه يعرف نصيبه.

قال: ربما رحلت إلى الخارج.

فسأل ستيفن: إلى أين؟

---

[٤٠] «وأنت كنت مع يسوع الجليلي».

فقال ستيفن: إلى أي مكان أستطيع الرحيل إليه.

قال كرانلي: أجل، قد يكون من الصعب عليك الحياة هنا الآن، ولكن أهذا ما يحملك على الرحيل؟

فردَّ ستيفن: يجب أن أرحل.

فاستطرد كرانلي: لأنك لا حاجة بك أن ترى نفسك مغلوبًا على أمرك إن لم تشأ أن ترحل، أو كافرًا أو خارجًا على القانون، هناك الكثير من المؤمنين يفكرون على طريقتك. أيدهشك هذا؟ ليست الكنيسة هذا المبنى الحجري ولا القسس وعقائدهم الصارمة، إنها مجموع من ينشأ تحت ظلها. إني لا أعرف ماذا تريد أن تفعل في هذه الدنيا، أهو ما سبق أن أخبرتني به تلك الليلة، حين كنَّا نقف خارج محطة هاركورت ستريت؟

قال ستيفن وهو يبتسم على الرغم منه من طريقة كرانلي في تذكُّر الأفكار فيما يتصل بالأماكن: أجل، الليلة التي قضيت فيها نصف ساعة تتصارع مع دوهرتي فيما يختص بأقصر طريق من «ساليجاب» إلى «لاراس».

قال كرانلي في ازدراء هادئ: أخرق! ماذا يعرف عن الطريق من ساليجاب إلى لاراس؟ أو ماذا يعرف عن أي شيء من هذه الأمور، يا لَرأسه من وعاء أخرق!

وانفجر في ضحكة عالية طويلة.

قال ستيفن: حسنًا؟ هل تذكر البقية؟

قال كرانلي: بقية ما قلته؟ أجل أذكره. تكشف نمطًا للحياة أو للفن تستطيع روحك بواسطته التعبير عن نفسها في حرية غير مقيدة.

ورفع ستيفن قبعتَه موافقًا.

وردَّد كرانلي: حرية! ولكنك لست حرًّا بعدُ إلى حدٍّ أن ترتكب خرقًا للمقدسات. أخبرني هل تسرق؟

فقال ستيفن: أفضل لي أن أشحذ قبل ذلك.

– فإذا لم تحصل على شيء، هل تسرق؟

فأجاب ستيفن: أنت تريدني أن أعترف أن حقوق الملكية هي حقوق مؤقتة، وأن السرقة لا تصبح غير قانونية في ظروف معينة. قد يتصرف كلُّ شخص وفقًا لهذه العقيدة؛ ولذلك لن أردَّ عليك بهذا الجواب. وهذا ينطبق على اللاهوتي الجزويتي «خوان ماريانا دي تالافيرا»، الذي يشرح لك أيضًا الظروف التي تدعوك لقتل الملك قانونيًّا، وعمَّا إذا كان من الأفضل لك أن تُناوله السم في قدح، أو تلطخ به رداءه أو سرج جواده. اسألني بدلًا من

ذلك هل أدع الآخرين يسرقونني، أو هل أطبق عليهم إن فعلوا بي ذلك ما أعتقد أن يُدعى بالقصاص الدنيوي؟

– وهل تفعل ذلك؟

فقال ستيفن: أعتقد أن ذلك يؤلمني بالقدر نفسه الذي يؤلمني به أن يسرقوني.

فقال كرانلي: فهمت.

وأخرج عود ثقاب وأخذ ينظف به فجوةً بين سنَّين من أسنانه، ثم قال بعدم اكتراث: أخبرني مثلًا، هل تفض عذرية فتاة؟

فقال ستيفن في أدب: عذرًا، أليس هذا هو مطمح أكثر الشبان المهذبين؟

قال كرانلي: ما هي وجهة نظرك إذن؟

وأثارت عبارتُه الأخيرة بما فيها من فتورٍ للهمة ورائحة حريفة تُماثل دخان الفحم النباتي، ذهنَ ستيفن الذي بدا كما لو يعكف على دخانه.

قال: اسمع يا كرانلي، لقد سألتني ماذا أفعل وما لا أفعل، سأُخبرك ما سأفعل وما لن أفعل. إنني لن أخدم شيئًا لم أَعُد أومن به سواء كان ذلك منزلي، أو بلدي أو كنيستي، وسأحاول أن أُعبِّر عن نفسي في الحياة أو في الفن على أكثر الأشكال حريةً وكمالًا، مستخدمًا للدفاع عن نفسي الأسلحة الوحيدة، التي أسمح لنفسي باستخدامها: الصمت، المنفى، الدهاء.

وقبض كرانلي على ذراعه وأداره جانبًا، كأنما يقوده خلفًا ناحية «ليزون بارك». وضحك فيما يُشبه الخبث وهو يضغط ذراع ستيفن في ودِّ الشخص الأكبر سنًّا.

قال: مقدرة حقًّا! أهذا أنت؟ أيها الشاعر المسكين، أنت!

قال ستيفن وقد أثارَته لمستُه: لقد جعلتني أعترف لك كما اعترفت لك بكثير من الأشياء، أليس كذلك؟

فقال كرانلي وهو لا يزال على مرحه: أجل يا صغيري.

– لقد جعلتني أعترف لك بمخاوفي، ولكني سأُخبرك أيضًا عمَّا لا أخافه.

إني لا أخشى أن أُصبح وحيدًا أو أن أزدريَ أو أهجر ما يجب عليَّ أن أهجرَه، كما لا أخشى أن أرتكب خطأً، ولو كان خطأً كبيرًا، خطأً يدوم العمر كله، وربما كان دوامه دوام الأبدية أيضًا.

وأبطأ كرانلي من خطواته وقد عاد رزينًا ثانيةً، وقال: وحيدًا، وحيدًا تمامًا، إنك لا تخشى ذلك. وهل تدري معنى هذه الكلمة؟ لن تكون بعيدًا عن كل الآخرين فقط، ولكن لن يكون لك ولا صديق واحد.

فقال ستيفن: سوف أركب هذه المخاطرة.

فقال كرانلي: ولا يكون لك صديقٌ واحد ممن هم أكثر من أصدقاء، أكثر من أنبل وأصدق أصدقاء لدى أيِّ إنسان.

وبدَت كلماته كما لو تضرب وترًا عميقًا في طبيعته. هل كان يتحدث عن نفسه، كما كان أو كما رغب أن يكون؟ وراقب ستيفن وجهه لحظات في صمت. كان يغمره حزنٌ بارد. لقد تحدَّث عن نفسه، عن وحدته التي يخافها. وسأله ستيفن أخيرًا: عمَّن تتحدث؟

ولم يُجِب كرانلي.

٢٠ مارس

حديث طويل مع كرانلي حول موضوعٍ تمرديٍّ، هو بأخلاقه العالية، وأنا مرنٌ ودمثٌ. هاجمني حول حب المرء لأمه. أحاول تصور أمه: لا أستطيع، أخبرني مرة، في لحظة اندفاع، أن أباه كان في الواحدة والستين من عمره حين وُلد. أستطيع أن أراه، نموذج الفلاح القوي، في رداء رمادي، الأقدام المستديرة واللحية الخشنة الشهباء، ربما يواظب على حضور مصارعة الديكة، يدفع مستحقاته بانتظام ولكن ليس بوفرة، إلى الأب «دواير» في «لاراس».

يتحدث أحيانًا إلى الفتيات بعد هبوط الليل، ولكن أمه؟ صغيرة جدًّا أو عجوز جدًّا؟ مرجحٌ ألَّا تكون الأولى؛ لأنه إذا كان الأمر كذلك لما تحدَّث كرانلي بهذا الحديث، عجوزٌ إذن، ربما، ومهملة. ومن هنا يئس كرانلي الروحي، صبي الخصر الواهن.

٢١ مارس، صباحًا

فكرت في هذا الفراش ليلة البارحة ولكنني كنت كسلًا وحرًّا لدرجة لم أستطع الإضافة إليها. أجل، حرًّا، الخصر الواهن خصر إليزابيت وزخاري. وعندئذٍ يكون البشير، مقطع: يأكل أساسًا بطن لحم الخنزير وتينًا جافًّا. اقرأ عن الجراد وعسل النحل البري، وأيضًا حين أفكر فيه أرى دائمًا رأسًا حادًّا مفصولًا، وقناع الموت كأنما هو محفورٌ على ستارة رمادية أو شجرة لبلاب. يسمون ذلك في الأغنام قطع الرأس. يحيرني الآن القديس يوحنا عند البوابة اللاتينية. من أرى؟ مبشر مقطوع الرأس يحاول أن يلتقط أحد الأقفال.

٢١ مارس، ليلًا

حُر، حر الروح وحر الخيال، فليدفن الموتى. أجل، وليتزوج الموتى الموتى.

٢٢ مارس

مع لينش، نتبع ممرضة مستشفى مكتنزة، فكرة لينش، أكره ذلك، كلبَا صيدٍ أعجفان جائعان يسيران خلف بقرة.

٢٣ مارس

لم أرَها منذ تلك الليلة. مريضة؟ ربما تجلس أمام النار ووشاح الأم حول كتفَيها، ولكنها ليست كدرة. طبقٌ لذيذٌ من الثريد؟ ألَا تريد الآن؟

٢٤ مارس

بدأتُ مناقشة مع والدتي. الموضوع: العذراء المقدسة مريم. يمنعني جنسي وصغري، ولكي أهرب، عقدت روابط بين يسوع ووالدي في مقابل الروابط الموجودة بين مريم وابنها. قلت إن الدين ليس مستشفى للرقاد، الأم مهتمة، قالت إن لي عقلًا غريبًا وقد قرأت أكثر من اللازم. ليس حقًّا، لقد قرأت قليلًا وفهمت أقل، ثم قالت إنني سوف أعود إلى الإيمان لأن لي عقلًا قلقًا. وهذا يعني أن أترك الكنيسة من باب الخطيئة الخلفي وأعود إليها عن طريق نافذة التوبة، لا أستطيع أن أتوب، أخبرتُها بذلك وطلبت منها ستة بنسات، أعطتني ثلاثة بنسات.

ثم ذهبت إلى الكلية. منازعة أخرى مع «جينزي» ذي الرأس الصغير المستدير والعينَين اللئيمتَين، وهذه المرة حول «برونو» و«نولان». بدأت بالإيطالية وانتهت بالإنجليزية المهجنة،[٤١] قال إن برونو كان هرطاقًا فظيعًا. قلت إنه أُحرق بطريقة فظيعة. وافق على ذلك في شيء من الأسف، ثم أعطاني وصفه لما يسمِّيه Risotta alla bergamasca،[٤٢] حين ينطق حرف الـ o اللين يمدُّ شفتَيه الغليظتين الحسيتَين، كأنما يقبِّل الحرف المتحرك: أيفعل؟ وهل يستطيع التوبة؟ أجل، يستطيع، ويبكي دمعتي لؤم مستديرتين، دمعة من كل عين.

---

[٤١] الإنجليزية الهجين وهي الإنجليزية مختلطة بكلمات من الصينية والبرتغالية والملايوية وغيرها.

[٤٢] الأرز على طريقة «برجامو» الإيطالية.

عند عبور حديقة ستيفن، أي الحديقة التي اعتدتُ على التريض فيها، تذكرتُ أن قومَه وليسوا قومي هم الذين ابتكروا ما دعاه كرانلي الليلة الماضية ديننا. أربعةٌ منهم، أربعة منهم جنود فرقة المشاة السابعة والتسعين، جلسوا أسفل الصليب وقذفوا النرد ليقترعوا على معطف المصلوب.

ذهبت إلى المكتبة، حاولت قراءة ثلاث مجلات عبثًا. لم تخرج بعد. هل انزعجت؟ علامَ؟ إنها لن تخرج ثانيةً أبدًا.

قال «بليك»:

أتساءل إذا كان وليام بوند سيموت.

فإنه مريضٌ جدًّا.

وا أسفاه يا وليام المسكين!

كنت ذات مرة أمام المنظار المقرب في «الروتندا»، وكانت هناك صورُ رءوس كبيرة في طرفها. وكان منها رأس «وليام إيوارت جلادستون»، وكان قد مات توًّا أيامها. وعزفت الأوركسترا: «آه يا ويبي، لقد افتقدناك».

أمة من الأجلاف.

٢٥ مارس، صباحًا

ليلٌ مزعج الأحلام، أريد أن أُزيحَها على صدري. صالة عرض طويلة متعرجة. تصعد من الأرض أعمدة الأبخرة السوداء، مليئة بصور الملوك الخرافيِّين، مقامة بالأحجار، وأيديهم مضمومة على رُكَبهم علامة على التعب وعيونهم مسودة، فإن أخطأ الإنسان تترى أمامهم إلى الأبد على شكل أبخرة سوداء.

واقتربت شخوصٌ غريبة كأنما تقترب من كهف، ليسوا في طول الرجال ولا يبدو على أحدهم أنه يقف على مبعدةٍ ما من الآخر. وجوههم فسفورية بها خطوط أكثر إظلامًا، ينظرون نحوي وتبدو عيونهم وكأنما تسألني شيئًا. إنهم لا يتكلمون.

٣٠ مارس

كان كرانلي هذا المساء في ردهة المكتبة، يعرض مسألة على «دايكسون» وأخيها. أمٌّ تركَت ابنتَها تسقط في النيل. ما زال يدقُّ على وتر الأم، وأمسك تمساحٌ بالابنة، وطلبت الأمُّ استعادتَها، وقال التمساح إنه يوافق إذا أخبرته ماذا سيفعل بالابنة، أسيأكلها أم لن يأكلَها.

لو كان «ليبدوس» لقال عن هذه العقلية إنها حقًّا نتاج وحلنا بفعل شمسنا وعقليتي؟ أليست هي كذلك أيضًا؟ إذن إلى وحل النيل بها!

١ أبريل

أعارض هذه العبارة الأخيرة.

٢ أبريل

رأيتها تشرب الشاي وتأكل الكعك في محل «جونستون وموني وأدبرين» أو بالأحرى، رآها لينش الحاد البصر ونحن نمر. أخبرني أن الأخ دعا كرانلي إلى هناك أيضًا، هل أحضر تمساحه معه؟ أهو الآن نجم الحفل؟ حسنًا، لقد كشفت، أؤكد ذلك، يلمع في هدوء خلف مكيال نخالة «ويكلو».

٣ أبريل

قابلت «دافن» عند محل السيجار المواجه لكنيسة «فندلاتر». كان يرتدي قميصًا أسود ويطوح عصا في يده. سألني إن كنت حقًّا سأرحل إلى الخارج، ولماذا أخبرته أن أقصر طريق إلى «تارا» هو «هوليهيد». وعندها حضر والدي. تعارف. الوالد مؤدب وحذر. سأل «دافن» إن كان له أن يقدِّم بعض المنعشات، واعتذر «دافن»، إذ كان على موعد، وقال لي والدي حين خرجنا إن له عينًا طيبة شريفة. سألني لماذا لم ألتحق بنادي التجديف. تظاهرتُ بأنني سأفكر في الأمر. أخبرني بعد ذلك كيف حطم فؤاده «بنفيذر» يريدني أن أقرأ في القانون، يقول إنني خلقت من أجل ذلك، مزيدٌ من الوحل، مزيدٌ من التماسيح.

٥ أبريل

ربيع جامح، سحبٌ مندفعة. آه أيتها الحياة! جدول غامض من المستنقعات الدوارة حيث تُلقي أشجار التفاح بزهورها الرقيقة. أعين الفتيات بين الأوراق، فتياتٌ يتظاهرنَ بالاحتشام ويخاشنَّ في التصرف، كلهن بيضاوات أو خمريات.

ليس بينهن سمراوات. إنهن يتودَّدن أفضل. ها.

٦ أبريل

لا بد أنها تتذكر الماضي. يقول لينش إن كل النساء يفعلن ذلك. إذن فهي تذكر زمن طفولتها وطفولتي، إذا كنت طفلًا يومًا من الأيام. الماضي مدفونٌ في الحاضر والحاضر لا يحيا إلا لأنه يجلب المستقبل. إذا كان لينش على حقٍّ فإن تماثيل النساء لا بد أن تكون مكسوة بالجوخ كلها، وإحدى يدَي المرأة تتحسس في أسف أعضاءها الخلفية.

٦ أبريل، بعد ذلك

يتذكر «ميشيل روبارتس» الجمال المنسي، وحين يضمُّها بين ذراعَيه فإنه يضمُّ الجمال الذي ذوَى منذ مدة طويلة من الدنيا، ليس هذا، ليس هذا على الإطلاق. أريد أن أضمَّ بين ذراعي الجمالَ الذي لم يأتِ بعدُ إلى الدنيا.

١٠ أبريل

يبدو صوت الحوافز على الطريق، في خفوت، وتحت ستار الليل الثقيل، خلال سكون المدينة التي تحوَّلت من الأحلام إلى النور بلا أحلام، كحبيبٍ متعبٍ لا تهزُّه المداعبات. لم تصبح على هذه الدرجة من الخفوت حين اقتربَت من الجسر. وفي لحظة، حين كانت تمر على النوافذ المظلمة، انقطع الصمت فجأةً كأنما يشقُّه أحدُ السهام. يسمع صوتها الآن بعيدًا، حوافز تضيء وسط الليل الثقيل كالجواهر، مسرعًا فيما وراء الحقول النائمة، إلى أية نهاية للرحلة؟ أي غاية؟ وماذا تحمل من أنباء؟

١١ أبريل

أقرأ ما كتبتُه ليلة البارحة. كلماتٌ غامضةٌ لعاطفة غامضة. هل ستحبُّها؟ أعتقد ذلك، إذن لا بد أن أحبَّها أنا أيضًا.

١٣ أبريل

كلمة «الموصِّل» هذه ما زالت عالقةً في ذهني فترةً طويلة. كشفتُ عنها في القاموس ووجدتها إنجليزية، وإنجليزية صرفة قديمة أصيلة أيضًا، اللعنة على عميد الدراسات وقمعه! لماذا أتى إلى هنا؟ ليُعلمنا لغته أم ليتعلمها منا؟ عليه اللعنة بطريقة أو بأخرى!

١٤ أبريل

عاد «جون ألفونسون ميليرنان» توًّا من غرب أيرلندا. طلب ذكر ذلك في الصحف الأوروبية والآسيوية. أخبرنا أنه قابل عجوزًا هناك في كوخٍ جبليٍّ. رجل عجوز ذو عينَين حمراوَين وغليون قصير. رجل عجوز يتحدث الأيرلندية. و«ميليرنان» يتحدث الأيرلندية. إذن فالرجل العجوز وميليرنان يتحدثان الإنجليزية. تحدث إليه «ميليرنان» عن الكون والنجوم. جلس العجوز وأنصت ودخَّن وبصق، ثم قال: آه، لا بد أن هناك مخلوقاتٍ فظيعةً غريبة عند الطرف الأقصى من العالم.

إني أخافه. أخاف عينَيه المتحجرتَين ذواتي الحواف الحمراء. لا بد أن أتصارع معه طوال هذه الليلة حتى يطلعَ النهار، حتى يموت، أموت أنا أو يموت هو، أقبض على حلقه القوي إلى أن … إلى أن ماذا؟ إلى أن يستسلم لي؟ كلَّا. لا أريد إنزال الضرر بأحد.

١٥ أبريل

قابلتها اليوم مصادفةً في طريق «جرافتون». حملنا الزحام وجهًا لوجه. توقَّف كلانا. سألتني لماذا لا أحضر إليهم، وقالت إنها سمعت كثيرًا من الحكايات عني. كان هذا كسبًا للوقت فقط، سألتني هل أكتب شعرًا؟ سألتُها عمَّن؟ وأصابها هذا بارتباكٍ أكثر، وشعرتُ بالأسف والضعة. وغيَّرت زمام هذا الموضوع على الفور، وفتحت الجهاز المبرد ذا البطولة الروحية الذي ابتكره «دانتي أليجيري»، ونال امتيازه في كل البلدان. تحدثتُ بسرعة عن نفسي وعن مشروعاتي. وفي وسط الحديث قمتُ لسوء الحظ بحركة مفاجئة ذات طبيعة ثورية. لا بد أنني بدوتُ مثل الشخص الذي يُلقي بحفنةٍ من البازلاء في الهواء. بدأ الناس ينظرون إلينا. صافحتني بعد لحظة وقالت وهي تذهب إنها تأمل أن أُنفذ ما قلته. والآن، أُسمِّي هذا ودًّا، أليس كذلك؟

أجل، لقد أحببتها اليوم، قليلًا أم كثيرًا؟ لا أعرف. لقد أحببتها وبدا ذلك شعورًا جديدًا مني. وإذن، في هذه الحالة، فكل ما عدا ذلك، كل ما فكرت أنني فكرته، وكل ما شعرت أنني شعرت به، كل ما عدا الآن، في الحقيقة …

آه، فلتترك ذلك يا عزيزي العجوز! نم عليه.

١٦ أبريل

الفرار! الفرار!

سحر الأذرع والأصوات. أذرع الطرق البيضاء، ووعدها بعناقٍ قريب، والأذرع السوداء للسفن الطويلة التي تقف في مواجهة القمر وحكاياها عن البلاد القصية. إنها كما لو تقول: إننا وحيدان، تعالَ. وتقول الأصوات معها: إننا أقرباؤك. والهواء مثقل برفقتهم حين يدعونني، أنا قريبهم، ويستعدون للرحيل، يهزون أجنحة شبابهم البهيج المرعب.

٢٦ أبريل

والدتي تُصلح ثيابي القديمة. إنها تصلي الآن، كما تقول، لكي أتعلم في حياتي الخاصة وبعيدًا عن البيت والأصدقاء، ما هو القلب وما هي مشاعره، آمين. فليكن كذلك، مرحبًا أيتها الحياة! إنني ذاهبٌ لكي أقابل للمرة المليون حقيقة التجربة، ولكي أصنع في مصهر روحي الضمير الذي لم يُخلق لعنصري.

٢٧ أبريل

أيها الأب القديم، أيها الصانع القديم،[٤٣] فلتعضدني الآن وإلى الأبد بروح من عندك.

دبلن ١٩٠٤
تريستا ١٩١٤

[٤٣] يشير إلى ديدالوس صانع تيه اللابيرينت.

جيمس جويس والرواية الحديثة

«إن الفن يقسم نفسه تبعًا للضرورة إلى ثلاثة أشكال يتطور الواحد منها إلى الآخر. وهذه الأشكال هي الشكل الغنائي، وهو الشكل الذي يقدم فيه الفنان فكرتَه بانعكاس مباشر من شخصيته، ثم الشكل الملحمي وهو الشكل الذي يقدِّم فيه الفكرة بانعكاس من شخصيته ومن شخصيات الآخرين، ثم الشكل الدرامي وهو الشكل الذي يقدم فيه الفنان فكرته بانعكاس مباشر من الآخرين».[١]

هذه الفكرة التي أنطق بها جويس بطله المشهور ستيفن ديدالوس الشخصية الأولى — ولعلها الأخيرة — في روايته «صورة للفنان في شبابه» تنطبق تمام الانطباق على أدب جويس نفسه، بل يمكن أن نجد صدًى لهذه الفكرة ذاتها في فكرِ كلِّ فنانٍ أصيل. وشرح الفكرة هو أن الكاتب أو الفنان يبدأ مهنته الفنية بتعبير مباشر عن نفسه، عن العواطف والأحاسيس التي تختلج بها روحه بطريقة تلقائية مباشرة. ويشرح جويس ذلك بقوله: «الشكل الغنائي هو في الواقع أبسط كساء لفظي لانفعالٍ ما، هو صيغة ذات إيقاع، كتلك التي كان يُطلقها مَن يُجذِّف في القارب أو ذلك الذي كان يدفع الصخور فوق أحد المنحدرات، ويشعر مَن ينطق بها بلحظة الانفعال أكثر مما يشعر بنفسه كشخصٍ يحس بهذا الانفعال.[٢]

---

[١] «صورة للفنان في شبابه» لجيمس جويس، طبعة جوناثان كيب، ١٩٥٨، ص ٢١٨.

[٢] «صورة للفنان في شبابه» لجيمس جويس، ص٢١٩.

ويتطور الشكل الملحمي عن الشكل الغنائي، ويشتد فيه تفكير الكاتب في نفسه كمركزٍ لحادث ملحمي، حتى يتساوى البعدُ بين نفسه وبين الشخصيات الأخرى التي يريد خلقها في كتاباته، وفيه يقول جويس: «وفيه لا تُعَد الحكاية شخصية صرفة، بل تجوس شخصية الفنان في ثنايا القصة، وتحف بالشخصيات الأخرى والحدث الرئيسي كأنها النهر الحي المتدفق».[٣]

أما الشكل الدرامي فهو قمة الاكتمال الفني لدى الكاتب، حين تملأ حيوية الفنان — التي سبق أن أحاطَت بالشخصيات الأخرى — تملأ هذه الشخصيات من الداخل، حتى إن كلَّ شخوص القصة أو العمل الفني أيًّا كان، تتخذ حياةً جمالية قائمة متشابكة، ويقول فيها جويس: «تتخذ شخصية الفنان في هذه المرحلة مكانًا بعيدًا عن وجود الرواية، بعيدًا عن شخصيتها الذاتية … ويبقى الفنان — كالإله الخالق — خلف ما صنعه، أو على مقربة منه، أو في داخله، غير منظور، بعيدًا عن وجود الرواية، بعيدًا عن شخصيتها الذاتية … ويبقى الفنان — كالإله الخالق — خلف ما صنعه، أو على مقربة منه، أو في داخله، غير منظور، بعيدًا عن الوجود، لا مباليًا …»[٤]

ومن الواضح أن جويس قد استخدم كلمة الرواية كمثال، أو ربما كانت هي الأقرب إليه بالنظر إلى كونها الفن الذي برع فيه. ولكنه حين تحدث عن طريقة الخلق الفني هذه، إنما عَنى في الواقع جميع أنواع الفن، من رواية إلى مسرح إلى نحت وتصوير ورسم … إلخ.

ويمكن أن يُقتفى أثر ما قاله جويس في نظريته تلك — إن كان يصحُّ إطلاق اسم نظرية عليها — في أدب جويس ذاته، فهو قد بدأ بكتابة رواية هي مع الأصالة الفنية الواضحة فيها — ترجمة ذاتية، وهي «صورةٌ للفنان في شبابه»، ثم انتقل منها إلى الشكل الملحمي، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ في نفس جويس، بكتابه الغريب المشهور «يوليسيس»، حتى وصل إلى المرحلة الثالثة، الدرامية، بكتابه الأكثر غرابة «يقظة فينيجان».

وقد وُلد جيمس جويس في دبلن بأيرلندا في عام ١٨٨٢، وتلقَّى دراسته في بعض مدارسها الجيزويتية ثم بالجامعة الملكية، حتى تخرَّج في كلية الآداب عام ١٩٠٢، وانتقل إلى باريس حيث درس الطب، ولكنه عاد إلى دبلن عند وفاة والدته وعمل بالتدريس فيها

[٣] «صورة للفنان في شبابه» لجيمس جويس، ص٢١٩.

[٤] «صورة للفنان في شبابه» لجيمس جويس، ص٢١٩.

فترة، ثم استأنف سياحته في القارة الأوروبية فأقام مدةً في كلٍّ من إيطاليا وسويسرا وفرنسا، وكتب أشهر مؤلفاته إبان هذه الفترة. وقد تُوفي جويس عام ١٩٤١.

ويُعَد أدب جويس الروائي ثورةً على فن الرواية الذي كان شائعًا في عصره، ذلك العصر الذي ساد فيه ثلاثةٌ من الروائيِّين أدبَ الرواية في إنجلترا، وهم أرنولد بينيت، وجون جولز ويرذي، وهـ. ج. ولز، ويُعَدون كلهم من أمراء الأدب الطبيعي الذي يؤمن بتقديم صورة حية من الحياة الواقعية، كما هي سواء بجمالها أو ببشاعتها، في أدق التفاصيل وأوضحها، وهو المذهب الذي سار عليه «إميل زولا» في فرنسا، و«تيودور درايزر» في أمريكا، وهم في سبيل الوصول إلى غرضهم، يُوردون كلَّ التفاصيل الدقيقة فيما يصفونه أو يكتبون عنه، مما يعطي العمل الفني — في نظرهم — واقعيةً حية تُجسِّد الحوادث والشخصيات أمام القارئ، غير أنهم اقتصروا في وصفهم ونظرتهم على النواحي الخارجية مما يكتبون عنه فحسب، كأن يصفوا ملابس الشخصية أو صفاتها الجسمانية، وهكذا التزمت الواقعية عندهم حدود نظرتهم الخاصة، فكان القارئ يتعرف على شخصيات رواياتهم وأعمالها عن طريق وسيط ثالث — حاضر أبدًا — هو المؤلف. وحتى في الروايات التي تتولى السرد فيها إحدى شخصيات القصة، يشعر القارئ بالمؤلف قابعًا في خلفية الصورة يحرِّك هذا وينطق ذاك.

وجد جويس نفسه وسط هذا الجو التقليدي فلم يتقبله كغيره، بل أخذ يجدُّ باحثًا عن تجديدات أخرى في الكتابة ووسائل أخرى للتعبير، بعد أن أتاحَت له رحلاته إلى مختلف دول أوروبا الاطلاعَ على النشاط الأدبي المتنوع في العواصم المهمة ومنها باريس. وكان أن اهتدى إلى الطريقة المشهورة في الأدب باسم «تيار الوعي». والحقيقة أن طلوعه بمثل هذه الطريقة الجديدة يُثير تساؤلاتٍ كثيرةً وتكهناتٍ أكثر؛ ففي مدى عشرة أعوام من مطلع القرن العشرين كتَب ثلاثةٌ من الروائيِّين المشهورين رواياتِهم بثورة تجديدية واحدة تقريبًا — تدور حول استبطان النفس — وهؤلاء هم: مارسيل بروست[٥] وجيمس جويس

[٥] الروائي الفرنسي الشهير (١٨٧١–١٩٢٢) بدأ حياتَه كرائدٍ من رواد المجتمع الفرنسي الراقي، ثم اعتزل في منزله بعد وفاة والده ووالدته وإصابته بالأمراض، حيث عكف على كتابة روايته الطويلة «البحث عن الزمن الضائع» التي تتكوَّن من ١٢ جزءًا، كل جزء يكون رواية كاملة. وقد تأثر فيها بالفيلسوف الفرنسي هنري برجسون وبنظرياته في الزمن والديمومة.

ودوروثي ريتشاردسون،[٦] فماذا يا ترى يكون الحافز الذي دعا هؤلاء الثلاثة إلى الالتجاء إلى نفس الطريقة للتعبير عن أنفسهم، مع اختلاف أحدهم عن الآخر اختلافًا جوهريًّا، ورغم البعد الذي يفصل بينهم؛ فبروست فرنسي، وجويس أيرلندي، وريتشارد سون إنجليزية؟

أعتقد أن ذلك يرجع إلى أسباب غير مباشرة وأخرى مباشرة، وسيكون سبيلنا إلى تبيان هذه الأسباب سبيلًا كذلك إلى تبيان الطريقة الجديدة التي اتبعها جويس ورفاقه، طريقة تيار الوعي، ووسائلهم الأخرى الجديدة بمناحيها المختلفة.

فأول الأسباب هو الحالة السياسية والاجتماعية القلقة التي سادت العالم في تلك الفترة من أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وجعلت البعض يفقد شعور الأمن والاستقرار ويتطلع إلى ميدان آخر أكثَرَ ثباتًا وأشدَّ يقينًا مما وجده فيما حوله، وكان أن فشل في ذلك أيضًا، لما كان يتَّصف به العالم في هذه الأوقات من غليان وثورة. ووجد هذا البعضُ نفسَه وحيدًا منطويًا، فارتدَّ إلى نفسه الداخلية يستبطنها ويقبع في داخلها يكتشف أغوارها، علَّه يجد فيها حقيقة تكون الوحيدة التي يراها في حياته.

وقد أدى المبدأ المادي الذي ساد في ذلك الوقت، والذي ينادي بأن العالمَ كلَّه تحكمه سلسلةٌ من التطور المادي الآلي، والأطماع الاستعمارية للدول وتبريراتها لتلك الأطماع، أدَّى ذلك إلى تفشِّي المبادئ المادية بين الأفراد، وتغلَّبت على الجانب الإنساني فيهم، وإيمانهم بمبدأ الفرد في خدمة المجموع وأنه ليس إلا نقطة في بحر كبير. ومن ناحية أخرى، دفع هذا بعض الكُتَّاب إلى الثورة على هذا التيار المادي الدافق والنزوع إلى التيار الرومانسي الذي سبق أن ساد أوروبا في القرن التاسع عشر، أيام وضع الرومانسيون الأوائل الإنسان فوق قاعدة عالية وتعبدوا له، فكان «ووردزورث» ينسج قصائده في تمجيده الإنسان، «وبيزون» في تمجيد حريته، وكتب توماس كارلايل كتابه في عبادة البطولة والأبطال، مبيِّنًا أن فردًا واحدًا قد يكون له من الأهمية والأثر أكثر مما لأمة بحالها. رجع ذلك البعض إلى هذه الأفكار ونادى بها، حتى إن بعض النقاد يُطلقون على هذه الفترة «الرومانسية السيكولوجية»، فهي قد تعتبر امتدادًا أو ظلًّا لحركة الرومانسيِّين في القرن ١٩، مدعمة بالرغبة السيكولوجية

[٦] دوروثي ميلنر ريتشاردسون: ١٨٧٣–١٩٥٧، كاتبةٌ إنجليزية من رواد طريقة تيار الوعي، أمضَت طفولتها وشبابها في أواخر العصر الفيكتوري في إنجلترا، وعملت بالتدريس والصحافة. من أهم أعمالها التي لفتت بها الأنظار العمل الضخم Pilgrimage التي تتضمن ١٢ فصلًا في ١٢ كتابًا، وهو عبارة عن تيار وعي شخصية واحدة.

للفرد في استكناه ذاته وأسرارها، مستكنهًا بذلك ذات وأسرار الطبيعة البشرية، فنظر الفنان إلى شخصيته في ضوء جديد يتمثلها مركزًا للكون، وعاد إليها يستلهمها مادته وأفكاره.

وأما السبب الثاني — وله من الأهمية ما للسبب الأول إن لم يَفُقه في ذلك — فهو طلوع العالِم النمسوي سيجموند فرويد على الدنيا بعلمه الجديد عن النفس الإنسانية، فكشف به جانبًا مهمًّا من نواحي الفكر الإنساني كانت غائبةً عن أبنائه، هي النفس بأسرارها وغوامضها. وغزا هذا العلم الجديد جميع أطراف الحياة ووجوهها العامة منها والخاصة، وكان الأدب على قمة ما شمله العلم الجديد، وتأثر به كُتَّاب الرواية بصفة أخص في تشكيلهم لشخوص مؤلفاتهم وطريقة تقديمهم لها في تلك المؤلفات. وكانت الشخصية الروائية قبل ظهور الرواية الحديثة — أي في العصر الفيكتوري — قائمةً على أساس ما يمكن أن يُطلق عليه «الجانب الواحد»، أي الجانب الذي يرغب المؤلف في تقديمها عليه، فكانت الشخصية غالبًا إما أن تظهر بمظهر الخير أو الشر طوال وجودها على صفحات الرواية، وهي لا تستمد كينونتها من داخل نفسها أو نتيجة لحوادث مرَّت بها، بل تستمدها من إرادة المؤلف في إظهارها على هذه الصورة أو تلك. لذلك فالشخصية الروائية في ذلك العصر كانت ساكنة (وليست نامية)، بمعنى أن تكون لكل شخصية من الشخصيات بعض الصفات المميزة التي لا تتغير من بدء الرواية إلى نهايتها، وكان ذلك يخدم الغرض الذي رمى إليه روائيُّو هذا العصر — الفيكتوريون وما بعدهم — وهو إبراز مذهب من المذاهب أو فلسفة من الفلسفات، أو لتركيزهم على الرغبة في خلق شخصيات عظيمة يتذكرها القراء، مثل شخصية ماجي توليفر عند جورج إليوت أو سدني كارتون عند تشارلز ديكنز.

أما جويس وزملاؤه من كتَّاب القصة الحديثة، فقد ركزوا اهتماماتهم على الفرد، على الإنسان الذي لا تبرز فيه صفة خاصة تكون كل شيء فيه، إنما الإنسان كما هو في الحقيقة والواقع، فمن الواضح أنه لا يمكن أن يكون إنسان ما خيِّرًا أو شريرًا طوال عمره، في أخلاقه وسلوكه، وفي أفكاره التي تراوده؛ فالإنسان ليس آلة أو جمادًا، بل هو مخلوق حي يشعر ويتجاوب مع الأحداث، كلٌّ حسب دلالتها بالنسبة له. وهو إنسانٌ يرغب، ورغباته لا يمكن أن تتفق حتمًا مع القواعد الأخلاقية. وقد يبدو أحدهم في سلوكه الخير كله، بينما هو في داخلية نفسه الطامع الحقود. وعلى ذلك فالرواية الحديثة لا تنظر إلى الإنسان على أنه نوعٌ معين، ولا تضعه في رتبة معينة، بل أصبح الإنسان عبارة عن لحظات من الشعور، وتختلف هذه اللحظات باختلاف الظروف والمواقف، فقد تأتي لحظةٌ من الشر بعد الخير، ولحظةٌ

من الحقد بعد الحب ... وهكذا، ولم تَعُد للإنسان أو للفرد في الرواية الحديثة شخصية معينة ثابتة، بل تناوله الروائيون على أنه شيء يأمل، أو شيء يفكر، أو شيء يكره ... إلخ. لقد اعتبر روائيو العصر الحديث النفس الإنسانية بحرًا كبيرًا يموج بأنواع لا حصر لها من الأسماك، فهذا سمك أحمر، وذاك أسود، وتلك سمكةٌ من نوع القرش، وذاك أخطبوط، وهكذا، أي إن النفس الإنسانية — تلك الدنيا الواسعة — أصبحت تُقدَّم بكل ما فيها من عواطف متضاربة متضادة.

وقد عرف المحدثون من كتَّاب الرواية هذه الحقائق كلها كما قدَّمها لهم علم النفس، وأدركوا أن هذا الجانب المختفي في الإنسان هو الأجدر بالتصوير، فإذا كان الأدب تعبيرًا وتصويرًا للنفس الإنسانية، فهذه النفس لا توجد في الظواهر الخارجية للأشياء وللأحياء، بل في جواهرها الداخلية، فعمد الروائيون إلى عقولٍ وأذهان شخوصهم يعملون فيها بحثًا وتنقيبًا، ويقدِّمون للقرَّاء ما يمر على هذه الأذهان من خواطر وخلجات، وهذه هي الواقعية كما يفهمونها. فبدلًا من أن يتعرف القارئ على إحدى الشخصيات من خلال وصف المؤلف لملامحها، ولما ترتديه من ملابس، يقدِّم لنا الكاتب ما تفكر فيه هذه الشخصية، وأفكارها عمَّا تراه حولها، فنلمس بذلك شخصيتها الحقيقة رأسًا، ونكون قد تعرَّفنا عليها أكثر من تعرُّفِنا عليها بوصف مظهرها الخارجي.

أما ثالث هذه الأسباب التي أدت إلى التغيير الجوهري في معالجة فن الرواية، فهو الحركة الرمزية التي سادت الأدب والفن — وخاصةً الشعر — في تلك الأوقات، ونبهت الأذهان إلى وجود طرق أخرى غير تقليدية يمكن تطبيقها على أنواع الأدب.

وقد جاءت المدرسة الرمزية كردِّ فعلٍ للمذهب الطبيعي الذي انتهجه زولا في فرنسا وزملاؤه في البلاد الأخرى، وظهرت تباشيرها الأولى عند إدجار آلان بو[٧] الذي «خلط بين وظائف الحواس نفسها»،[٨] ووصلت الحركة الرمزية إلى صورتها الكاملة على يدي ستيفن

[٧] شاعرٌ أمريكي وُلد في ١٨٠٩ في بوسطن وعاش يتيمًا، تلقَّى علومه المدرسية في إنجلترا ثم قضى فترةً ما بجامعة فيرجينيا، وقضى بعدها سنوات غير مستقرة، وعَمِل بالصحافة والكتابة، وله موهبة خاصة في كتابة القصة القصيرة، خاصة البوليسية منها، كما ساهم في النظرية النقدية بمقالات قيمة. وكان من أوائل الشعراء الذين كتبوا الشعر باللغة الرمزية.

[٨] فن الشعر للدكتور إحسان عباس (١٩٥٩)، ص٦٥.

مالارميه،[٩] ورامبو،[١٠] وفاليري،[١١] ولافورج[١٢] من فرنسا، ومن الأهداف الرئيسية لهذه الحركة عدم استخدام الأدب ليخبر عن شيء ما، «وعدم الكتابة بلغة واضحة مفهومة»، وأعلن أصحابها أن الأدب لا بد أن يقترب في كل أشكاله من الموسيقى، وألا يكون محدد الموضوع، حتى يمكن أن يكون ذا قيمة جمالية خالصة؛ لذلك دأب الشعراء الرمزيون على التلويح بالشيء لا تسميته صراحةً، وقد كتب الدكتور إحسان عباس يلخص وجهة نظر الرمزيين في هذه الناحية بما يلي:

«يختلف إحساسنا من لحظة إلى أخرى، فمن المستحيل أن نعبِّر عن إحساساتنا كما نحسُّها، بواسطة اللغة الموضوعية. ولكل شاعر ذاتيته الخاصة، ولكل لحظة من لحظات حياته نغمتها. ومن مهمة الشاعر أن يبتكر اللغة التي تستطيع أن تعبِّر عن ذاتيته ومشاعره، وكل ما كان خاصًّا فإنه يمرُّ لمحًا وغامضًا، فمن المستحيل نقله بالتقرير والوصف، وإنما يتم نقله بتتابع الكلمات والصور التي تستطيع أن تُوحي للقارئ. أي إن هذه الرمزية تَداعٍ في الأفكار بطريقة معقدة ممثلة بخليط من المجازات التي يُراد منها أن تنقل شعورًا خاصًّا.»[١٣]

[٩] مالارميه (١٨٤٢–١٨٩٨) شاعرٌ فرنسي، عمل مدرسًا للإنجليزية في إحدى مدارس باريس، أقام في منزله صالونًا أدبيًّا يؤمُّه طلاب الأدب الشبان، وقد حاول في شعره البحث عن نظريات جمالية جديدة، وله ابتداعات مثيرة للإعجاب في هذا المجال، ويعتبر مالارميه زعيم المدرسة الرمزية.

[١٠] جين آرتور ريمبو (١٨٥٤–١٨٩١) شاعرٌ فرنسي اتسمت حياته بمظاهر المغامرة والمخاطرة المستمرة. بدأ في كتابة الشعر منذ سنٍّ مبكرة واتصل بالشاعر بول فيرلين، وكانت مشاجرته معه ومحاولة الأخير قتله بالرصاص سببًا في كفه عن كتابة الشعر نهائيًّا في سن التاسعة عشرة، حيث رحل إلى الشرق الأقصى وأفريقيا.

[١١] بول فاليري (١٨٧١–١٩٤٥) شاعرٌ فرنسي اشتهر منذ بدأ في نشر قصائده في مجلتي: L'Ermitage, Le Centaure. وقد بدأ فاليري مرحلةً جديدة في الشعر الفرنسي، فلقد تأثر بمالارميه وآمن مع الرمزيِّين بأن الشعر الخالص لا بد أن تكون له قيمة ذاتية.

[١٢] جول لافورج (١٨٦٠–١٨٨٧) شاعرٌ فرنسي، مات ولم يتجاوز عمره ٢٧ عامًا، له مكان هام في تاريخ الشعر الفرنسي للتأثير الذي أجراه على بعض الشعراء المعاصرين أكثر من إنتاجه هو نفسه، وتشيع في شعره رنة تشاؤمية يائسة.

[١٣] فن الشعر للدكتور إحسان عباس، ص٦٩.

وعلى ذلك فقد نبَّهَت هذه الحركة الروائيِّين المحدثين إلى الضعف الذي ينتج عن ذكر الحقائق بطريقة مباشرة تقريرية، ودفعتهم إلى استخدام التصوير بدلًا من التقرير والإشارة بدلًا من الإفضاء، ووجدوا أن الطريق السليم الذي يساعدهم على هذا السبيل هو إزاحة شخصية المؤلف جانبًا، وترك المجال للقارئ للاتصال بشخصيات الرواية عن طريق خواطر وأفكار هذه الشخصيات ذاتها. وقد أشار إدموند ولسون[١٤] إلى العلاقة القائمة بين الرمزيين وفن الرواية الحديثة، وذكر أنه من العسير جدًّا التعبير عن مشاعرنا المعقدة المتشابكة باللغة التقليدية العادية، وأن على الكاتب ابتكار اللغة الفريدة التي تُناسبه لإبراز مشاعره وخلقه الفني. وكان هذا ما فعله الرمزيون والروائيون المحدثون على السواء.

وقد تعاونت هذه المؤثرات والدوافع على تشكيل نظرة عامة لبعض الروائيين تجاه هذا الفن، وعملت على إجراء هذه التغييرات المهمة التي حدثت فيه. أما السبب المباشر الذي دعا جيمس جويس — موضوع مقالنا — إلى الخروج بهذه التجديدات إلى النور فيرجع — كما قال هو — إلى «إدوارد دي جاردان». ودي جاردان هذا كاتبٌ فرنسيٌّ صغيرٌ، كتب روايةً اسمها «لقد قطعت أشجار الغار Les Laures sont coupes». وفي هذه القصة يجد القارئ داخل عقل الشخصية الرئيسية فيها من أول كلمة حتى آخر كلمة، أما الأحداث في القصة فلا تكاد تُذكر، وخلاصتها أن شابًّا لاهيًا في باريس يقع في حب ممثلة، ويجود عليها بالمال الذي كانت تُكثر في طلبه، آملًا في النهاية أن تجود عليه بأكثر من الكلمات المعسولة والبسمات، ولكن الزمن يُثبت له أنه كان يبني قصورًا في الهواء …» ولكي تستبين الطريقة الجديدة التي استخدمها دي جاردان نورد للقارئ أنموذجًا من هذه الرواية:

> «أحمر وذهبي (إنه الآن داخل المطعم)، بريقٌ من الضياء، المقهى، المرايا اللماعة، النادل ذو المئزر الأبيض، مشاجبٌ عليها قبعات ومعاطف». هل أعرف أحدًا هنا؟ أولئك الناس يراقبونني منذ دخلت، محجوزة، فأين سأجلس؟ هناك بعيدًا مائدة خالية. عظيمٌ، إنها المائدة التي اعتدتُ أن أجلس عليها. ولِمَ لا يحصل المرء على مائدته الأثيرة؟ لا شيء في هذا يحمل «ليا» على الضحك.

---

[١٤] إدموند ولسون، ناقدٌ أمريكي معاصر، يعتمد مذهبه في النقد على وجوب تقديم تفسير وشرح لما يريد الفنان تقديمه في عمله الفني. من أعماله المهمة: Axel's Castle, Triple Thinkers.

> – خدمةٌ يا سيدي؟
>
> النادل، المائدة، قبعتي على المشجب. انزع قفازي، أأضعه، بلا اكتراث، على المائدة بجانب الصحن، أم أضعه في جيب معطفي؟ لا، على المائدة، إن مثل هذه التوافه تدل على طراز المرء، فلأعلق معطفي الآن، وأجلس، هذا أفضل. حقًّا، إنني لمنهك. وأخيرًا الأفضل أن أضع قفازي في جيب المعطف[١٥] ...

ويبدو أن هذه القصة قد وقعت في يد جويس بطريقةٍ ما فقرأها. وعندما كانوا يسألون من أين ينبثق فنُّ القصة الجديد، كان يجيب دائمًا بأنه مدين في ذلك لإدوارد دي جاردان، مما أضفى على الأخير قسطًا من الشهرة في أخريات أيامه. ويذكر ليون إيديل في كتابه عن القصة السيكولوجية أن في قول جويس بدينه لدى جاردان اعترافًا ضمنيًّا بأنه مدين للحركة الرمزية؛ ذلك لأن دي جاردان كان من الرمزيين.

وهكذا اتخذ المذهب الجديد شكله واستبان بفضل أبطاله الذين أخلصوا له في جميع ما كتبوه، ولا يمكن لأحدٍ أن يتناول هذا المذهب الجديد بالمفاضلة بينه وبين المذاهب الأخرى التي سادت قبله؛ لأن لكلٍّ هدفه الذي يسعى إليه، ويُقاس نجاحه أو فشله بمقدار نجاحه في تحقيق هذا الهدف أو فشله في ذلك، فقد ركَّز المحدثون اهتمامهم على الحياة الداخلية للفرد بدل الخارجية، وصوَّروا صراع وعلاقة الدوافع والعناصر مع بعضها البعض في داخل نفسه، بدلًا من تصوير صراعه مع أفرادٍ آخرين أو علاقاته معهم.

والمذهب النفسي الجديد عند جويس يرتكز في أساسه — كما قدمنا — على تقديم الأفكار والخواطر التي تَرِد على العقل في خلال جميع ألوان التجارب الخاصة منها والعادية، فقد عمد إلى إيلاج كاميرا فوتوغرافية إلى عقل شخصياته، ووجَّه عدستها لا إلى الخارج بل إلى العقل نفسه، لتقديم صورة لما يجول فيه من ملايين الأفكار والذكريات عن مختلف الموضوعات. ولكن هناك حقيقة مهمة لا بد من إيضاحها جنبًا إلى جنب مع الفكرة السابقة، وهي أن جويس في اتباعه لهذه الطريقة قد حرص أيضًا على أن يتبع طريقة «الانتقاء» في تقديم هذه الأفكار، فلم يكتب كلَّ ما يخطر على بال شخصياته من خواطر، وإنما قدَّم منها ما يُفيد روايته وموضوعه الذي هو بصدده. وهذا ما يُنفي عن روايات جويس ما نادى به البعض من تفككٍ وسوء بناء؛ فكل ما أورده جويس من تيار الوعي لدى شخصياته

[١٥] القصة السيكولوجية، ليون إيديل، ترجمة الدكتور محمود السمرة، (١٩٥٩)، ص ١٢٣.

يساعد على إبراز صفات الشخصية الروائية وتجاربها، ويفيد في فهمنا لها. وقد أساء بعض الروائيِّين ممن جاءوا بعد جويس، أساءوا فهمَ طريقته، فعمدوا إلى تقليدها تقليدًا أعمى وقدَّموا لنا العقل البشري في حالات عمله اليومي بما يخطر عليه أفكار مفككة غير مفهومة، فجاء عملهم فجًّا لا معنى له ولا ترابط فيه، مما ينفي عنه صفة الفن الأصيل.

وبعد هذا العرض للمذهب الجديد، نحاول الآن معالجة رواية من روايات جويس، وهي «صورةٌ للفنان في شبابه». وهذه الرواية كتبها جويس في خلال عشر سنوات ما بين عام ١٩٠٤ وعام ١٩١٤، وهي أول حلقة من سلسلة فنه كما خططها في أواخر هذه الرواية — الحلقة الغنائية — التي يكتب فيها الفنان عن حياته وعن تجاربه. وقبل كل شيء يجب أن نُعطيَ فكرةً سريعةً عن القصة وما جاء بها. والرواية مكوَّنة من خمسة فصول، ويبدأ الفصل الأول بذكرياتٍ تجول في ذهن «ستيفن ديدالوس» عن أيام طفولته، بينما يكون في مدرسة كلونجوز الثانوية الداخلية يلعب مع زملائه في الفناء. ويبدو لنا فكره مشغولًا بالأمور الصبيانية التي تشغل بال التلاميذ جميعًا، من شعوره نحو زملائه في المدرسة، وعن ذكريات تجول في ذهنه عن أبيه وأمه، وميولهما السياسية والدينية التي لم يكن يتفهمها وقتذاك، ثم يمرض ستيفن ويحلم في مستشفى المدرسة بأنه قد مات والجميع يصلون عليه، ثم يذهب ستيفن إلى منزله لقضاء إجازة عيد الميلاد، ونرى الاستعدادات لحفل العيد من خلال تفكيره، ثم يشهد وهو على مائدة الطعام نقاشًا بين أبيه وبين «العمة دانتي» حول السياسة، وحول الزعيم «بارنل» الذي يتعصب له الوالد، ويتطور النقاش حتى يمسَّ الجانب الديني وتخرج العمة دانتي مغضبة، ونعود مع ستيفن إلى المدرسة، ونجد التلاميذ يتحدثون عن اثنين من زملائهما سيُعاقبان لأنهما أتيَا أمرًا غير طيب. ثم نرى ستيفن في فصل الدراسة، وباله مشغول بأمور الجرائم والعقاب والظلم، ويدخل المشرف الفصل ويسأل ستيفن لماذا لا يقرأ كزملائه، ويعتذر ستيفن بأن نظارته قد كُسرت هذا الصباح وقد أرسل لمنزله في طلب نظارة جديدة، وقد أعفاه المدرس من الدراسة لحين ورود النظارة الجديدة، ولكن المشرف يظن أن ستيفن يتهرب بهذه الحجة ويضربه بالعصا على يديه. ويحزُّ هذا الظلم في نفس ستيفن، وتتدافع الانفعالات في نفسه حتى إنه يذهب إلى مدير المدرسة ليعرض عليه قصة هذا الظلم الذي حاق به. ويعده المدير بأنه سيحدِّث المشرف في ذلك، ثم نرى انعكاس ما حدث، في أفكار ستيفن ومجرى ذكرياته.

وفي الفصل الثاني نرى ستيفن في بيت والده أثناء العطلة الصيفية، ونتعرف على اهتماماته الصغيرة التي كانت تمنحه السعادة والفرص للتفكير، وعلى أحلامه وخيالاته

وآماله في مقابلة مرسيدس بطلة الكونت دي مونت كريستو. ويضطر والد ستيفن إلى الانتقال إلى دبلن — العاصمة — حيث فرص العيش واسعة. وبعد ذلك، نعلم شيئًا عن حب ستيفن لفتاة تُدعى إيلين كانت رفيقة لهوه أثناء الطفولة الأولى، وينظم أشعارًا لها، ونشهد أثناء ذلك كيفية تكوُّن التجربة الفنية والإنتاج الفني في نفسه، ويُمثل ستيفن دورًا في تمثيلية في إحدى حفلات مدرسته الجزويتية الجديدة بدبلن، بينما إيلين تشاهده من بين صفوف النظارة. وبعد الحفل يتجول ستيفن وحيدًا، ويتذكر تأنيب مدرِّس الإنشاء له لأنه كتب مرةً عن موضوعات دينية، ثم يقابل زميلين له يُضايقانه بكلامهما عن الشعر والأدب. ويشعر ستيفن بانعزاله ووحدته وغرابة الحياة التي يجدها عمَّا يريدها أن تكون عليه. وتنمو الرغبة الجنسية في صدره مع مرور الزمن، فيهيم على وجهه في الطرقات، ويُشبع رغبته مع الساقطات في أحيائهن.

وفي الفصل الثالث تتكرر زياراته لهذه الأحياء، ويشعر أنه قد غَرِق في الخطيئة ولا مرد له عنها، ثم تقيم المدرسة احتفالها السنوي بذكرى القديس فرانسيس إكسافيير — راعي المدرسة — حيث تُلقَى خطبٌ ومواعظُ كثيرة. وفي الاحتفال وأثناء الخطبة الرئيسية يَصِف الواعظ الموت والعقاب والحكم على الروح الضالة والخطيئة، فيكون تأثيرها عظيمًا في نفس ستيفن، ويشعر بالخزي مما يفعله. وفي اليوم التالي يَصِف الواعظ الجحيم الذي سيكون مثوى الخاطئين، ويَصِفه وصفًا بشعًا: حيث لا يستطيع مَن لعنوا فيه التحرك حتى ولا لطرد دودة تقرض العين. ويؤكد الواعظ على العذاب الحسي والنفسي للمخطئين، وعلى أبدية العذاب والعقاب، ويرتجف ستيفن من هول ما سمع، ويحنُّ للبراءة والطهر، ويَعِد بالعمل طول حياته لإثبات ندمه على ما اقترف من خطيئة.

وفي الفصل الرابع نجد ستيفن، وقد غمره التدين والورع وخوف الله، يعترف بخطاياه أمام القس، ثم يدعوه مدير المدرسة ذات يوم ويعرض عليه الالتحاق بسلك الكهنوت، كي يصير راهبًا في خدمة الدين، ويبين له ما سيُتيحه له هذا من قوة روحية، ويطلب إليه أن يفكر في الأمر. ونرى ستيفن بعد ذلك في صراعٍ مع نفس، تتدافع على ذهنه ذكريات حياته السابقة في كلونجوز الثانوية، ويرتفع في ثنايا روحه صوتٌ يدعوه إلى عدم الانخراط في هذا السلك الديني الذي سيقيِّد روحه، دون أن يُدرك أثناءها ماذا سيفعل بحياته بعد ذلك. وفي أثناء تجواله ذات مرة على الشاطئ تنبثق في نفسه الحياة التي يشعر أنه قد خُلق من أجلها، الفنان الذي يشكِّل من مادة الأرض الهزيلة شيئًا جديدًا ساميًا لا يموت، ويحس بالحياة تدعوه أن يعيش الحياة، أن يخطئ، أن ينتصر.

وفي الفصل الخامس نرى ستيفن بعد أن عثر على هدفه وغايته من الحياة، ونستمع إلى مناقشاته العديدة مع أساتذته ومع زملائه عن نظرية الجمال ونظرية الخلق الفني، وندرك أنه قد أخلص للغاية التي وهب نفسه لها، وهي الفن، وذلك بالعمل على حرية روحه من العوائق التي تُثقلها، والتي يوضحها لزميله بأنها المنزل والبلد والدين. وقد تعرَّض — بسبب آرائه تلك — لسخط الساخطين بما في ذلك أبويه. وحين يجد أن أيرلندا لا توفر له المكان الذي ينشد فيه انطلاقه وحريته، يقرر الذهاب إلى باريس لمحاولة التعبير عن نفسه هناك. وتنتهي الرواية بيومياتٍ كتبَها ستيفن يتحدث فيها عمَّا يمر به من حوادث تهمُّه قبل سفره إلى باريس، وبها ذكر حبيبتَه إيلين التي لم يُصادف حبُّه هوًى في قلبها، ثم يُهيِّئ حاجياته للسفر، ويدعو سميَّه الصانع القديم ديدالوس[١٦] أن يسدِّد خطاه فيما هو مقدمٌ عليه.

هذا عرضٌ سريع لما جاء في الرواية، وهو بالطبع مجردُ عرضٍ جافٍّ عارٍ لحوادث الرواية، ولا يمثِّل بحالٍ طبيعتَها في العمل الفني الكامل المتكامل، ولا بناءَه المعجز.

وحين بدأ جويس في كتابة هذه الرواية، لم تكن على هيئتها الحالية، بل كانت رواية أخرى تحمل اسم «ستيفن بطلًا». ويبدو أنه رأى أنها لا تحقق ما كان ينبغي تقديمه، فألقى بمخطوطها إلى النيران، وقد التقطت زوجته المخطوط بعد أن احترقَت منه بعض الأجزاء، وقد طبعت هذه الرواية بعد ذلك وخرجت إلى النور. و«ستيفن بطلًا» رواية عادية تقليدية في طريقةِ سرْدِها، وموضوعُها محشوٌّ بكثيرٍ مما هو غريب عليه، وليس هناك وجهٌ للمقارنة بينها وبين الرواية الجديدة التي كتبها جويس عن الموضوع نفسه. والأمر الذي يُثير التساؤل هو: لماذا أعاد جويس كتابة «ستيفن بطلًا»، وما هي المؤثرات التي جعلَته يُقدِم على ذلك ...؟

قضى جويس فترةً من الوقت في باريس في الأيام التي اجتمع فيها ما أُطلق عليهم بعد ذلك اسم «الجيل الضائع»، وتردَّد معهم على الصالون الأدبي الذي أقامَته الكاتبة الأمريكية «جرترود شتاين»[١٧] هناك، حيث كانت تناقش الأمور الأدبية في حرية وتجديد، وخاصةً

[١٦] نحَّات ومثَّال يوناني تناولَته الأساطير اليونانية. قيل إنه شيَّد مبنى التيه لملك كريت «مينوس»، ثم غضب عليه الملك فصنع أجنحةً له ولابنه إيكاروس وطارا إلى سيسلي. وقد استخدم جويس هذه الأسطورة مطلقًا على «ديدالوس» اسم أمير الصانعين.

[١٧] مؤلفةٌ من أسرةٍ ألمانية تلقَّت علومها في كاليفورنيا وأوروبا، ثم تركت سير دراستها العادية ولحقت بأخيها في باريس عام ١٩٠٢، وجعلت منها محلَّ إقامتها الدائمة، وأقامت فيها صالونًا أدبيًّا مشهورًا،

الأسلوب الروائي وحاجته إلى التركيز الذي يمنحه من العمق الشيء الكثير. ويبدو أن ما سمعه جويس من مناقشات وآراء في هذا الصالون قد أثَّر فيه أيما تأثير، ودفعه إلى محاولة تطبيق النظريات الجديدة في الرواية، ومنها على سبيل المثال الكتابة بأسلوبٍ مركَّز، وخالٍ من الزخارف اللفظية، وهو ما نشهده ونلمسه بوضوح في رواياته كلها. وهذا ما يُوجِّه نظرنا إلى وجه الشبه بين أسلوب «صورة للفنان في شبابه» وبين أسلوب الكاتب الأمريكي إرنست همنجواي في رواياته وقصصه؛ فقد كان هيمنجواي كذلك من رواد هذا الصالون الأدبي الذي أثَّر في كثير من الكتَّاب المجددين المشهورين. وقد اعتمد هيمنجواي اعتمادًا كليًّا على أسلوبه الجديد هذا وطوَّر فيه، وأضاف إليه حتى أصبح مذهبًا في الكتابة يعتمد على التواضع في التعبير Understatement، وهو الأسلوب الذي سنتحدث عنه بعد ذلك. ويرى الكثيرون أن تأثر جويس بالمناقشات التي سمعها عند جرترود شتاين، هو ما دفعه إلى إلقاء روايته الأولى في النار وشروعه في صياغتها صياغةً فنية جديدة جاءت في «صورة للفنان في شبابه».

أما الرواية ذاتها فيمكن تناولها من ناحيتَين: ناحية الفلسفة الكامنة وراءها، وناحية بنائها الفني؛ فإذا نظرنا إلى القصة من الوجهة الأولى نتبين فيها غرضًا ساميًا قدَّمه لنا جويس — ليس بصورة مباشرة غير مقنعة — وإنما من خلال ثنايا عمل فني متكامل الأطراف؛ فقد صوَّر لنا جويس نفسًا فنانة تعيش وسط بيئة تقليدية، في صراعٍ مع الفقر والمغريات والقيود. ومن خلال هذه الصورة تلمس الطريقَ إلى غرضه، من تبيان أن الفنَّ والإخلاص له هو أهمُّ حدثٍ في حياة الفنان وأن بالفن وحده — الفن الحقيقي لا الفن الزائف — يمكن للفنان الأصيل أن يحقِّق وجوده وذاته في هذه الحياة، وأن النفس الفنانة حقًّا تجد طريقها إلى هدفها، مهما كانت الصعوبات التي تجتاحها والظلمات التي تكتنفها. وتلفُّ هذه الفكرةَ فكرةٌ أخرى أعمق وأوسع، هي فكرة الحرية.

فأما من ناحية الفن، فإن جويس حرص على أن يقدِّم لنا شخصية ستيفن ديدالوس منذ البداية في صورة النفس المرهفة الفنانة، التي تنظر إلى ما حولها بالنظرة التحليلية الحساسة التي يتصف بها كلُّ فنان أصيل؛ فستيفن يشعر في حدة بانعزاله عن الآخرين،

كان يرتاده مشاهير الأدباء من جميع الجنسيات. من أشهر كتبها: الجغرافيا والمسرحيات (١٩٢٢) – ثلاث حيوات (١٩٠٩) – تكوين الأمريكيين (١٩٢٥).

ووحدته في وسطهم، وطالما فكَّر في الأشياء الصغيرة التي يراها من حوله، والتي لا تجذب عادةً انتباهَ الشخص العادي؛ ولهذا نراه في الفصل الثاني وطاقاته الفنية تتفتح:

«وحين كانت العربة تدنو من أحد المنازل كان ينظر قليلًا حتى يُلقي نظرةً على المطبخ المصقول أو الصالة المضيئة، وليرى الطريقة التي ستحمل بها الخادمة الجرة والطريقة التي ستُغلق بها الباب».[١٨]

هذه اللمحات التي قدَّمها لنا المؤلف في ثنايا القصة، إن هي إلا إرهاصات لما سيحدث بعد ذلك لهذه الطاقات الفنية التي تكمن في نفس ستيفن ديدالوس الفنان الصغير. وقد تعذبت هذه النفس المرهفة بأحاديث العذاب السماوي؛ لأنها كانت قد وقعت في الخطيئة، وأحس ستيفن بصور العذاب والنيران والآخرة أكثر من الآخرين، لما في روحه من قدرة على الخيال، وعلى تقليب الأمور على جميع وجوهها، فكانت النتيجة المبدئية أن تهاوى أمام الخوف، وخضع لما يُمليه عليه الدين من تحريمات وقيود، ولكن بذرة الفن في هذه الأثناء — الفن الذي لا يرضى بالقيود ولا يحيا إلا في ظل الحرية الكاملة — كانت لا تزال كامنة فيه وإن اختفت إلى حين؛ فقد ظهرت حين كان مدير المدرسة الدينية يعدُّ العدة للقضاء على الفن في روحه نهائيًّا. فحين عرض عليه مدير المدرسة أن ينضمَّ إلى سلك الكهنوت ويصير قسًّا، أحسَّ بصراعٍ في نفسه لم يُدرك ماهيته، وإن كان القارئ قد فطن إلى أن طاقته الفنية تتفاعل في وجدانه بصورة لا شعورية، حتى انبثقت أخيرًا وقد أدرك الغاية التي خُلق من أجلها، وهي التعبير عن نفسه بواسطة الفن، لكي يصنع عملًا خالدًا ساميًا، ويرى ستيفن مرةً فتاةً جميلة تغسل قدمَيها على الشاطئ، فيشعر بفنِّ الجمال وبجمال الفن في الوقت نفسه، ويحس أن هذه الدنيا تدعوه إليها ليجرِّب ويُخطئ ويندم، بدلًا من أن يصير قسًّا ويقيد نفسه بمحرمات الدين، التي لا تتفق — في رأيه — مع الحرية التي تطلبها روحه لتعبِّر عن نفسها في الفن. وهو في الفصل الخامس يحيا حياته بعيدًا عن القيود التي كبَّلت روحه فيما مضى، وكانت تقف حجرَ عثرة في سبيل انطلاقه الفني. وفيه نستمع إلى شرح ستيفن للنظرية الجمالية التي توصَّل إليها، وهي نظرية تتفق ونظريته في الحرية والفن، بما كان يدعو فيها إلى الموضوعية، غير أن ستيفن يُدرك أن لا حرية تامة إلا بعد أن يتخلص من أشد القيود قسوة، الدين، البلد، المنزل، فيسعى إلى التخلص من

[١٨] صورةٌ للفنان في شبابه لجيمس جويس، ص٦٦.

هذه كذلك، فنجده وقد أنكر الدين، وإن لم يُنكر الإله، فهو يتفق في ذلك مع الكاتبة جورج إليوت قديمًا. ثم نعلم في آخر الرواية أنه على أهبة السفر إلى باريس، فيحقق ما ينشده من الحرية الكاملة بعيدًا عن وطنه — أيرلندا — أشبه كما قال عنه بالأم التي تأكل أبناءها، وهو يقول عن أهدافه لصديقه «كرانلي» وقد سأله هذا عما يريد أن يفعل:

«سأُخبرك ما سأفعله وما لن أفعله. إنني لن أخدم شيئًا لم أَعُد أُومِن به، سواء كان ذلك منزلي، بلدي، أو كنيستي، وسأحاول أن أعبِّر عن نفسي في الحياة أو في الفن على أكثر الأشكال حريةً وكمالًا، مستخدمًا للدفاع عن نفسي الأسلحة الوحيدة التي أسمح لنفسي باستخدامها: الصمت، النفي، المقدرة».[١٩]

ويرى كثيرٌ من النقاد أن فكرة الحرية التي وردت في هذه الرواية، إن هي إلا بذرة وجودية؛ فالوجودية أصلًا تدعو إلى أن يختار الإنسان، لا أن يقبل ما يُفرض عليه دون أخذ رأيه. وعملية الاختيار هذه هي ما يخلق من المرء إنسانًا حقًّا، حتى لو وقف وحيدًا دون سند أو مُعين في حريته الرهيبة، وستيفن ديدالوس في الرواية يختار فعلًا — بعد أن خبر حيرة القلق الوجودي — يختار طريق الحرية والفن، رغم إدراكه أنه سيقف وحيدًا في طريقه هذا، وهو لا يخشى ذلك، ولا يخشى أن «يرتكب خطأً، حتى لو كان خطأً عظيمًا، خطأً يدوم العمر كله، أو يدوم دوام الأبدية ذاتها».[٢٠]

وفكرة نبذ جميع القيود وصنوف الإغراء في سبيل الإخلاص للفن، واتخاذ الفن وسيلة للتعبير عن النفس، تظهر في عملَين فنيَّين كبيرَين، هما «زهرة العمر» لتوفيق الحكيم، و«الغثيان» لجان بول سارتر. ففي «زهرة العمر» نرى المحاولة التي كان يدبرها المجتمع والمنزل في سبيل القضاء على الفن في روح توفيق الحكيم، فقام صراعٌ في نفس الفنان بين رغبة أهله في توظيفه في وظائف القضاء المحترمة، وبين بذرة التعبير الفني الكامنة في أعماقه المتأصلة فيه. وقد كبَّله عملُه الحكومي وقيَّد روحه عن تهويماتها الفنية، وكان أثناءها كما يقول: أسير بخطًى ثابتة نحو الإطار النهائي الذي يريد أن يحبسني فيه المجتمع.[٢١] ويقول أيضًا: «أخشى أن يحطمني المجتمع … يحطم الفنان في … ربما كان قد

[١٩] صورة للفنان في شبابه لجيمس جويس، ص٢٥١.

[٢٠] صورة للفنان في شبابه لجيمس جويس، ص٢٥١.

[٢١] زهرة العمر … ص١٨٥.

حطمني وكسرني ... ولكني أقاوم.»[٢٢] ويقول: «وا أسفاه ... مات ذلك الفنان ... وحلَّت روحُه في جسد رجل قانون! ... أترى الفنان يا أندريه يُبعث من مرقده يومًا؟»[٢٣] وهو يثور على رغبات أهله في تقييده بقيد الزواج، ويقول لهم لا بأعلى صوته مثلما قال ستيفن ديدالوس: «لن أخدم» بأعلى صوته. وآخر الكتاب، تعبير عن إصرار الفنان على خوض المعركة — معركة الفن — تمامًا مثل نهاية «صورة الفنان»، فيقول الحكيم: «إني أومن بأبولون ... أومن بأبولون إله الفن الذي عفرت جبيني أعوامًا في تراب هيكله ... إنه ليعلم كم جاهدتُ من أجله وكم كافحت وناضلت وكددت! باسمه أخوض المعركة الكبرى، وأنازل كل مجتمع وكل حياة وكل عقبة تحول بيني وبين فني الذي منحتُه زهرة أيامي التي لن تعود ...»[٢٤] ويقول جويس: «مرحبًا أيتها الحياة، إنني ذاهبٌ لأُلاقي للمرة المليون حقيقة التجربة، ولكي أصنع في مصهر روحي الضمير الذي لم يخلق لأمتي. يا أبتي القديم، أيها الصانع القديم، فلتهبني المعونة من لدنك الآن، وفي كل وقت.»[٢٥]

أما العمل الآخر الذي تظهر فيه هذه الفكرة (وقد أوردنا هذه المقارنة لتوضيح رواية جويس عن طريق الموازنة) — رواية «الغثيان» لجان بول سارتر — فهي تصور أنطوان روكانتان وتفاهة الحياة وعبثية الوجود يضغطان على نفسه، ونجده يتلفت حوله باحثًا عن المخرج، فلا يجده إلا في الفن، عن طريق التأليف الخالق الذي قد يجد فيه ذاته ويرى فيه وجوده، وهو يقول حين يتخذ طريقه إلى باريس بعد أن قرر اللجوء إلى الفن عن طريق كتابة روايةٍ ما: «ولكن لا بد أن تأتيَ لحظةٌ يصبح فيها الكتاب مكتوبًا، ويصبح خلفي، وأظن أن شيئًا من نوره سيسقط على ماضيَّ ولعلني أستطيع آنذاك أن أتذكر، عبره، حياتي من غير اشمئزاز. ولعلني ذات يوم، إذ أفكر بهذه الساعة بالذات، هذه الساعة الكئيبة التي انتظر فيها، منحنى الظهر، أن يحين الوقت لأصعد القطار، لعلني سأشعر بقلبي يزداد سرعةً في الخفق، وسأقول لنفسي: «في ذلك اليوم، وفي تلك الساعة، إنما بدأ كل شيء». وآنذاك سأنجح — في الماضي وليس في غير الماضي — أن أقبل نفسي».[٢٦] فروكانتان لن يقبل وجوده إلا عن طريق التعبير عن النفس، وديدالوس أعلن نفس العزم قبل ذلك.

[٢٢] زهرة العمر ... ص١٨٦.

[٢٣] زهرة العمر لتوفيق الحكيم، كتاب الهلال، ١٩٥٥، ص١٨٦.

[٢٤] زهرة العمر ... ص١٨٩.

[٢٥] صورة للفنان في شبابه لجيمس، جويس، ص٢٥٧.

[٢٦] «الغثيان» لجان بول سارتر، ترجمة الدكتور سهيل إدريس، دار الآداب، ١٩٦٢، ص ٢٥٠.

أما من ناحية النظرية النقدية الجمالية التي يعرضها ستيفن خلال تجواله مع صديقه «لينش»، فهي مهمة في حد ذاتها؛ لأنها هي ذاتها المبادئ الجمالية التي اعتمد عليها جويس، وأراد أن يؤسس فنَّه كلَّه بمقتضاها. ومن الجدير بالملاحظة في هذا المجال تشابه هذه النظرية مع النظرية النقدية الحديثة لدى كبار النقاد المعاصرين أمثال: ت. س. إليوت،[٢٧] وكلينيمث بروكس[٢٨] وروبرت بن وارن[٢٩] وغيرهم؛ فديدالوس يُصِر على ضرورة النظر إلى الجميل في ذاته مجردًا عن أي عوامل أخرى تدخل في إضفاء صفات أخرى عليه، فلا نخلط مثلًا بين الجمال وبين المبادئ الأخلاقية أو بينه وبين النفع أو الخير، فلا نحكم على صورة لطفل بأنها جميلةٌ لمجرد إبرازها لمعنى الطفولة التي تُوحي بالبراءة، ونحكم على لوحة للشيطان بأنها قبيحة لأنها ترتبط في الذهن بمعنى الشر. وأيضًا يُصر ت. س. إليوت في نقده على تناول العمل الفني في حد ذاته مجردًا عن مدلولاته الاجتماعية أو الأخلاقية أو حياة مؤلفه أو ما شابه ذلك من موضوعات. وكما يتفق جويس في نظرته النقدية مع النقد الحديث، فهو كذلك يتفق معه في النظرة الإبداعية في الفن، ففي نظرية التطور الفني لدى الكاتب التي عرضنا لها في بداية هذا المقال، والذي يعتبر جويس فيها الفن تطورًا، من الغنائي إلى الملحمي إلى الدرامي، ينظر إلى الطور الأخير على أنه أكمل الوجوه الفنية التي يجب أن يسعى كلُّ كاتب للوصول إليه. وفي هذا الطور الدرامي نجده ينصُّ على أن يعرض المؤلف فنَّه أو أفكاره بطريقة موضوعية بحتة، مقصيًا نفسه وميوله واتجاهاته

[٢٧] شاعرٌ وناقد أمريكي وُلد في عام ١٨٨٨ بولاية ميسوري، وتلقَّى علومه في جامعات هارفارد والسوربون وأكسفورد، ثم عَمِل في لندن كمدرسٍ وموظفٍ ومحرر. وفي ١٩٢٢ أصدر مجلة كرايتربون، ثم أصبح عضوًا في مجلس إدارة دار النشر الكبرى «فابر وفابر». وقد تجنس إليوت بالجنسية البريطانية في (١٩٢٧)، ومن أشهر أعماله النقدية، الغابة المقدسة (١٩٢٠)، مقالات مختارة (١٩٣٢)، نفع النقد ونفع الشعر (١٩٣٣)، وراء آلهة غريبة (١٩٣٤). ومن دواوينه الشعرية: بروفروك وملاحظات أخرى (١٩١٧)، الأرض الخراب (١٩٢٢)، أربعاء الرماد (١٩٣٠)، أربع رباعيات (١٩٤٤). ومن مسرحياته جريمة في الكاتدرائية (١٩٣٥)، اجتماع شمل العائلة (١٩٣٩)، حفلة كوكتيل (١٩٥٠)، السياسي العجوز (١٩٥٩).

[٢٨] ناقدٌ أمريكي معاصر يعتمد مذهبُه على الموضوعية التامة في تناول العمل الفني. من أشهر كتبه «فهم الشعر» مع روبرت بن وارن، والآنية المحكمة الصنع، والشعر الحديث والتقاليد.

[٢٩] كاتبٌ وناقدٌ أمريكي معاصر انضم إلى الجماعة الشعرية المعروفة بالـ Fugitives، واشترك في تحرير مجلة Southern Review (١٩٣٥–١٩٤٢)، ومن رواياته «رجال الملك جميعًا» التي حازت جائزة بولتزر للرواية، ومن شعره ديوان «وعود» الذي فاز بجائزة بولتزر للشعر.

المباشرة كليةً عما يكتبه. وكذلك دعا ت. س. إليوت إلى الموضوعية في الناحية الإبداعية، وخرج في مقال له بعنوان «الموروث الأدبي والموهبة الشخصية»[٣٠] بنظرية «اللاشخصانية» في الشعر، وهي تتلخص في أن التجارب التي يمر بها الفنان الأصيل تخرج من عقله، وقد صُهرت وتبلورت حتى إنها لتستحيل شيئًا آخر لا يمتُّ بصلةٍ شخصية لتجربة الكاتب الأصلية.

وأهم ما تتميز به «صورة للفنان في شبابه» بعد هذا العرض لفلسفتها، هو أسلوبها وبناؤها الفني؛ فالأسلوب ينحو منحى أسلوب هيمنجواي في كتاباته المتميزة بالجمل القصيرة المتقطعة، الأسلوب البرقي. والفرق بين استعمال هيمنجواي لهذا الأسلوب واستعمال جويس له، أن استعمال الأول ناتجٌ عن الرغبة في الوصول بالصنعة الفنية وطرق تصويرها إلى مناخات قوية جديدة، وهو قد نجح فيما ابتغاه، بينما استخدم جويس هذا الأسلوب كطريقة طبيعية لتيار الوعي الذي يسعى لتصويره، فمن الطبيعي أن الأفكار تترى على الذهن متقطعة سريعة في غير ترابط ولا انتظام؛ ولذلك نجد هذا الأسلوب يزيد من نجاح واقعية جويس الفكرية، ويدعم الطريقة التي اختارها لسرده القصصي.

ويشرح المدافعون عن هذا الأسلوب البرقي الذي يدَّعون بالتواضع في التعبير، بقولهم إن أقصر وأقوى الطرق لتوصيل الفكرة إلى القارئ، هي أبسطها في التعبير عنها؛ فبدلًا من إقامة العوائق في الطريق إلى ذهن القارئ بالتشبيهات والاستعارات والتكرار في العبارات والمعاني، يجب أن يُزال كلُّ حشوٍ وزخرف من الجملة، والاقتصار على أقل قدر ممكن من الكلمات. فمثلًا بدلًا من أن نقول: «كانت ليلة يعصف فيها الريح عصفًا عظيمًا، ويخيِّم البرد على الدنيا كالحارس القاسي»، نقول: «كانت ليلة عاصفة باردة» فقط. وفي الفقرة التالية من «صورة للفنان في شبابه» يمكن إدراك كيف خدم جويس طريقته في السرد بهذا الأسلوب:

«وضحكوا جميعًا ثانيةً». وحاول ستيفن أن يضحك معهم، وشعر ببدنه دافئًا ومضطربًا على الفور. ما هو الرد المناسب لهذا السؤال يا ترى؟ لقد أجاب مرتين وما زال «ولز» يضحك، لا بد أن «ولز» يعرف الجواب الصحيح، فهو في الصف الثالث. وحاول أن يفكر في والدة «ولز»، ولكنه لم يجرؤ على النظر إليه، لم يكن يحب وجه «ولز» أن «ولز» قد ألقاه بالأمس في حفرة الملعب؛ لأنه رفض أن يبادل صندوقه الصغير بثمرة الكستناء

[٣٠] ت. س. إليوت: «مقالات مختارة».

التي يملكها «ولز». لقد كان فعلًا دنيئًا. هكذا قال الجميع، كم كانت المياه باردة قذرة! لقد شاهد أحد الزملاء مرةً فأرًا يقفز فيها.[٣١]

أما من ناحية البناء الفني للرواية، فأنا أعتقد أن «صورة الفنان في شبابه» قد بلغت الكمال، ولا يوجد شبيه لها من هذه الناحية في روايات الأدب الإنجليزي. إنها أشبه بالقصيدة في تطورها العضوي، وفي تضامن كلِّ جزء وحرف فيها نحو الوصول إلى معنًى كليٍّ واحد، فإنك لا تجد فيها شيئًا لا احتياج إليه، مهما بدا كذلك لعين القارئ في البداية. ولا تجد شيئًا زائدًا، بل كل جملة لها دورها في توضيح المعنى أو تطوير الشخصية، وبذلك تلعب دورها المهم في الرواية.

ونحن نجد اللغة في الرواية تنمو مع نمو بطلها «ستيفن ديدالوس»؛ ففي البداية نكون مع ستيفن الصبي بحكاياته ومشاغله الصبيانية، ونظرته البسيطة للأمور، وعلى هذا فكل ذلك يسرد بلغة وكلمات سهلة بسيطة كالتي يفكر بها الأطفال، ثم تنمو اللغة وكلماتها التي تمرُّ بذهن ستيفن كلما مرَّ به الزمن ونما، حتى النهاية حتى يبلغ البطلُ شأوًا من الثقافة والتفكير، نجد اللغة معقدةً شيئًا ما لتتلاءم مع تشابك فكر البطل وشطحات خياله. وقد أتاحت طريقة تيار الوعي لجويس التخلص من البناء التقليدي للقصص، الذي يصرُّ على تقديم تسلسل منطقي متتابع للأحداث، ولو أدى ذلك إلى تدخُّل المؤلف ليقدِّم تفسيرًا لكل ما يحدث في روايته، حتى تكون هذه الأحداث شيئًا منطقيًّا مفهومًا للقرَّاء. وجويس لا يفعل هذا وما كان له أن يفعله، فهو يقدِّم لنا ما يمرُّ على ذهن شخوصه؛ فإذا مرَّ بهذا الذهن شيءٌ مألوف لديه ومعروف له، ولكننا نحن القرَّاء لا نعرفه؛ فالمؤلف لا يتدخل لتفسيره، وإنما يتركه كما هو، حتى إذا ما سنحَت الفرصة بعد ذلك عَمِل على توضيح الأمر لنا في مسار الرواية، وهذه هي الواقعية الحقة. ولإيضاح ما تقدَّم، نقول إن جويس يذكر لنا في ثاني صفحة من الرواية، أن ستيفن وهو طفل قال إنه سيتزوج من «إيلين»، ابنة الجيران التي كان يلعب معها، فزجرته خالتُه دانتي وطلبت منه أن يعتذر وإلا سينزع الصقر مقلتَيه، ونحن لا نفهم سببًا لهذا الزجر على أمر طبيعي يقوله كل طفل عن رفيقة لهوه. ولكننا نعلم بعد ذلك أن «إيلين» هذه من مذهب في المسيحية يختلف عن ذلك الذي تعتنقه الخالة دانتي المتعصبة لمذهبها تعصُّبًا أعمى، ونحن لا نعلم هذا التبيان

[٣١] صورةٌ للفنان في شبابه لجيمس جويس، ص١٤.

إلا بعد سبعين صفحة من الإشارة الأولى لهذه الحادثة، ودون أي ربط بينهما، وكذلك فإن حوادث الرواية لا تترى في تتابعٍ منطقي مألوف، وإنما تأتي في مكانها المرسوم لها حسب ورودها على أذهان شخوص القصة.

وهكذا يرتبط كلُّ جزء في الرواية بالأجزاء الأخرى برباط وثيق، متعاونًا على إخراج بناء مُحكم دقيق لهذه الرواية الخالدة.


هنداوي